معراج الروح

تأليف

السيد حسن الأبطحي

إعداد

علي صراط الحق

السيد حسن الأبطحي

معراج الروح

ترجمة
ابراهيم رفاعة

دار البلاغة

مِعْرَاجُ الرُّوحْ

مِعْراجُ الرُّوح

السيّد حسن الأبطحي

ترجمة

ابراهيم - رفاعة

دار البلاغة

— الطبعة الثانية —

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

صلّىٰ الله عليك يا وليّ العصر . . أدركْنا .

ماذا تثير في نفسك عبارة (معراج الروح) حينما تسمعها لأوّل مرّة عنواناً لكتاب ، أو حينما تقرؤها علىٰ غلاف هذا الكتاب ؟

المعنويّة ، الرّوحانيّة ، التحليق إلىٰ عالم الحقّ والحقيقة ، قطع العلائق والعروج إلىٰ عالم الحقائق . . هكذا سيكون جوابك بالتأكيد .

أما إذا كنتَ إنساناً منفتحةً روحه علىٰ العالم العُلْويّ ، وكنت ذا قلب واعٍ قد جعله الله مشايعاً ومناصراً واقعيّاً لأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) ، وكان فؤادك مطمئناً بمحبّتهم . . فماذا يثير في داخلك عنوان الكتاب من أحاسيس ؟

إنّ الجلوس ساعة واحدة في محضر الرَّجُل الذي هو بطل موضوعات هذا الكتاب وحقائقه ، ممّا يغيّر باطن الإنسان ، ويُصيّره إنساناً متوجّهاً إلىٰ الله (تعالىٰ) ، ويجعل قلبه مأهولاً بمحبّة عليّ (عليه السلام) وأولاده . هذا الرجل الكبير هو المرحوم الشيخ محمود عتيق ، المعروف بـ (الحاج مُلّا آقا جان الزَّنجانيّ) رضوان الله تعالىٰ عليه . وكم أتمنّىٰ لو كنتم قد رأيتموه ! أتمنّىٰ لو نجد بين الناس أفراداً من هذا الطراز ، أو أن نحظىٰ بالتعرّف عليهم .

إنّ مقولة (وَصْفُ العَيْش نِصْفُ العيش) تعني أنّ وصف الحياة المُمتعة البهيجة يُشعر الواصفَ بنصف هذه المتعة والبهجة . وها نحن أولاء نَصِفُ ــ بالكلمات ــ ما رأيناه . . بمثل هذه المتعة والبهجة .

كان هذا الرجل مغادراً هذا العالم ، حين أمسكتُ بالقلم قبل اثنتي عشرة سنة ، وألّفتُ ــ أوّل ما ألّفت ــ كتاب (الإتّحاد والمحبّة) . فرأيته ــ ليلةً ــ في عالم الرؤيا يقول لي : (لقد غدوتَ كاتباً ، ولكنّك ما كتبتَ شيئاً عن حياتي) . وما زلتُ حتىٰ هذه الليلة (الرابعة عشر من شهر رمضان عام ١٣٩٥هـ) منصرفاً عن كتابة أيّ حرف في الموضوع ، لا تمرّداً علىٰ ما أراد ، لكنّي أخشىٰ ألّا يستوعب القرّاء إلّا قليلاً من الموضوعات التي أنوي كتابتها بَيْدَ أنّ المقولة القديمة (ما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كلُّه) جعلتني أعزم ، منذ تلك اللّيلة ، علىٰ تدوين ما شهِدتهُ من سيرته . علىٰ أنّ مُضيّ ما يقرب من عشرين سنة علىٰ وفاته ، دون أن أمتلك مذكّرات مدوّنة عنه ، ممّا لا يجعل الكتابة عنه كتابة دقيقة ، ولكنّي مطمئنّ إلىٰ أن الخطوط العامة لما أكتبه عنه خطوط سليمة ، ومذكِّرة ، ونافعة للسالكين إلىٰ الله (تعالىٰ) وهي ممّا تعضده الآيات وتؤيّده الروايات .

وعَليَّ هنا أن أذكر أنّي ما أردتُ أن أكون ــ في هذا الكتابِ ــ قَصّاصاً ، ولا حاكيَ أساطير ، ولا عارضاً لموضوعات مُسَلّية ، ولا كاتباً سيرة حياة إنسان من ولادته حتىٰ وفاته علىٰ نمط الكتابة التاريخيّة الرجاليّة . ولكنّي أبتغي ، بقراءتكم هذا الكتاب ، أن تتعرّفوا علىٰ ثمرة أربع سنوات من الحياة السليمة المرضيّة عند الله لوليّ من أولياء الله ، حَظيتُ ــ خلالها ــ برفقته وملازمته . ذلك أنّ هذا الكتاب هو ــ وحَسْبُ ــ ما نكرّر طلبه من الله (تعالىٰ) كلّ يوم في الصلوات أن يَهْدِيَنا (الصراط المستقيم) ، صراط السّعادة والإسعاد ، حتىٰ نتعرّف عليه ، ونعرف كيف نَسلك فيه .

من أجل هذا دوّنّا هذه الموضوعات الحقيقيّة الرفيعة بصيغة سيرة حياة

وليّ من أولياء الله (جلّ جلاله) . وينبغي أن أذكر أنّي ما التزمت بتدوين القضايا بحذافيرها ، ولهذا فاني أعتذر إذ جاءت هذه القضايا أشتاتاً متناثرة ، وإذ دُوّنت سيرة هذا الرجل فصولاً غير متسلسلة ، مع إغفال الكشف عن خصوصيّات حياة هذا العالِم الكبير .

أرجو الله (تعالىٰ) أن يجعل مقاماته ، في ذلك العالم العُلْويّ ، من أرفع المقامات ، وأن يتفضّل علينا (سبحانه) من الجوهرة التي أودعها قلبَ هذا الرجل ، ألاَ وهي مودّة أهل بيت العصمة (عليهم السلام) . . آمين .

تاريخ الولادة

يسألونني : في أيّ سنة وُلد الحاج ملاّ آقا جان ؟ فأقول : لا أدري !

ويسألونني : ما هو المستوىٰ الدراسيّ الذي بَلَغه ؟ فأقول : لا أدري !

ويسـألونني : كم ولـداً لهذا الـرّجـلُ العـظيم ؟ ومن أيّ أسـرة تـزوّج ؟ فأقول : لا أدري ! ولكنْ . . ألاَ أستطيع البحث في الموضوع ، والإجابة عن أسئلتهم ؟

بلىٰ ، إن المسألة يسيرة جدّاً ، لكنّي أبتغي توجيه اهتماماتكم نحـو أفق أعلىٰ .

في مدّة ارتباطي به ، ما بحثتُ يوماً في مثل هذه الموضوعات ، وإنّما كان كـلّ اهتمامي متـوجِّهاً تلقـاء طريقـة حياتـه المعنويّـة، وكيفيّـة اتّصـالـه بعـالـم المعنىٰ[1] وبخـالق العالم (جـل جلالـه) . وما كـان هو أيضـاً علىٰ استعـداد لإتلاف الوقت في مثل هذه الموضوعات . وقد حَـدَث أن سألتـهُ يومـاً : ألكم اطّلاع أيضاً علىٰ الكيميـاء[2] والعلوم الغريبـة [3] ؟ فنظر إليّ نـظر آسفٍ علىٰ

---

(١) عالم المعنىٰ يراد به عالم الحقائق المعنويّة العالية .

(٢) المراد به الكيمياء القديمة .

(٣) أي ما يشمل الطلّسمات والرُّقىٰ والرّمل والجفر .

سؤالي ، وقال : إذا كان الإنسان قد خُلِق لمثل هذه الأمور . . فما أقلَّ شأنه إذن ! إنّ قيمة الإنسان أرفع من أن يفكّر ــ ولو تفكيراً ــ في مثل هذه الأمور . وحين يغدو الإنسان إنساناً فانّ كلّ هذه العلوم والفضائل سوف تلقي نفسها في أحضانه ، فلا يكترثُ لها .

اللقاء الأول

في سنة ١٣٣٠ الهجريّة الشمسيّة[1] لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمري . في تلك السنة قضيت شهر رمضان بمشقّة كبيرة ، إذ حلّ شهر رمضان في منتصف الصّيف ؛ فالهواء حارّ ، والنهارات طويلة . كنت ضعيف المزاج ، وكنت خلال ذلك ملتزماً بمستحبّات هذا الشهر . لكنّ الأشدّ أذىً من ذلك عليّ هو أن قلبي كان ينكر ــ أحياناً ــ جميع المقدّسات . ما كان لديّ إيمان مستقرّ . أحياناً يهدأ قلبي ويسكن . ولكنّ عاصفة من الشكّ والتردّد كانت ، أحياناً أخرى ، تعصف بقلبي . لا أدري ماذا أفعل ؟

قصدتُ ، في أحد الأيّام ، العالم الجليل التقيّ الزاهد المرحوم الشيخ حبيب الله الگلپايگانيّ ، لأجد لديه علاجاً لهذا المرض الروحيّ ، فقال لي : ما ينبغي لك أن تغتمّ وأنت في هذه السنّ . فما يزال أمامك متّسع من الوقت ، ولسوف يستقرّ إيمانك عاجلاً ، ولسوف تستريح . إنّ ما تعانيه من أذى هو أثر من آثار وجود الإيمان في قلبك ، ولكنّه إيمان لم يستقر بعد . فإذا ما ذهب الإيمان ، في بعض الأحيان ، وخلا مكانُه . . شعرت بالأذىٰ والضّيق . ولو لم

(١) تُحسَب السنة الهجريّة الشمسيّة من بدء الهجرة النبويّة الشريفة وفق التأريخ الشمسيّ لا القمريّ . وكلّ سنة شمسيّة تزيد علىٰ السنة القمريّة بمقدار عشرة أيام . وتقارن هذه السنة(١٤١٠هـ) سنة ١٣٦٨ ـ ١٣٦٩ ش .

يكن في قلبك إيمان بالمرّة لما أحسست بغيابه ولا بالفراغ الذي يتركه . ولكنتَ قد ألِفْتَ ذلك لـمـا شعرتَ بالضيق . وكان ثمرة هذا اللقاء أن الشيخ أوصاني أن أزيد في مواظبتي علىٰ المستحبّات ، وأن ألهجَ بذكر الله ، وخاصّة (لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله العَليّ العظيم) ؛ فإنّه ربما يخلّصني من هذا الغمّ .

ولكني لم أجد لهذا العمل أثراً كبيراً . كانت نار العشق للمعنويّات ومرارة الأذىٰ من غياب اليقين ممّا يزداد في قلبي ، يوماً بعد يوم . . حتىٰ خَطَر لي أن أعتكف ، في ليـالي إحيـاء شهـر رمضـان ، بـرفقـة أبي ، في مسجـد (گـوهر شـاد)[1] ، وأن أدعو الله (تعـالىٰ) ـ خـلال اعتكـاف الإحيـاء ـ أن يهديني في الأقلّ إلىٰ من يكون مرشداً لي لإكمال إيماني .

منذ العشرين من شهر رمضان . . بدأت بالإعتكاف . وفي الليلة الثالثة والعشـرين اكتمل الإعتكـاف الأوّل ، فبـدأت بـالإعتكـاف الثـاني في مسجـد (گوهر شاد) نفسه . وإذ كنت ، في ليلة الإحياء تلك ، واضعاً المصحف علىٰ رأسي . . أخذني النوم ، فرأيت سيّداً له شَبَه بآية الله العظمىٰ القمّي (وأُلهمت في الرؤيا أنه هو بقيّة الله أرواحنا فداه) ، كان جـالساً في وسط المجلس علىٰ سرير ، وهـو القادر علىٰ حـلّ مشكلاتي . ذهبت إليـه ، وذكرت لـه قضيّتي ، فأشار إلى المرقد المطهّر للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) ، وقال :

ـ أطلبْ منه كلّ ما تريد . إنه لم يَمُت ؛ فالأدلاّء علىٰ الله يظلّون أحياء إلىٰ يوم القيامة .

---

(١) مسجد گوهر شاد من المساجد العظيمة عمارةً وجلالاً . يتّصل بالحرم الرضويّ الطاهر في مشهد من الجهة الجنوبيّة الغربيّة ، ولـه قبّة رائعة يبلغ ارتفاعهـا (٤٣) متراً . وفي المسجد منبر خشبيّ نفيس بأسم (منبر صاحب الزمـان عليه السـلام) ، يرجع تاريخ صنعه إلىٰ سنة ١٢٤٢ هـ .

بهذه الإشارة ، وبهذه العبارة . . قصدتُ الحرم المطهَّر لـلإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) بَيْدَ أنَّ هذه العبارة لم تكن لتقنعني .

قلت في نفسي : إنّ عليّ بن موسىٰ الرضا (عليهما السلام) مغادر هذه الدنيا . ومن الممكن أنّه يسمع كلّ ما أقول . . ولكنْ : ما الفائدة إذا كان لا يجيبُني ؟ بَيْـدَ أنّي واصلت طريقي ، حتّىٰ إذا دخلت الحـرم عرضت حـاجتي هنـاك . إذ ذاك دخلت السَّكينة فجـأة في قلبي ، فـاكتمـل يقيني ، وزال عنّي الإضطراب تماماً . استيقظت ــ وأنا علىٰ هذه الحال ــ من النوم ، والطمأنينة ما تزال في قلبي . تحرّكت من مكاني في المسجد علىٰ الفور ، وتشرّفت بدخول الحرم المطهَّر ، وعرضت حاجتي أيضاً ، ولكنْ في اليقظة هذه المرّة . لكأنّما قال لي الإمام الرّضا (عليه السلام) بلسان الحال : أعطيتُك حاجتك !

مستـأنساً كنت . وغـدت مناجـاتي للإمـام (عليه السـلام) ــ منذ ذلـك الوقت ــ لذيذة ممتعة ، بحيث اني كنت أقضي ما يقارب العشر ساعات يوميـاً في حرم الإمام (عليه السلام) ، فانكشفت لي الحقائق والمعـارف التي كنت أبتغيها ، وهي ممّا أعتذر هنا عن بيانه .

في أحد الأيّام ، إذ كنت جالساً قبالة الضريح أستمتع بالنـظر إلىٰ الحرم والضريح المقدّس ، أخذني النّعاس ، وربما نمت أو كنت في حـالة ذهـول ، فرأيت الضريح قد انفتـح . . وخرج منـه الإمام عليّ بن مـوسىٰ الرضـا (عليه السلام) ، فعلّمني طريقة في الإستغفار صار قلبي من بعدِها أكثر نوراً ، وصرت متخفِّفاً ، وغدوت مُهَيّئاً أكثر لتلقّي الحقائق . مضت عدّة شهور وأنا علىٰ هـذه الحال . كلّ يوم وكلّ ليلة أرىٰ رؤيا . وكنت مسروراً بأن أُعانَ بهذه الوسيلة .

رأيت ، في أحد الأيّام ، كأني جالس في الحرم المطهّر ، ورأيت رجلاً كبير السنّ واقفاً قبالة الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) . كان الرجل ذا مظهر جذّاب ، وقد أخرج يده من كُمّ عباءته . أمّا أنا فما كنت قد رأيتُ ذلك الرجل حتىٰ ذلك اليوم . قال لي الإمام الرضا (ع) : عاشِرْ هذا الرَّجُل .

أفقت من نومتي . خشيتُ أن يكون ما رأيت أضغاث أحلام . فما هي الحاجة إلىٰ إحالتي إلىٰ شخص آخر ما دمتُ سائراً على الصراط المستقيم ؟! قلت : لا شأن لي . ما دمتُ لا أعرف ذلك الرّجُل ، ولا أعرف عنوانه ، فالأفضل ألّا أفكّر فيه !

بعد مضيّ بضعة أيام علىٰ هذه الرؤيا (أي يوم الأحد الثالث من ربيع الأوّل) . . كنت جالساً وصديقي الشيخ (ج ـ ح) نتباحث في كتاب (العروة الوثقىٰ) ، في زاوية من مدرسة (نَوّاب)[1] في مشهد . حانت منّي إلتفاتة ، فرأيتُ رجلاً كبير السنّ قد دخل المدرسة ، واتّجه صوبنا ، ونظر إليّ لحظاتٍ نظرة عميقة . لم أعرفه في أوّل الأمر ؛ لأنّ بضعة أيّام قد مرّت علىٰ تلك الرؤيا . ولكنّي بالتدريج بدأت أشخّصه .

إنّه هو ذلك الشيخ الذي شاهدته في المنام . ولكنّي ـ خشية أن يكون عائقاً لي في برنامجي ، أو مانعاً لي ممّا عثرت عليه من لذيذ ارتباطي بالإمام الرّضا (عليه السلام) وبالدِّين وبالله ـ ما اكترثت له إطلاقاً . وإذ أحسّ بإعراضي عنه ، مرّ من أمامي ، وذهب إلىٰ غرفة طالب زَنجانيّ كان قد سكن هناك بشكلٍ مؤقّتٍ .

يبدو أنّه (كما اتّضح فيما بعد) قد سألَ الطالب الزّنجانيّ عنّي : هل تعرف فلاناً ؟ أجابه : نعم ، إنه قاعد داخل المدرسة ، سأناديه ليأتيك . ناداني الطالب الزنجانيّ ، ولكنّه لا يدري أني لم يسبق لي أن تعرّفت علىٰ هذا الرجل الشيخ ، إلّا من خلال تلك الرؤيا التي رأيتها قبل أيّام في الحرم . ولكنْ : كيف عرفني هذا الرجل المُسِنّ ؟ كان ذلك لغزاً انكشف فيما بعد . (فعندما عاشرته قال لي : أُلهمتُ قبل سنتين أن أتعرّف عليك ، فقصدتُ مدرسة نَوّاب ، ولكنّك

---

(١) بنىٰ هذه المدرسة في مدينة مشهد (نَوّاب ميرزا صالح) نقيب السادة الرّضويّة في عام ١٠٦٧هـ ، وهي من مدارس مشهد المهمّة .

كنت حديث عهد بهذه المدرسة . رأيت أن الوقت ما يزال مبكّراً ، فذهبت . وفي هذا العام عُدْتُ ، ورأيت أن الوقت قد حان . ومن أجل هذا عاشرتُك) .

رافقتُه في آخر الأمر ، وألقيتُ نفسي للمقادير ، وعزمت علىٰ أن لا تُفْلت من يدي هذه النعمة الروحيّة التي فُزْتُ بها في الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان . جلست عنده بضعة دقائق ، ولكنه ما تفوّه بأكثر من كلمتين : أنا الحاج ملاّ آقا جان الزّنجانيّ ، زائر الإمام الرضا . تعال لرؤيتي في الفندق الفلانيّ . قلت : علىٰ العين . وبعد أن تعرّفت علىٰ اسمه ، ذهبت إلىٰ الشيخ (ج ـ ح) الذي كان بانتظاري لإكمال المباحثة . وفي اليوم التالي ـ وقد صمّمتُ ألاّ أسأله عن شيء ـ ذهبت إليه بصحبة رهط من أصدقائي في فندق (نور الرّضا) الذي كان في وقتها عند باب الصحن الجديد . وعظنا ، وتحدّث إلينا عن أهميّة التوسل إلىٰ الله بأهل بيت العصمة (عليهم السلام) .

كان يرىٰ أن التوسّل والولاء لأهل بيت العصمة أعظم توفيق. ثمّ قرأ هذا البيت من الشعر ، وعاوَد بيان معناه المرّة بعد المرّة :

فـإنْ تُـرِدْ صُـحْـبَـتَـه وَحْـدَهُ فـانْفِضْ يـداً من كـلّ شيءٍ سـواه

ثم أوصانا بالإبتعاد عن كلّ أنواع عَبَدة الأوثان وعبدة الأقطاب ، والإبتعاد عن اتّباع المرشدين الذين سلكوا هذا المسلك من تلقآء أنفسهم .

وقال : إنّ الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) أحياء ، وهم الواسطة بين الحقّ والخلق . إنّهم في غير ما حاجة إلىٰ وساطة غيرهم ؛ لأنّ كلّ قطب ومرشد تتصوّرونه ليس في منجىً من الخطأ والإشتباه . أمّا الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ـ وما ثمّة تصوّر لأيّ خطأ والتباس لديهم (عليهم السلام) ـ فإنّهم واسطة الوحي ، وواسطة الفيض الإلهيّ .

قاطعه أحد الذين كانوا بصحبتي قائلاً : إذا كان الأمر كذلك ، فماذا تعني إذن عبارة (هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ) ؟

فقال في جوابه : إذا كان هـذا حديثـاً موثّق الصـدور عن الإمام (عليـه السلام) فتفسيره في الإمام (عليه السلام) نفسه ، ففي تلك الأزمنة كان الناس يؤدون أعمالهم الإسلاميّة دون معرفة تامّة ولم يكن لهم من العلماء من يرجعون إليه ؛ ولم يكن لهم من مرشد إلاّ الأئمّة (عليهم السلام) . وربّما تحتمل هذه الرواية كذلك الإشارة إلىٰ المرشد العادي ، علىٰ طـريقتي في الحديث معكم الآن ، إذ يلزم كلّ آمرىء أن يكون له رفيق يذكّره . أمّا إذا قلت لكم : اعملوا العمل الفلانيّ بتأثير من نفسي أنا ليؤتي العمل ثماره . . فهذا أمر مغلوط . إذا قلت لكم : تعالوا أسْلمـوني أنفسكم وآعقدوا لي بيعـة في أعناقكم بـاعتباري صاحب ولاية ، مع أني لست معصوماً ولا نائب المعصوم . . فهذا غلط أيضاً .

قال رفيق آخر : سمعت أنّ (جلال الدين الرُّوميّ) كان يسيـر يومـاً في الصحراء مع (شمس التبريزيّ) . . حتىٰ إذا بلغا نهراً قال شمس : يا عليّ . وعَبَر الماء . ولكن جلال الدين الروميّ غطس في الماء ، فسأله شمس : أنت ماذا قلت ؟ . قال له : كما قلتَ أنت . فقال شمس التبريزيّ : كلاّ ، إنك لم تصل حتىٰ الآن إلىٰ هذا المقام ، فيأخذ عليّ بيدك . ينبغي لك أن تنادي : يا شمس . أمّا أنا فأنادي : يا عليّ .

تضايق من سماع هـذه الحكايـة ، وقال لصـاحبنا : أنـا أقرأ لكم حـديثاً وروايةً ، وأنت تحكي لي حكايةً ؟! من سمات عليّ (عليـه السلام) أنّـه في حياته الدنيوية كان إماماً لا بوّاب له ولا حاجب . والآن إذ رحل عن هذه الدنيا وصارت يده أكثر انبساطاً . . أيحتاج إلىٰ وسيط إذن ؟!

إنّه لا يقول ولا يصـرّح في كلامـه أنّ الإنسان يصـل إلىٰ مقام يستمـدُّ فيه مبـاشرةً من الجلال والجمال الإلهيّ ولا شأن له بوساطة الأنبياء والأئمة . فهو يرىٰ نفسه في مستوىٰ الأئمة (ع) وكما انّ النبيّ والإمام يستمدّان من الله أحكام الشـريعة والطريقة والحقيقة والفيوضات الظاهريّة والمعنويّة ، فهو يستمدُّ كذلك .

وخلاصتها ، فإنّه بحثٌ في هذه المسألة بمقدارٍ ، ولكنّ روحيّة المجلس

كانت قد توارت خلال الحوار ، فسكت هو ، واستأذنّا للخروج ، ثمّ غادرنا الفندق .

كان ذلك يوم الأثنين ، ثم ما رأيته حتىٰ يوم الجمعة . . فقبل ظهر الجمعة من ذلك الأسبوع كنت خارجاً من الحرم حين رأيته يدخل الحرم من الصحن الجديد ، فقال لي بلهجةٍ تركيّةٍ مستعذبة[1] :

ــ ها . . لِمَ لَمْ تأتِ بعد ؟!

أشرتُ إلىٰ القبر المقدّس للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) وقلت : أولاً أنا أعلم أين ينبغي أن أذهب ، ثمّ إنك قد أكّدتَ في ذلك اليوم ألّا أتوسّل بأحد غير أهل بيت العصمة (عليهم السلام) .

فقال : ها . . جُعِلْتُ فِداك ! أنا لا أقول لك : تعال أكن مرشداً لك ، أو كُنْ مريداً لي ، ولكنّي أقول[2] :

أقول لأهل القلوب الحزانىٰ : هلمّوا لكي نلتقي للبكاءِ !

(قرأ هذه العبارة من شعر « بابا طاهر » بقلبٍ محترقٍ ، وبدموعٍ وتأوّهٍ . . حتىٰ تغيّرت حالته) ، وقال :

ــ عزيزي ، أقول : هلمّ نكن رفيقين ، نجلس معاً ، لنذرف الدمع علىٰ فراق إمام زماننا . ما كان أولئك ــ في ذلك اليوم ــ أخلّاء لك ، ولذلك ما آقترحت عليك في وقتها أن نغدو رفيقين .

وعلىٰ أيّ حال ، فقد تحدّثنا في هذا اللقاء بأحاديث كان منها أنّي سألته :

---

(١) مدينة زنجان التي منها المرحوم الحاج ملاّ آقا جان . . وما حولها من المناطق ، يتكلّم أهلها باللغة التركية التي هي لغتهم الأمّ ، وغالبيّتهم يعرفون الفارسيّة أيضاً .

(٢) هذه ترجمة شعرية ، وهو شأن غالب ما ورد في الكتاب من الشعر الفارسي .

ــ لماذا لا أرىٰ إمام الزمان ؟

فقال : ما زلتَ صغير السنّ .

قلت : إذا كانت القضيّة مرهونة بلياقتنا نحن للقائه (عليه السلام) ، فلا أحد ــ ولا حتّىٰ سلمان الفارسيّ ــ له لياقة التشرف بلقائه (عليه السلام) . ولكن إذا كانت القضيّة مرهونة بلُطفه فانّه قادر أن يشمل بلطفه حتّىٰ الحجر .

استراح إلىٰ قولي كثيراً ، وقال : هذا صحيح . وتأهّبْ غداً مساءً في الحرم وقت الغروب ، وسوف يأتيك الفَرَج .

في تلك الليلة كنت في الحرم ، وكنت مبتهجاً . ولكنْ لأني كنت أظنّ أني ربما أحظىٰ بلقاء إمام الزمان (عليه السلام) ، ولم أوفّق إلىٰ ذلك . . فقد كنت محزوناً ، وذهبت بعدئذٍ إلىٰ المنزل لتناول العشاء . وفي الطريق مررت في زقاقٍ مظلمٍ ، فرأيت في تلك الظلمة سيّداً ميّزت مشخّصات ثيابه ، وحتىٰ خضرة عمامته كانت جليّةً . وحينما قَرُب مني ابتدأني بالسلام ، فأجبتُه . وفكّرت في هذا التوافق غير العادي : من يكون هذا السيّد الذي له هذه الهيئة ؟ رجعت بهذا الشكّ وبهذه الحيرة إلىٰ الفندق . وما ان وقع نظره عليّ ــ وأنا لمّا أجلس أو أنطق بحرفٍ ــ حتىٰ راح ينشد هذه الأبيات (من شعر حافظ الشيرازيّ)[1] :

١ ــ جوهرةُ خزانةِ الأسرار ما تزال (مَصُونة) ، وحُقُّ الحُبِّ لم يَزَلْ مختوماً بخاتمه . . كما كان .

---

(١) هذه ترجمة نثريّة لأبيات حافظ ؛ فمن العسير ترجمة قصائد هذا الشاعر شعراً بدون التضحية بشيء من المعاني ، إضافة إلىٰ ما في الترجمة عامةً من الجور علىٰ رونق الشعر وبهائه . أمّا الأشعار الأخرىٰ التي وردت في هذا الكتاب فقد تمّت ترجمتها شعراً ، مع المحافظة ــ بقدر الإمكان ــ علىٰ دقة المعاني .

٢ ــ ما ثمّة من طالبٍ للياقوت والجواهر . . في حين أنّ الشمس لم تكفّ عن تأثيرها في (تَجَوْهُرِ ذخائرِ) المناجم . . كما كانت .

٣ ــ العُشّاق هم عُصْبة أهلِ الأمانة (علىٰ الأسرار) . . فعيونُهم الماطرةُ لؤلؤاً ما تزال . . كما كانت .

٤ ــ سَلْ نسيمَ الصَّبا يُخبِّرْكَ أنّ عبيرَ ذؤابتِكَ هو الذي يؤنس روحي علىٰ طول الليالىٰ حتّىٰ الصباح . . كما كان .

٥ ــ إنّ لونَ دم قلبي الذي تحاول إخفاءه ما يزال يفضحه ياقوتُ شفتِك الحمراء . . كما كان .

٦ ــ أدْرِكْ قتيلَ غمّازتِـكَ بزيـارةٍ منك ؛ فهـذا المسكين هو نفسُـه ذلك المضربُ الفؤاد . . كما كان .

٧ ــ قلت لذؤابتكَ (الساحرة) السوداءِ ألّا تقطعَ عليّ الطريقَ بعد الآن . أعوامٌ مرّتْ . . ولكنها علىٰ سِيرتها . . كما كانت .

٨ ــ كَفاكَ يا « حافظُ » ، لا تكرّرْ مرّةً أخرىٰ قصّةَ العينِ الباكيةِ دماً ، فمن هذه « العَيْن »[1] يجري هذا الماء . . كما كان .

تغيّرت عندها حالتي ، وعلمت أنّ هذا الرجل الكبير ــ إلىٰ جوار اطّلاعه علىٰ حالتي ونيّتـي ــ فإنّ له ارتباطـاً خاصـاً أيضاً بـأهل بيت العصمـة ، ولهذا اتّخذته رفيقاً أو أستاذاً ، وقضيت معه أربع سنوات كنت أراني فيها تحت رعايته وحمايته الروحيّة .

في بدايات تعـرّفي عليه رأيت ، في عـالم الرؤيـا ، قمّة جبـل حادّة في جانبيها هوّة سحيقة . وثمّة طريق مستقيم كان يمتدّ نحو الشمس . . كنت أمضي

---

(١) العَيْن هنا : عين الماء .

فيـه ، ولكنّ قدمي تكـاد أحياناً أن تنزلقَ وأهـوي في قعـر الـوادي . في تلك اللحظات أقبل الحاج ملا آقا جان من خلفي وأنقذني من الهُوِيّ . كان يمسكني ـ لدىٰ المزلّات ـ ويعيدني من جديدٍ إلىٰ الصراط المستقيم .

في ذلك الزمن نفسه قال لي أحد العلماء : (رأيت مناماً كنتُ أنـا وأنت جالسَيْنِ فيه داخل خيمة كان الناس مجتمعين حولها ، وهم يقولون : إمام الزمان (عليه السلام) في هذه الخيمة ! فخرجت أنت من الخيمة وقلت لهم : أيّهـا الناس ، أنا لست إمام الزمان ، وإنما أنا قد عـاشرت مؤخَّـراً أحد محبّي إمـام الزمان (عليه السلام) ـ والمقصود هو الحاج ملّا آقا جان) .

كنت مضـطرّاً ها هنـا أن أتحـدّث عن نفسي خـلال السّـرْد ، من أجـل الكشف عن سبب معرفتي به وتتلمذي عليه . وربمـا أحتاج مـرّة أخرىٰ خـلال الكتاب إلىٰ الحديث الشخصيّ ، ولكنّ غرضي من وراء ذلك كلّه هو سرد هذه الوقائع المربيّة التي أتذكّرها عنه ، والتي أريد أن أُحدّثكم بها . وها أنذا أبـدأ معكم الحديث .

ذوقه ومشربه

يتمثّلُ ذوق الحاج ملاّ آقا جان ومشربه في أنّ الوسيلة الوحيدة التي يبلغ بها المرء ، سريعاً ، هدفه المعنويّ ورقيّه الروحيّ هي التوسل بأهل بيت العصمة (عليهم السلام) واكتمال معرفتهم في القلب .

كان يقول : إنّ أفضل عمل ـ بعد الفرائض ـ زيارة الأئمة ، بل زيارة مزارات أبناء الأئمة ، واحترام السادة ، وإظهار المودّة لهم .

كان شغل الحاج ملا آقا جان القراءة في مجالس عزاء سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ولكنه لم يتّخذ القراءة في مجالس العزاء حرفةً له ، بل إنّه كان يتحدّث عن شيءٍ من فضائل أهل البيت (عليهم السلام) حتىٰ في جمع من بضعة أفراد ، ثم يشرع في قراءة التعزية ، حيث تنهلّ من عينيه الدموع .

لم يكن يطلب أجراً لقاء قراءته مجالس العزاء بأيّ حال من الأحوال ، اللهمّ إلاّ حينما يرىٰ أنّ ثمّة مصلحة أهمّ .

لم أكن أدرك السرّ المنطوي في هذا العمل ـ أعني قراءة العزاء لسيد الشهداء (عليه السلام) ، ولكنّي دقّقتُ النظر ، بعد ذلك ، في أخبار أئمة الدين (عليهم السلام) ورواياتهم ومناهجهم أكثر من ذي قبل ، كما انتفعت من تجاربي الشخصيّة في الموضوع . . فعلمت أن الحقّ كان معه . فهذا العمل

ممّا يريده أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) . ولأنّ طائفة من الناس لم يبصروا الحقيقة ولا يريدون أن يبصروها ، أو أنّهم غير مؤهّلين منذ بداية أمرهم لهذا البصر . . فقد ضربوا بعيداً في الوهم .

فهنيئاً للذين فهموا وتبصّروا وضمنوا دنياهم وأُخراهم عن هذا الطريق .

روايات حول مجالس العزاء

١ ـ قال الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) ، في عدّة روايات صحيحة : «مَنْ تذكّر مُصابَنا ، وبكىٰ لِمَا آرتُكِبَ بنا . . كان في درجتنا يومَ القيامة . ومَنْ ذكَّر بمصابنا فبكىٰ وأبكىٰ . . لم تَبْكِ عينُه يومَ تبكي العيون . ومن جَلَس مجلساً يُحْيىٰ فيه أمْرنا . . لم يَمُتْ قلبُه يوم تموت القلوب » .

٢ ـ قال الإمام الصادق (عليه السلام) لفُضَيْل : « تجلسون وتتحدّثون ؟ » قال : نعم ، جُعِلْتُ فِداك . قال : « إنّ تلك المجالس أُحبّها ، فأحْيُوا أمرنا . يا فُضَيْل ، رَحِمَ اللَّهُ مَن أحيىٰ أمْرَنا . يا فُضَيْل ، مَن ذُكِرْنا عنده فخرج من عَيْنِه مثلُ جَناح الذُّباب(١) غفرَ الله له ذنوبه ، ولو كانت أكثر من زَبَد البحر » .

٣ ـ عن زيد الشحّام ، قال : كنّا عند أبي عبدالله (عليه السلام) ، ونحن جماعة من الكوفيّين ، فدخل جعفر بن عثمان علىٰ أبي عبدالله ، فقرّبه وأدناه ، ثمّ قال : يا جعفر . قال : لبّيْك ، جعلني الله فداك . قال : بَلَغني أنّك تقول الشعر في الحسين وتجيده . فقال له : نَعَم ، جعلني الله فداك . قال : قُلْ . فأنشَدَه (صلّىٰ الله عليه)، فبكىٰ ومَنْ حوله . . حتّىٰ صارت الدموع علىٰ

---

(١) أي خرجت من عينه دمعة ، ولو صغيرة صِغَرَ جناح الذباب .

وجهه ولحيته . ثمّ قال : يا جعفر ، والله لقد شَهِدت ملائكة الله المقرَّبون ها هنا ، يسمعون قولك في الحسين . ولقد بَكَوا كما بكينا ، وأكثروا . يا جعفر ، لقد أوجب الله (تعالىٰ) لك الجنّة ، وغفر لك .

فقال : يا جعفر ، ألا أزيدك ؟ قال : نعم ، يا سيّدي . قال : ما مِنْ أحد قال في الحسين شعراً ، فبكىٰ وأبكىٰ . . إلاّ أوجب الله له الجنّة وغفر له .

٤ ــ رُوي أنّه لمّا أخبر النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) ابنتَه فاطمة بقتل ولدها الحسين (عليه السلام) ، وما يجري عليه من المحن ، بكت فاطمة بكاءً شديداً ، وقالت : يا أبتِ ، متىٰ يكون ذلك ؟ قال : في زمانٍ خالٍ منّي ومنك ومن عليٍّ . فاشتدّ بكاؤها ، وقالت : يا أبتِ ، فمن يبكي عليه ؟ ومن يلتزم بإقامة العزاء له ؟

فقال النبيُّ (صلّىٰ الله عليه وآله) : يا فاطمة ، إن نساء أمّتي يبكينَ علىٰ نساء أهل بيتي ، ورجالهم يبكون علىٰ رجال أهل بيتي ، ويجدّدون العزاء جيلاً بعد جيلٍ ، في كلّ سنة . فإذا كانت القيامة تشفعين أنتِ للنساء ، وأنا أشفع للرجال . وكلّ من بكىٰ منهم علىٰ مصاب الحسين أخذنا بيده ، وأدخلناه الجنّة .

يا فاطمة ، كلّ عين باكية يوم القيامة ، إلاّ عين بكتْ علىٰ مصاب الحسين ؛ فإنّها ضاحكةٌ مستبشرةٌ بنعيم الجنّة .

ملاحظة :

في كتب الحديث رواياتٌ كثيرة من هذا النوع . وقد استفاد المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري في كتابه «خصائص الحسين عليه السلام» من الروايات كثيراً . ونصّ علىٰ أنّ سبيل النجاة مقصور علىٰ ما في مضامين هذه الروايات ، وأنّ من يريد أن يفهم موضوعات كتابه لا بدّ أن يكون علىٰ قدر من النّضج يؤهّله

لهذا الفهم ، « ومن المستبعد أن يكون قارىء هذا الكتاب من الجهل إلىٰ حدٍّ ألّا يدرك أنّ المعاصي التي وُعِدَ أصحابها في هذه الروايات بغفرانها والعفو عنها هي ليست من قبيل المعاصي المتعلّقة بحقوق الناس وترك الواجبات التي لا يُعْذَر مَنْ تركها » .

زيارة العتبات المقدسة

للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان مَشْرب آخر، استمدّ منه كثيراً في مسألة النّضج المعنويّ له ولرفاقه . وذلك هو زيارة الأئمة (عليهم السلام) بل زيارة أبناء الأئمة (عليهم السلام) . إنّه يعتقد أنّ الإنسان يستطيع ، على نحوٍ أفضل ، أن يستمدّ الكمالات من مراقد الأئمة (عليهم السلام) ، فالأئمة أحياء ، يجيبون زائريهم ، ولهم في مراقدهم عنايات خاصة بالشيعة والزوّار .

ومن أجل هذا فإن طريق السير والسلوك إذا انغلق أمام واحدٍ من أصدقائه فإنّه كان يأخذه لزيارة أحد الأئمة . وهو كثيراً ما يذهب إلى مشهد ؛ لأنّه كان ساكناً في إيران ، ولأنّ زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) هي أفضل الزيارات هناك .

في نفس السفرة التي تعرّفت فيها لأوّل مرّة عليه ، كان يصحبه عدّة شبّان من طهران . وهؤلاء قد فازوا بكثير من المعنويات ، بفضل بركة زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) ، حتى تحرّروا من أغلب الحُجب .

كان يعتقد أنّ الترقّي الروحيّ ممّا لا يمكن ــ بعد أداء الواجبات وترك المحرّمات ــ إلاّ بالتوسّل الحقيقيّ الجادّ بأهل بيت العصمة والطهارة .

إنّهم (عليهم السلام) وسيلة ارتباط أفراد البشر بالله ، في كلّ شيء . .

في الماديّات والمعنويّات . وقد ورد في دعاء النُّدْبة : « أين السَّبَبُ المتّصلُ بين الأرض والسماء » ؟! ــ أي : أين الإمام الذي هو واسطة وصول فيوضات الله إلىٰ الخلق ؟

كان يقول : حين يرتفع الإنسان إلىٰ درجاتٍ عاليةٍ من الترقّي الروحيّ ، فانّ صفاته الحيوانيّة سوف تكون منقادةً لقواه الروحيّة . . حتىٰ تغدو كلّ قوىٰ الجسد متأثرةً بالقوىٰ الروحيّة .

وكان يقول : أوّل حاسّة من حواسّ الجسم تقع تحت تأثير الروح هي : الذائقة . . (حين أذكر حبيبي يحلو مذاق فمي) . هذه حقيقة . حين يكرّر العاشق اسم حبيبه ، يَعْذُبُ مذاق فمه . . أليس كذلك ؟ .

كرّر عبارة (يا صاحبَ الزّمان) سبعين مرّة في الأقلّ ، مع اعتقادك أنّ الإمام الحجة ابن الحسن (ع) يسمعك وأنت تحبّه . . ثمّ لاحظ بعدها : أصار فمك حلواً أم لا ؟ علىٰ عكس الشخص الذي يثير تذكّره انفعالَك وغضبَك : ردّد اسمه مرّات كثيرة ، ثم آنظر : أصار طعم فمك مرّاً أم لا ؟ إنّ هذا الأثر يحدُث لكون الروح في البدن ، ولكونها مرتبطة بالقوىٰ الحيوانيّة . تظهر في الذائقة لذة وحلاوة ذكر الحبيب ، ومن هذا ما نقوله في إذن الدخول علىٰ الأئمة (عليهم السلام) : « وفتحتَ بابَ فَهْمي بِلذيذِ مناجاتهم » .

بعد الذائقة يظهر أثر قوّة الروح في حاسّة الشمّ . قد يكون الإنسان أحياناً وحده في خلوةٍ ولم يَمَس أيّ نوع من العطر ، ولكنّه يحسّ بغتةً أنّ ما حوله قد تعطّر ، بعطرٍ فوّاحٍ ، ولكنه لا يلبث أن يختفي .

لي صديق يعتقد أنه ــ لدىٰ حضور روح أيّ واحد من الأئمة (ع) ــ يستطيع أن يميّز كلّ أحد منهم (ع) من خلال عطره الخاص ، ربما كان هذا الموضوع مسلّماً إلىٰ هذا الحدّ ؛ فانّ حاسّة الشمّ لدىٰ الإنسان تنفعل بالأحاسيس الروحيّة والمعنويّة حتىٰ يحسّ بعطورها المعنويّة .

كنت يوماً في مجلس مع عدد من أصدقاء المرحوم ، وكان منشغلاً ببيان بعض فضائل أهل بيت العصمة (عليهم السلام) حينما شمَّ كلّ الحاضرين عطراً لا نظير له بين عطور الدنيا . ولقد أجاز لنا نقل هذه الواقعة بعد أن شمّ الحاضرون العطر وتنبّهوا لذلك .

في أغلب الليالي التي يُمضيها في مشهد . . تعوّد أن يجلس في الإيوان الذهبيّ للصحن الجديد[1] ، وحوله أصدقاؤه . وقد حَدَث عدّة مرّات أنْ فاح عطر مع هبّة نسيم لطيف . وكان يعتقد أنّ أرواحاً أو ملائكةً كانت ــ في تلك اللحظة ــ تقصد الحرم الشريف .

حين كان الحاج ملاّ آقا جان يعقد مجلس الدعاء والتوسّل كان لا يكفّ عن الضراعة والتوسّل حتىٰ يتيقّن أنّ الغرفة قد غمرت بالعطر الروحيّ . وكان أحياناً ــ بعد أن يغمر العطر المكان ــ يتأوّه ، ويقرأ هذا البيت ببكاء العشّاق :

إذا ما آحتضنتُ خيالَكَ عند اللّيالي يَضوع فراشي سُحَيْراً بعطرِ الزَّهَرْ

إنّه يعتقد أنّ الروح حينما تقوىٰ سيطرتها علىٰ قوىٰ الجسم الحيوانيّة فانّ حاسّة السمع تنفعل بالروح وتتأثر أيضاً . ومصداق ذلك أنّ العين تنام قبل الأذن ؛ لأنّ هيمنة الروح علىٰ الأذن أقوىٰ من هيمنتها علىٰ العين .

أحياناً ــ هكذا كان يقول ــ يجلس الإنسان وحده في غرفةٍ ولا أحد معه ، فيسمع صوت همس الموجودات وتسبيحها شبيهاً بدويّ النحل في مكانٍ واحدٍ . إنها أصواتُ تسبيح الملائكة وتسبيح الموجودات ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون .

كان المرحوم يوصيني أنْ لتكن حالة سلوكك في الحياة كما لو دخل دارك ضيف بدون أن يُدعىٰ . واعلم أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) كان يقول : السخيّ يأكل من طعام الناس ، ليأكل الناس من طعامه .

---

(١) يقع هذا الصحن شرقيّ الحرم الطاهر ، وكان الشروع في بنائه عام ١٢٢٣ هـ .

وقال المرحوم الحاج ملّا آقا جان : في أحد الأيام كنت أصلّي في المسجد الجامع بزنجان مؤتمّاً بإمام الجماعة في ذلك المسجد . . حين جاء إليّ رجلٌ ، وقال : لقد اشتريتُ لك زوجاً من الأحذية ، لكي نذهب معاً إلىٰ مشهد ؛ لأنّ « السيّد الحَسَنيّ » سوف يظهر .

قلت له : ولماذا تقول هذا لي ؟ إذهبْ إلىٰ إمام الجماعة وقُلْ له ، ليخبر هو كلّ المصلّين ، ثمّ نذهب جميعاً إلىٰ مشهد لنصرة « السيّد الحَسَنيّ » . فقال : إنّ الشخص الذي أخبرني أنّ « السيّد الحسنيّ » سوف يخرج قد قال لي أن أخبرك وحدك . قلت له : إذا أردتَ أن أعرّفك فإنّي أقول : ما يزال الوقت مبكّراً . « السيّد الحسنيّ » لا يخرج الآن .

. . ثمّ ذهب .

وبعد وفاة المرحوم الحاج ملّا آقا جان رأيت ذلك الرجل وسألته : ماذا فعلتَ بعد أن فارقتَ المرحوم الحاج ملّا آقا جان ؟

قال : سافرتُ إلىٰ مشهد . وحين وصلتُ توجّهتُ فوراً إلى مسجد (گوهر شاد) . كنتُ أريدُ أن أعرف من هو السيّد الحسنيّ ؟ وأين هو ؟ وبدَعوات وضراعات متواصلة فهمت أنّ السيّد الحسنيّ يصلّي الآن في إيوان مسجد گوهر شاد . وذهبتُ إلىٰ هناك ، فرأيت سيّداً مشغولاً بالصلاة . صبرتُ حتىٰ فرغ من صلاته . بعدها . . نظر إليّ . وتماماً كما فعل الحاج ملّا آقا جان حين أشار بيده وقال : ما يزال الوقت مبكّراً ــ فانّ هذا السيّد أشار بيده ، وقال أيضاً : ما يزال الوقت مبكّراً !

في ذلك الوقت . . عندما سمعتُ هذه القصّة من المرحوم الحاج ملّا آقا جان ، سألته : ــ هل « السيّد الحسنيّ » من علامات الظهور المحتومة ؟

قال :

ــ كلّا . إنّه من العلامات المحتملة . .

حكاية

حينما كنت في زنجان ، رأيتُ ــ صبيحة أحد الأيام ــ شاباً من تلاميذ الحاج ملاّ آقا جان وممّن تَربّوا علىٰ يديه . . وكان هذا الشاب مواظباً علىٰ ان يزور الإمام الحسين (عليه السلام) بزيارة عاشوراء كلّ يوم . رأيته قد أتىٰ مضطرباً تلقاء الحاج ملاّ آقا جان ، وقال : حينما كنت جالساً في الغرفة ــ وقد فرغتُ من قراءة الزيارة ــ ملأ فضاء الغرفة فجأة عطر عجيب . ثمّ سمعتُ صوتاً كأنه صوت مئات من النحل كانت تتحرّك في الغرفة .

قال له المرحوم : سيحدث لك غداً أيضاً ما حدث اليوم . أنْصِتْ جيّداً واستمع إلىٰ ما يقولون .

في اليوم التالي . . جاء الشاب ، وقال : في ظنّي أنّهم يكرّرون : « لا إلٰهَ إلاّ اللّٰهُ المَلِكُ ٱلحَقُّ المُبينُ » . فقال الشيخ المعظَّم : بعد هذا أذْكُرْ أنت معهم هذا الذكر ، حتىٰ ينجلي عنك الحجابُ أكثر .

مرَّ يومان ، ثمَّ أتىٰ ذلك الشابّ وقال : كرّرتُ معهم كلمة « لا إلٰهَ إلاّ الله الملكُ الحقُّ المُبين » لمدّة ساعتين تقريباً ، فدمعت عيناي بغتةً ، ورأيتُ أنواراً مثل شرارات النار ، ولكنها بيضاء قد ملأت فضاء الغرفة . فزِعتُ . . ولم أستمر .

قال الرجل المعظَّم : الحقّ أنّ الروح حينما تهيمن علىٰ الحواس (الذوق

والشمّ والسمـع) فانّ النوبة تصـل إلىٰ حاسّـة البصر . اعـرفْ يا ولـدي قـدر الإستمرار علىٰ البرامج المعنويّة . سوف تشاهد عاجلاً أشياء كثيرة ممّا لا يُرىٰ . من الآن فصـاعداً قُـلْ ـــ حين تشاهـد تلك الأنوار : (سُبْحـانَ الله !) . قُلْهـا كثيراً ؛ فإنّها شديدة التأثير . إذا انفتحتْ عين قلبك وعاينتَ المعنويّات مجسّدة أمامك فقد تمّ العمل . لقد أصبحتَ موفّقاً . فإذا عاينتَ الملائكة فانّـك سوف تُعاين من تخدمه الملائكة . . أعني : أنك سوف تحظىٰ بزيارة الإمام صاحب الزمان (عليه السلام) . وبالتدريج سوف تصبح هذه القـوىٰ الحيوانيـة الأربع روحاً تحت تصرّفك . وتستطيع عندئذٍ أن تلمس المحبوب وأن تجالسه .

وهنا انخرط الحاج ملاّ آقا جان في البكاء . قال وهو يبكي : احتضِنْه . قَبِّلْ يَدَيْه ورِجْلَيْه . تكلّمْ معه ، واطلب منه . . كما فعل عليّ بن مَهْزَيار حينما حلّ ضيفاً عليه (عليه السلام)[1] .

آهٍ . . ما أمتع ذلك وألَذّه !

بكينا . . كلّنا بكينا . كان مجلساً رائعاً ، ولكنّه سرعان ما آنفضّ عنـدما دخل علينا ـــ في تلك الحال ـــ شخصٌ غير مناسب .

---

(١) عليّ بن مَهْـزيار الأهـوازيّ ، من الرواة الثقـاة . . صحيح الإعتقـاد جليل القـدر واسع الرواية ، له مصنّفات تزيد علىٰ ثلاثين كتاباً . يروي عن الإمام الرّضا والجواد والهادي (عليهم السلام) . توفي عام (٢٩٩ هـ) في عصر الغيبة الصغرىٰ . وقد ورد خبر لقائه بالإمام صاحب الزمان (عليه السلام) مفصّلاً في كتاب بحار الأنوار ٥٢ : ٤٢ ـ ٤٦ .

لقاء برجل إلهي

قال لي الحاج ملاّ آقا جان في مشهد يوماً ــ وقد كنت تعرّفت عليه توّاً : في الصحن الجديد رجل واقع في اشتباه . تعال نصحّح له اشتباهه .

عندما بلغنا إلىٰ جوار إحدىٰ غُرَف الصحن العُلْويّة . . رأيتُ عالماً أعرفه كان يمشي باتّجاه الغرفة .

قلت : هذا الرجل من العلماء الكبار !

قال : لو لم يكن كذلك لما جئنا لتصحيح اشتباهه .

عندها ظننتُ أن بينه وبين الحاج ملاّ آقا جان معرفة سابقة . وحينما بلغنا باب الغرفة أجبرني أن أتقدّم عليه بالدخول (لأنه ــ رحمه الله ــ كان لا يتقدّم علىٰ أحد من السادة في كلّ حال) . دخل الغرفة . كأيّ إنسان مغمور ، بثيابه العاديّة البسيطة ، فما ثمّة في مظهره وهندامه ما يلفت . لم يكترث هذا العالم بالحاج ، ولكنّه سألني عن أحوالي . ثمّ راح يتكلم بحرارة مع أحد علماء مشهد المعروفين كان في الغرفة قبل دخولنا .

رفع الحاج ملاّ آقا جان رأسه وقال : كأنّكم تَشكّون في الحديث الفلانيّ من أحاديث علامات الظهور ! والحال أنّ معنىٰ الحديث هو كذا ، وشرحه كذا . ثم كشف لذلك العالم عن قضايا تفصيليّة .

أمّا أنا فقد كنت خلالها أطالع وجه ذلك العالم . فما رأيته اكترث في أوّل الأمر ، ولكنه صار يرفع رأسه بالتدريج ، وقال فجأةً : مَنْ أنت ؟! نفسي فداك ! كيف عرفت معضلتي ؟ وما ألطف حلّك لهذه العقدة التي لم يطّلع عليها أحدٌ !

نهض العالمُ من مكانه ، واحتضن الحاج ملاّ آقا جان ، ثمّ قبّله وقال : أشمّ فيك رائحة الجنّة ! ثمّ انهما جلسا ـ في ذلك اليوم ـ في خلوةٍ معاً ، كان ذلك العالم يسأله خلالها ويستفيد منه .

طي الأرض

في إحدىٰ ليالي السنة الأُولىٰ التي حظيتُ فيها بالتعرّف عليه ــ وكان هو في مشهد ــ استعصىٰ علىٰ عيني النوم . كنت متيقظاً . وقبل أُذان الفجر بساعتين تقريباً ، رأيتُ الحاج ملّا آقا جان نهض من النوم ــ وكنتُ معه في الغرفة ــ وقصد الحرم المقدّس للإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) . . فنهضتُ أنا أيضاً ، ولكنّه قال لي :

ــ نَمْ . . فانّي قد نمت .

ثمّ إنّي صبرتُ . . حتىٰ خرج من الغرفة . نهضتُ في الحال ، ومن الغرفة خرجتُ ، فما رأيتهُ وراء باب الغرفة . قلتُ : ربّما ذهب لتجديد الوضوء . ومشيتُ فوراً لأخرج من الفندق . رأيتُ خادم الفندق نائماً علىٰ سريرٍ ملاصق لباب الفندق من الداخل . تيقّنتُ أنه ما خرج من الفندق حتّىٰ الآن ، لأنه لو كان قد خرج لَما بقي خادم الفندق نائماً نومته تلك . أيقظتُه من النوم ، فأزاح سريره وفتح لي الباب . . وخرجتُ . دُهشتُ تماماً عندما شاهدتُ الحاج ملّا آقا جان في داخل الحرم ، واقفاً إلى جوار رأس الإمام الرضا (عليه السلام) . . تماماً علىٰ الهيئة التي رأيته عليها في اللحظة التي همّ أن يخرج فيها من الفندق .

قال أحد الأصدقاء :

كنتُ معه في سفرةٍ إلىٰ الكوفة . وكنتُ راغباً في السفر إلىٰ البصرة لإنجاز عمل لي هناك . وفي لحظةٍ واحدةٍ أوصلني إلىٰ البصرة وأكلمتُ شغلي ، وعُدْنا مرةً ثانيةً إلى الكوفة(1) .

وقال لي صديقٌ مهندسٌ ربّما كان قد انتفع من صحبة المرحوم أكثر ممّا آنتفعت :

سافرتُ معه مرّةً لزيارة الأئمة المعصومين (عليهم السلام) في العراق . قال لي يوماً ، ونحن في النجف : تعال نذهب إلىٰ البصرة ؛ فهناك مسجد ينبغي أن نصلّي فيه ركعتين .

في ذلك الوقت لم أكن أعرف المسافة بين النجف والبصرة . وكنتُ أظنّ أنّ البصرة قريبةٌ قربَ الكوفة . . فهي ليست علىٰ بُعْد أكثر من فرسخٍ واحدٍ . قلتُ له : هيّا . . نذهب .

مضينا . ولكنّا ما خطونا إلاّ بضعة خطوات خارج النجف حتىٰ دخلنا البصرة . وذهبنا إلىٰ مسجد هناك ، وصلّينا فيه ركعتين ، وانصرفنا . وبنفس الطريقة عُدْنا إلىٰ النجف .

بعد ذلك ــ حين فهمت طول المسافة بين النجف والبصرة ــ سافرت إلىٰ البصرة من أجل أن أتحقّق من وجود ذلك المسجد في تلك المدينة ، ولأطمئن أن المدينة التي ذهبنا إليها معاً هي البصرة بعينها أم لا . ذُهلت إذ رأيتها هي هي ، وبنفس المعالم ، البصرة هي تلك البصرة ، والمسجد هو ذلك المسجد .

---

(1) تبعد البصرة عن النجف الأشرف أكثر من ٣٠٠كم .

رأيه في الكمال الإنساني

كان اعتقاده أن الإنسان لا يتوقّف أبداً عن الترقّي لبلوغ الكمال . ويعتقد أنّ الروح الإنسانيّة ما دامت لا نهائيّة البقاء ، فانّ مدارج الكمال أمام الروح الإنسانيّة ممّا لا نهاية له أيضاً .

إنّ العبادات ومجاهدة النفس تجعل روح الإنسان مرآة تنعكس عليها كلّ صفات الله (تعالىٰ) وتتجلّىٰ فيها أسماؤه . إن نظر الإنسان وسمعه يصبح عندئذٍ مظهراً لإسْمَي (البصير السميع) من أسماء الله (تعالىٰ) . ولسوف ينطق لسانه بكلام الله الكريم .

قال أحدُ الأصدقاء :

قَصدنَا يوماً مدينة (الرَّيّ)[1] ، واتّخذنا هناك مجلساً في موضعٍ خالٍ نستمدُّ من حضور الحاج ملاّ آقا جان . كان المكان الذي اخترناه ، على التعيين ، في حرم السيّد طاهر [من أبناء الإمام زين العابدين عليه السلام] في زاوية من زوايا صحن السيّد عبد العظيم . كان الحاج جالساً ونحن جلوس حوله . كان يحدّثنا من أحاديث الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) حول

---

(١) « الريّ » مدينة تتّصل بطهران من الجهة الجنوبيّة الشرقيّة ، وهي مدينة قديمة مهمّة ، فيها استخفىٰ السيّد عبد العظيم .

طريقة تـرقّي الروح والعقـل . أمّا أنـا ــ قال الصـديقُ ــ فقد تغيّـرت حالتي . وضعتُ رأسي علىٰ رُكْبَتَيّ . من المؤكّد أنّي ما غفوت ، ولكني شاهدتُ ــ علىٰ تلك الحال ــ الإمامَ موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) واقفاً إلىٰ جوار حرم السيّد طاهر . ورأيته يُلقّن الحاج ملاّ آقا جان كلّ ما كان ينطق به في ذلك المجلس . وحينما رفعتُ رأسي لم أرَ الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) ، ولكني رأيت الحاج ملاّ آقا جان يحدّثنا وينظرُ إلىٰ نفس المكان الذي كان فيه الإمام (عليـه السلام) . مرّة أخـرىٰ . . وضعتُ رأسي علىٰ رُكْبَتَيّ . ومرّةً أخـرىٰ شاهـدتُ الإمام (عليه السلام) يلقّن الحاج مـلاّ آقا جـان ما كـان يقولـه لنا . تكـررت الحادثة في تلك الجلسة بضعة مرّات . وحينما انفضّ المجلس وخرجنا من حرم السيّد طاهر عزمتُ أن أخبر الحاج ملاّ آقا جان بتلك المشاهدة التي شاهدت .

وقبل أن أنطق أمامه بكلمةٍ واحدةٍ بادرني بقراءة هذا البيت من الشّعر :

بَـبَّـغـاءُ قُـرْبَ مـرآةٍ أنـا قـلـتُ مـا قـالَ مـعـلِّمُ الأزَلْ !

في صيف السنة الأولى

في أولىٰ سنوات تعرّفي عليه . . كنّا ــ في ليلة صيف ــ علىٰ سطح المنزل : أنا ، وحبيبي المرحوم الشهيد السيّد هاشمي نجاد[1]، ووالدي . . كنّا جالسين في محضر الحاج ملاّ آقا جان . كان يحكي لنا عن المعاني المعنويّة والترقّيات الروحيّة . ولكنّه ــ بغتة ـ قطع كلامه ، ونظر إلى السيّد هاشمي نجاد ، وقال : الرواية الفلانيّة هي في الكتاب الفلاني (وهنا قرأ الرواية حفظاً عن ظهر قلب ، وذكر اسم الكتاب) . أمّا أنا فما كان لي اطلاع علىٰ الموضوع ، وظننتُ أنّ بينهما كلاماً سابقاً حول الرواية . ولكنّي رأيتُ السيّد هاشمي نجاد قد تغيّرت حالته ، وقال : أيّها الحاج المحترم . . كيف عرفت أنّي أريدُ أن أسألكَ عن هذا الحديث ؟ عندئذٍ علمنا أنّ المرحوم الحاج كان علىٰ علم بما خَطَر في قلب السيد هاشمي نجاد

(١) صهر المؤلف ونائب أهالي مشهد في مجلس الشورى الإسلامي ومن المجاهدين المعروفين ضد النظام الشاهنشاهي درس عند الإمام الخميني قدس سره وتربى على يديه إستشهد في مشهد الرضا (ع) على أيدي منافقي خلق .

في تلك السنة أيضا

خرجنا يوماً من منزل السيّد النوريّ في مشهد ، حيث كان الحاج ملاّ آقا جان قد نزل ضيفاً . لاحظتُ أنّه قد انفرد بالسيد هاشمي نجاد خلال المسير . أمّا أنا وبعض الأصدقاء فقد كُنّا نمشي على مقربةٍ منهما . كان يقول أشياء للسيد هاشمي نجاد ، وكان يُجيبه : إن شاء الله . وتغيّرت حالته .

ولمّا استفهمت بعدئذٍ من السيد هاشمي نجاد عمّا قال له حتىٰ تغيّرت حالته ، أجاب : كنتُ قد طلبتُ من الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) ثلاث حاجات لم أُخبر بها أحداً ، ولكنّ الحاج ملاّ آقا جان قال لي : يقول لك الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) : لقد أعطيتك حاجاتك الثلاث .

أعجب من هذا أني أنا نفسي رأيتُ ـ بعد بضعة أشهر ـ أنّ هذه الحاجات الثلاث التي ذكرها الحاج ملاّ آقا جان قد تحقّقت . . بعد أن كانت في نظري ــ وحتىٰ في نظر السيّد هاشمي نجاد ــ ممّا يبعد مناله .

كتبتُ يوماً رسالة من قم إلىٰ الحاج ملاّ آقا جان ، أبلغته فيها سلام شخصين كانا قد أوصياني بإبلاغه سلامهما . كتبتُ مثلاً أنّ (ألف) يبلّغك السلام ، و (باء) يخصّك بالسلام أيضاً . ولم أذكر له شيئاً عن أوضاعهما الخاصّة .

كتب في جواب الرسـالة : (ألف) سيكـون صديقـاً دائماً لـك . ولكنّ (باء) لا دوام لصداقته ، ولن يستمرَّ معك في الرِّفقة . كان ظاهر الأمر حينذاك علىٰ خلاف ما ذكر ؛ فقد كانت صداقة (باء) أقوىٰ بكثيرٍ . وكانت محبّته لي أشدّ من محبّة (ألف) . قلتُ في نفسي : ربّما يتوهّم الرجال الصـالحون في بعض الأحيـان ! ولكنّ وقتاً طـويلاً لم يمـر علىٰ نسياني المـوضوع حتىٰ رأيتُ (بـاء) قد ارتبط بطائفة من الصوفيّة ، وانقاد لقطبهم ، فلم أستطع عنـدئذٍ أن أستمرَّ معه في الصّداقة ، إذ قطع صلته بي . ولكنّ علاقتي بـ (ألف) قد توثقت ـ لأمر غير عادي قد حدث ـ وأصبحت علاقة من الصميم .

عاودتُ ـ في أحد الأيام ـ قراءة رسالة الحاج ملاّ آقا جان التي كتبها قبل سنين ، فعجبت كثيراً من قدرته علىٰ التّنبّؤ المذهل ، ومن صواب رأيه في هذين الرجلين .

كان الحاج ملاّ آقا جان ـ حين يرتقي المنبر ـ لا يحبّ علىٰ الإطلاق أن يـرىٰ أحداً يـدخن (سيجارة) . وحـدث يومـاً أن عُقِد مجلسٌ كبيـرٌ في منزل المرحوم آية الله العظمىٰ الميلاني في مشهد ، وطُلب من الحاج ملاّ آقا جان أن يصعد المنبر ، فصعـد المنبر استجـابةً لـطلب آية الله الميـلاني . كان جميع العلماء الحاضرين مبهوتين من حديثه العلميّ . ولكنّه ـ إذ كان مستـرسلاً في الحديث ـ قطع كـلامه فجـأةً ، ونظر إلىٰ زاويـةٍ من المجلس حيث كان أحـدُ العلماء قاعداً هناك ويدخن سيجارة . نظر إليه الحاج ثمّ قال : إذا قَدَر الإنسان أن يتوجّه بكلّ حواسّه إلىٰ المعاني الروحيّة ، فانّه سوف يستفيد أكثر .

لقد كان يميّز الروح ـ في كلامه ـ عن الجسد تمييزاً واضحاً ؛ فالـروح هي الشخصيّة الواقعيّة للإنسان . وما الجسـد في تصوّره إلاّ وسيلة للركـوب . وإذا حدث أن اكتُفِيَ في مجلسٍ بالطعام الماديّ والغذاء الجسديّ فانّ المرحوم الحاج ملاّ آقـا جان كـان يعترض ويقـول : مَثَلُ هـذه الحال كَمَثـل فارس أتىٰ منزلك ، فقدّمتَ التبن والشعير للفرس ، وتركتَ الفارس جائعاً لم تعبأ بـه . .

فما أسوأ هذه الفعلة ! وكذلك المجلس الذي لا يتـزوّد المرء فيـه بغير الـطعام والشراب الماديّ ولم يَجْرِ فيه حديث عن العلم والمعرفـة . . إنّما هـو مجلسٌ طالحٌ جدّاً . من أجل هذا فان ذلك المرحوم نفسه ــ حيثما كان في محضر عدّة أفـراد ــ كان يحـوّل المجلس إلى مجلس خطابـة ووعظ . يُبيّن فيه ــ أكثـر ما يُبيّن ــ فضائل أهل بيت العصمة (عليهم السلام) ويقول : في بيان فضائلهم (عليهم السلام) نتزوّد بـالزاد الـروحيّ ، ونعمل بتعليمـاتهم . وإذا كان قلب الإنسان واعياً ، فإنه ــ تحقيقـاً للمتابعـة والمشايعـة ــ ينبغي أن يؤدّي تكاليفـه باعتباره مسلماً .

في السنة الثانية

فارقني مدة أربعة أشهر ، وذهب إلىٰ زنجان . كانت تلك السنة الثانية التي استمتعتُ فيها بلذّة عشرته . لم أكن أطيقُ الصبر علىٰ فراقه أكثر من ذلك . كنتُ قد ذهبتُ خلال هذه المدّة إلىٰ قم للدراسة ، وسكنتُ في إحدىٰ غرف المدرسة الحُجَّتيّة بأمر المرحوم آية الله (حُجَّتْ) علىٰ نحوٍ مؤقتٍ . كان معي في الغرفة أصدقاءُ طيّبون من أهل العبادة وصلاة الليل ، وكانت لهم ضراعات لا بأس بها . ولكنهم لم يكونوا أقوياء روحياً بالقدر الذي يمكنهم من طمأنيتي ، أو يكونون لي أخلّاء روحيين . أمّا الحاج ملّا آقا جان فكان يرسل إليّ كلّ أسبوع ـ في الأقل ـ رسالةً واحدةً . وكانت رسائله ـ إلىٰ حدٍّ ما ـ سَكَناً لروحي .

من أجل هذا قصدتُ زنجان في أول شهر رجب عام ١٣٣١ش لألتقي بالأستاذ . وكنتُ مستأنساً كثيراً بلقائه . بقيتُ اثني عشر يوماً في المنزل البسيط المتواضع الذي كان يعيش فيه ، انتفعتُ خلالها ـ بلا إضاعة وقت ـ من كمالاته . في صباح اليوم الثالث عشر من شهر رجب ـ وهو يوم مولد مولىٰ المتّقين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ـ نظر إليّ بعد صلاة الصبح ، وقال : اليوم يوم عيد ، تعال . . أصافحك . وحينما كنت أصافحه وددت

الحصـول علىٰ (عيديّـة)[1] ، وقلتُ له : أرجـو أن تكون وسيلتي إلىٰ الإمـام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ليهبني عيديّة .

قال : أنت ولده . أنت الذي ينبغي أن تحصل لي علىٰ عيديّة .

قلت ـ وقـد رأيتُ أنـه أراد أن يجـاملني : هـل أنـا ابن علي بن أبي طالب . . أم لا ؟

قال : نعم . . نفسي لك الفداء !

قلتُ : وأنت . . ما هي وظيفتك ؟

قال : أنا خادمك .

قلتُ : أنا آمرك ـ إذن ـ أن تأخذ لي عيديّة وتعطيني إيّاها !

قال : علىٰ عيني . . لك الفداء !

جلس بعدئذٍ مستقبلَ القبلة ، وزار الإمام (عليه السلام) بـزيارة (أمين الله) . كنتُ أنظرُ إليه . وبغتة انخطف لـونه ، وكـأنّه كـان يتحدّث مـع الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بدون حجاب . ما كنت أسمع صوتاً ، ولكنّ الإمام (عليه السلام) كأنّما كان يقول له شيئاً . وكان هو يقول مِراراً في جوابه : نعم ، علىٰ عيني . أُوضّح . أشكر ألطافكم .

بعد صمت دقائق . . استعاد حالته . إلتفت إليّ وقال : لقد أعطاك عيديّة من خمسـة أشياء . وإذ أنت من أهـل مشهـد ومقيم في قم ، فـانّ واحـداً من الخمسة قد حُوِّل إلىٰ قم ، والأربعة الأخرىٰ ستُعطاها في مشهد . وعيـديّة قم ستنالها في مسجد « جمكران »[2] بعد عودتك إلىٰ قم بعشرة أيام .

---

(١) العيديّة : هي هديّة يوم العيد .

(٢) يقع مسجد جمكران في قرية جمكران في بداية طـريق (قم ـ كاشـان) . وهو مسجـد =

عند سماعي هذه البشارة قرّرتُ أن أمضي إلىٰ قم في هذا اليوم الإثنين . ولكنّه قال : أنت لا تـذهب حتىٰ يوم السبت ، فـلا تشغل بـالك . كنتُ أريـدُ الوصول إلىٰ قم بأسرعٍ ما يمكن . هذا من جهةٍ . ومن جهةٍ أخرىٰ كنتُ أريدُ أن أختبر ما قال . . فكنتُ أسعىٰ جاهداً لتهيئة وسيلة السفر . . إنّ مجرىٰ الحوادث مفصَّل فيما يتّصل بالمـوانع والعقبـات التي كانت تعتـرض ذهابي إلىٰ قم كـلّ يوم . وعاقبتها أنّي لم أوفق للسفر في تلك الأيام . حتىٰ إذا كان يوم السبت ، قال لي في صبيحته : اليوم تذهب . ثمّ ودّعني . لقد تهيّأت وسيلة السفر بسرعةٍ غير معهودة ؛ فمضيت . . حتىٰ وصلت إلىٰ قم .

كنتُ أظنُّ أنّه قال لي : إنهم سوف يعطونك تلك العيديّة بعد عشرة أيام من وصولك إلىٰ قم . مرّت الأيام العشرة ولم يحدث شيء . كتبتُ له رسالةً ، قلتُ فيهـا : لا بـدّ أنّـك كنت تـريـد أن تـرسلني من زنجـان إلىٰ قم ، لكيـلا أزاحمكم في زنجان كثيراً ! وقد قيل :

فــإنْ تَـعِــدْني ألـفَ وَعْــدٍ ، ثمّ لا ... تَفي ولـو بـواحـدٍ . . مـا أجْمَــلا !

بعد هذه الرسالة أُنسيتُ الموضوع ، وآنشغلتُ بالدراسة والبحث . حتىٰ إذا كانت ليلة الأربعاء ــ أي في ذلك اليوم الذي أذهب فيه علىٰ عادتي في كلّ أسبوعٍ مشياً علىٰ الأقدام للمبيت في مسجد جمكران ــ واجهتُ حادثةً عجيبةً .

مضيتُ لدىٰ غروب شمس ذلك اليوم ، مشياً على الأقدام ، تلقاء مسجد جمكران . ومسجد جمكران كان يبعد عن قم مسافة ثماني كيلو متـرات . ولم يكن الطريق إليه معبّداً كما هو عليه الآن . كـان الطريق مـوحشاً ، فـانّ أشياء مخيفة كانت تتراءىٰ خلال المسيـر . وعلىٰ أيّ حالٍ فـان مسجد جمكـران لم

= قديم كان تأسيسه بأمر الإمام المهديّ صاحب الزمـان (عليه السلام) عام ٣٧٣هـ . ولمزيد من التفصيل حول بناء المسجد يُنظَر كتاب بحار الأنوار ٥٣ : ٢٣٠ ـ ٢٣٣ .

يكن آنذاك غير مبنىً لمسجد قديم كان قد شُيِّد بأمر من إمام الزمان (عليه السلام) في وسط البَرِّيَة . وما ثَمّة أحد غير خادم المسجد الذي غادر بعد عدةٍ دقائق بآتّجاه المدينة .

بقيتُ وحدي في المسجد ، مشغولاً بأداء أعمال المسجد العباديّة . . حين آنزاحت فجأةً ستارةٌ من الحجُب الظلمانيّة التي كانت تلقي بظلالها علىٰ قلبي . ومنذ ذلك التاريخ وحتىٰ الآن (أي منذ أكثر من عشرين سنة)[1] لم يعاودني ذلك الحجاب ، وصرتُ في فضاءٍ روحيٍّ طليقٍ .

وحالما رجعتُ إلىٰ قم . . كانت رسالة قد وصلت من الحاج ملاّ آقا جان ، ذكّرني فيها أنه كان قد قال لي : انّك ستعطىٰ العيديّة « بَعْدَ » عشرة أيام ، وقال : ولكنك توهّمت وظننت أنّك ستعطاها في اليوم العاشر . وإذا لم تكن قد نسيتَ فإني قد قلت : سوف يُتَلَطَّف عليك في مسجد جمكران . وفي وقت وصول رسالتي هذه إليك تكون قد فزتَ بما وعدك جدّك أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فطوبىٰ . . وهنيئاً لك .

كان شهر رمضان علىٰ الأبواب . سافرتُ ــ بعد أيام قلائل ــ إلىٰ مشهد ؛ فأيّام شهر رمضان أيام العطلة الدراسيّة . والصيام في مشهد أيسر لي .

انسلخ شهر رمضان وأنا في مشهد . وبعد شهر رمضان تلقّيت رسالةً من الحاجة ملاّ آقا جان طلب إليّ فيها أن : أمكث في مشهد ، وسوف آتي بعد أيّام لزيارة الإمام الرضا (عليه السلام) .

وحين حلّ في مشهد قلتُ له : ماذا جرىٰ للعيديّات الأربع المقرّر أن أُعطاها في مشهد ؟ قال : أترغب في أن أشرح لك ما أعطاك خلال هذه المدّة وأنت غير متفطّن له ، أم تريد أن تذهب عند رأس الإمام الرضا (عليه السلام)

---

(١) أي منذ أكثر من عشرين سنة قبل تأليف هذا الكتاب .

وتجلس ، لكي يقول هو لك ؟

قلتُ : لا شك أني أرغب في أن يقول الإمام الرِّضا (عليه السلام) .

قال : لا مانع . زُرِ الإمام (عليه السلام) بعد صلاتي المغرب والعشاء . وصلّ ركعتين . في الموضع الذي عند رأس الإمام (عليه السلام) ، واقعد قبالة الضريح لكي يعرّفك بما أعطاك .

عملتُ بما أمر . وكنت أخال أني سوف أرى الإمام الرضا (عليه السلام) ، أو أني سوف أسمع صوته في الأقلّ . . ولكنّ شيئاً من ذلك لم يقع . بَيْد أني قد تفطّنت بغتةً إلى أنّ اللطف المعنويّ الفلانيّ ، والموضوع المادّيّ الفلانيّ ، وأنّ مسألتين أُخريين لهما أثر كبير في تقدّمي الروحيّ وفي حياتي الإجتماعيّة . . كلّ هذا قد أعطانيه الإمام (عليه السلام) في شهر رمضان ، ولكنّي لم أكن متنبّهاً . والآن أدركت أنها لم تقع هكذا مصادفة (وبعد عشرين سنة من تفضّل الإمام (ع) عليّ بهذه الأشياء الخمسة فإنّ أثرها في حياتي الماديّة والمعنويّة كان وما يزال كبيراً ومهمّاً) .

بعد تلك الليلة صرتُ أفهم معنى (الإلهام) . وعرفتُ كيف يُلقى الإلهام إلى الإنسان في قوله تعالى : ﴿أو مِنْ وَراءِ حِجاب﴾ . حين لا يسمع الإنسان الصوت ، ولكنّه يعي المعاني التي يُلقيها الله (تعالى) في قلبه ، فانّ هذا أعلى من سماع الكلام بدرجاتٍ .

كثيراً من المعارف الإعتقاديّة تلقّيت تلك السنة من لدن الحاج ملّا آقا جان ، كان أهمّها معرفة الأئمة الأطهار (عليهم السلام) والتعرّف على فضائلهم . حتى انه كان يغذّيني بالمعارف الحقّة من خلال ترجمة (الزيارة الجامعة) وشرحها ، ومن خلال رواية ما كان شاهده من معجزات الأئمة المعصومين ومن كراماتهم .

في العَشِيّات كان يقعد في الإيوان الذهبيّ من الصحن الجديد في

مشهد . وكان يلقي دروساً يتحدّث فيها عن مدرسة أهل بيت العصمة ، وعن إظهار المودّة لهم . كان يتحدّث عن علوم الأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) وعن معرفة أرواحهم المقدّسة ، بكلامٍ موجزٍ ، لكنّه مركّزٌ .

ولقد سلختُ سنوات في تتبّع الآيات والروايات ، لأستدلّ بها علىٰ كلماته القصار ، ولأنال مزيداً من التفصيل في الفهم والوضوح . . بحيث صارت من معتقداتي المسلّمة التي ربّما أؤلّف عنها شيئاً فيما بعد .

وكان يقول : معنىٰ الغلوّ في الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ينحصر في الإعتقاد بأربعة قضايا . يعني ينبغي ألّا نغلو في الأئمة (عليهم السلام) . والمراد بالغلوّ أن نعتقد فيهم بما ليس فيهم . وهم أنفسهم (عليهم السلام) قد نَهَوْنا عن ذلك . وهذا الغلوّ الذي ينبغي أن نذهب إليه يدور مدار الإعتقاد بأربعة قضايا تتصل بهم (عليهم السلام) :

الأول : أن نعتقد أنّ الله (تعالى) أحدهم ، أو أنّ روحهم هو الله (سبحانه) ، فلا وجود لإله سواهم . وهذا من الغلط ومن الغلوّ .

الثاني : أن نعتقد أنّهم غير مخلوقين ، وأنهم كانوا هكذا منذ الأزل . وهذا غلوّ أيضاً .

الثالث : أن نعتقد أنّ الله (جلّ جلاله) قد فوّض إليهم كلّ شيء . . واعتزل . وهذا غلوّ وغلط كذلك .

الرابع : أن ننسب إليهم مقام النبوّة ، بأنْ نَعدّهم أنبياء مثل خاتم الأنبياء (صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم) . وهذا غلط أيضاً .

وحين نعبر هذه النقاط الأربع نغدو قادرين ــ إذن ــ علىٰ استيعاب ما لهم (عليهم السلام) من الفضائل والمقامات الكماليّة ممّا لا تراه عقولُنا في عداد المستحيل .

ولقد تابعتُ هذا الموضوع ــ من خلال الآيات والروايات ــ عدّة سنوات . . فما وجدت في الواقع غير ما ذكره ذلك المرحوم . ولو كان في هذا الكتاب متّسعٌ لتفصيل ذلك لفعلت ، وعسىٰ الله (تعالى) أن يوفّقني لشرح هذا الموضوع في مؤلّفاتٍ قادمة .

وكان يقولُ :

وإذ أنّ الله (تعالىٰ) لا يخلق شيئاً إلّا بأسبابه ، فانّ ما سوىٰ الله قد خُلِقَ بوساطة النور الطاهر لمحمّد وآل محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين) . ووساطة خلقهم هم (عليهم السلام) هي هذا النور الطاهر كذلك .

وكان يقولُ :

كما أنّ الله (تبارك وتعالىٰ) مَنّ علينا بالفيوضات المعنويّة ــ مثل الأحكام الشرعيّة والمعارف الإعتقاديّة الحقّ ــ بوسيلة النبيّ والأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم) ؛ فلا نستطيع أن ننسب إلىٰ الله أي حكم ــ ولو كان صغيراً ــ بدون هذه الوسيلة . . فكذلك الأمر في قضايا التكوين . إنّ موجودات عالم التكوين ــ حتىٰ أدنىٰ هذه الموجودات ــ لم تُخْلَقْ بمعزلٍ عن هذه الوسيلة . وقد شاء الله (جلّ جلاله) أن يخلق أرواحهم قبل أيّ مخلوقٍ بدون أيّة واسطة ، ثمّ كان ايجاد كلّ أشياء العالم بوسيلة هذه الأنوار .

لا أنسىٰ يوماً أنّ الحاج ملاّ آقا جان تناول يوماً من شراب « ماء الأربعين عُشْبَة »[1] ــ ولربّما يُعَدّ هذا الشراب أشدّ الأدوية العُشبيّة مرارةً ــ وكأنّه كان يشرب العسل بالتذاذ . فسألته : أيّة حالة هذه ؟ قال : هذا شيء شاء إلٰهي ومحبوبي أن يوجده ، فأوجده بيده . . فهو إذن ــ علىٰ أيّ حال ــ شيء حلو لذيذ .

---

(١) هو المعروف بالفارسية « چِهَلْ گِیاهْ » .

قلتُ له : يد الله (تعالىٰ) في الآية الشريفة : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي النور المقدّس للمعصومين الأربعة عشر ، كما ورد في صريح الروايات حول تفسير الآية . يعني : كما أننا نُظهر قدرتنا بواسطة أيدينا ، فإنّ الله (تعالىٰ) يُظهر ما يريد ــ تشريعاً وتكويناً ــ بوسيلة هذه الأنوار المقدّسة .

وكان يقول :

ينبغي للإنسان أن يحبّ أبناء النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) حبّاً جمّاً ، وأن يحبّ حتّىٰ غير المعصومين منهم .

وقال :

في أحد الأيّام توسّلتُ بحضرة عليّ الأكبر : الإبن الأكبر لسيّد الشهداء (عليه السلام) ، وطلبتُ منه حاجتي . كان قلبي مفعماً بمحبّته . رأيتُ فجأةً ــ وأنا علىٰ تلك الحال ــ كأن فراش الغرفة يحترق من إحدىٰ الزوايا . تصاعد الدخان وتجمّع في الزاوية . . حتّىٰ صار بحجم إنسانٍ . بدأ الدخان يتشكل ، من أعلاه ، بشكلٍ شبيهٍ برأس إنسانٍ . أدركتُ فوراً أنه أحد الجنّ ، وأنّه ظهر لشغلٍ له معي . وبغتةً قال لي بصوتٍ أجشّ يشبه صوت احتكاك الحديد بالحديد . . كان مُنفِّراً مؤذياً ، قال : أنا أحد كُبَراء الجنّ . أعرف أنّك لا تستطيع أن تخرج محبّة عليّ الأكبر من قلبك ، ولكنّك إذا قلت بلسانك إنك لا تحبّه . . فسأكون في خدمتك .

قلتُ : إنّك تدلّ بهذا الكلام علىٰ أنّك لستَ مسلماً ، فلا تستطيع عندئذٍ أن تعينني في القضايا المعنويّة . أمّا الأمور المادّيّة . . فانّك لو جعلت كلّ الكرة الأرضيّة تحت تصرّفي لما تفوّهتُ بكلمةٍ واحدةٍ ممّا تريد . زَعَقَ زعقةً انخلع لها قلبي ووهنت قوّتي . . ثمّ اضمحلّ واختفىٰ .

وكان يقول :

زُرْ كلّ ضريح لأيّ من أبناء الأئمة حيثما كان . . حتىٰ لو كان أصله ونسبه

غيـر معلوم ، وحتّىٰ لـو أنّ أحـداً من ذراري الأئمـة لم يُـدْفن أصـلاً في ذلـك الموضع ، ذلك لأنه موضع قد شُيّد بآسم أحد أبناء رسول الله (ص) وعُرِف ذلك عنه . ونحن إنّما نزور ــ في الأساس ــ روح وَلَد الإمام ، سـواء أكان جسـده مدفوناً هناك أو غير مدفون ، فلا فرق في الحالين ما دمنا نقصد الزيارة الروحيّة .

زرتُ مرّة ــ برفقة الحاج ملاّ آقا جان ــ السيّد حمزة بن الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) في مدينة الريّ . وحَدَث بعدئذٍ أن تشرّفنا ــ خلال تلك السفرة ــ بالذهاب إلىٰ قم ، وهناك زرنا المرقد المطهّر لهـذا السيّد نفسـه في شارع (الرجال الأربعة) . وحينما سألته : هل دفن حمزة بن موسىٰ بن جعفـر (عليه السلام) هنا ، أم دفن في مدينة الريّ ؟ أجاب : ماذا يَفْرُق . . ما دمنا لا نبتغي زيارة جثمانه ، ولا نطلب حـاجةً من جسـده . انّ هدفنـا الإستمداد من الـروح المقدّسـة لهذا السيّـد المعـظَّم . . التي يمكن أن تكـون حـاضـرة في المكانَيْن في وقتٍ واحدٍ .

ثمّ أنّه أضاف : يقول بعضهم إنّ السيّد حمزة بن موسىٰ بن جعفر (عليه السـلام) مدفـون في (كاشمـر)[1] ، ولو كـان الذهـاب إلىٰ هناك ميسّـراً لي لذهبت ، ولزرته أيضاً في تلك البقعة .

وقـد اتّفق لي ــ بعد عـدّة سنـوات ــ أن ذهبت إلىٰ (كـاشمـر) . ومن حديقة مزار السيّد حمزة بن موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) زرته بهـذه النيّة . وفاضت عليّ في هذا المكان الشريف فيوضات معنويّة من روحه المقدّسة ، غير قابلة للوصف .

وكان يقول :

أكثر قُرّاء مجالس العزاء الحسينيّ ــ حين يذكرون فـاجعة سيّـد الشهداء

---

(١) تقع كاشمر جنوب غرب مشهد ، علىٰ مسافة (٢٤١)كم .

(عليه السلام) ـ فإنّهم لا يبكون . وحتّىٰ لو أنّ شخصاً آخر قرأ التعـزية وهـم حاضرون . . نجد أنّهم الأقلّ بكاءً . أتدري لماذا ؟

سببه أنّهم حين يطالعون في كتب المقتل فانهم يقرؤن مـا يريـدون قولـه علىٰ المنبر وحسب ، ولا يُعْنَوْن بالمغزىٰ ولا بالمصيبة ، فلا يذرفون ــ والحالة هذه ــ دموعاً علىٰ سيّد الشهـداء (عليه السـلام) . . وهذا ممّـا يورث قسـاوة القلب . ومن أجل هذا فانّي حين أطالع في المقتل أتنبّـه لهذه المـلاحظات ، وعليك أن تتنبّه لها أيضاً .

الملاحظة الأولىٰ : كن لـدىٰ المطالعـة في كتاب المقتـل علىٰ وضوءٍ ، واجعل عملك هذا عبادةً .

الثانية : اجعـل قلبك حـاضراً في جـوّ المعنىٰ الذي تبيّنـه من المقتل ، كأنّك ترىٰ الفاجعة وتلمسها .

الثالثة : حاول بأيّة وسيلةٍ أن تذرف الـدمع فـانّ هذا ــ إلىٰ جـوار عظيم ثوابه ــ يمنع قسوة القلب .

وكان يقول :

دخلتُ يوماً حرم السيّدة المعصـومة (عليهـا السلام)[1] في قم . وحين كنتُ قرب موضع الرأس الشريف إنزاحت فجأةً من أمام عيني الحُجُب . رأيت

---

(١) السيّدة « المعصومة » هو لقب للسيّدة فاطمة بنت الإمام موسىٰ الكاظم (عليه السـلام) وأخت الإمام علي بن موسىٰ الـرِّضا (عليـه السلام) . وكـانت (سلام الله عليهـا) قد وردت قم من المـدينة المنـوّرة قاصـدةً خراسـان محلّ إقـامة أخيهـا الإمام الـرِّضا (ع) عام (٢٠٢ هـ) . . فمرضت في مدينة (ساوة) في الطريق ، وانتقلت إلىٰ قم ، فأقامت فيها سبعة عشر يوماً ثم أدركتها الوفاة (سلام الله عليها) . ويقع مزارها الطاهر في قلب مدينة قم ، وهو مزار جليل كبير عليه قبّة ذهبيّـة وحولـه عدد من المنـارات ، وله ثـلاثة صحون . . وهو مهوىٰ أفئدة القاصدين والزائرين من بلدان العالم الإسلاميّ .

السيّدة المعصومة (عليها السلام) وثلاث نساء أُخريات ما كنت أعرفهنّ حتىٰ ذلك اليوم[1] . وثمّة شخص آخر من أولاد فاطمة الزهراء (عليها السلام) مدفون أيضاً في حرم السيّدة المعصومة . . كان جالساً هناك .

قالت لي السيّدة المعصومة (سلام الله عليها) : إقرأ تعزيةً . قرأت شعراً لِدعْبل في مصيبة سيّد الشهداء (عليه السلام) فآنخرطن في البكاء . بَيْدَ أنهنّ نهضن فجأةً في وسط التعزية واقفات . وقع في ظنّي أنّ ما كنت أقرؤه لم يَرُقْهُنّ ، فأردْنَ الإنصراف . ولكنّي رأيتُ ــ علىٰ حين غفلة ــ وكأنّ شمساً تسطع في داخل الحرم ، ونوراً يتألّف : لقد دخلت السيّدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) والتحقت بجمعهنّ فنهضن إجلالاً .

جلست السيّدة الزهراء (عليها السلام) متقدمةً عليهنّ قليلاً ، وجلست من ورائها سائر الحرائر . قالت (سلام الله عليها) : إستمر بالتعزية . أنشدتُ مرةً أخرىٰ تلك الأشعار التي يخاطب بها دعبل فاطمة الزهراء (عليها السلام)[2]، فبكت الصدّيقة الزهراء وبكت معها سائر النسوة بكاءً شديداً . . حتّىٰ قالت لي : حَسْبُك . ثمّ ختمنَ المجلس ، وتلطّفن عليّ ألطافاً وفيرةً .

وكان يقول :

فَهمتُ في أحد الأيّام ــ ولعليّ قد أُمِرْتُ ــ أنّ عَليّ أن ألتقي برجلٍ في

---

(١) دُفِنَ إلىٰ جوار السيّدة فاطمة المعصومة (ع) : السيّدة زينب والسيّدة فاطمة أم محمّد والسيّدة ميمونة من بنات الإمام محمد الجواد (عليه السلام) .

(٢) وهي أبيات من قصيدة الشاعر دِعْبِل بن عليّ الخُزاعيّ الرائعة الذائعة ، التي منها قوله يخاطب الصدّيقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) في تصوير مشاهد من فاجعة الطفّ الدامية :

أفاطِمُ لو خِلْتِ الحسين مُجَدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فُراتِ
إذن لَلَطمتِ الخدَّ فاطمُ عندهُ ... وأجريت دمعَ العينِ في الوَجَناتِ

خان القوافل بمدينة زنجان . كان هذا الرجل من أولياء الله ، وكان شديد المحبّة والتعلّق بأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) .

حينما وصلت إلىٰ خان القوافل طلبت من البوّاب أن يستأذن لي للدخول عليه ، فقال البوّاب : ذلك العجوز المُعْدَم الفقير لا يحتاج إلىٰ استئذان ، حجرته هناك ! ولمّا صرتُ قريباً من باب حجرته ـ ومن دون أن يراني في الظاهر ـ رفع صوته ينشد هذا البيت :

هُوَ آلحانُ . . ليس بِحمّامِ سُوق فلا تَدْخُلَنَّ بلا مَوْعِدِ !

جَمَدتُ في مكاني واقفاً عدّة دقائق ، حتّىٰ أذن لي بالدخول ، فدخلتُ وسلّمتُ عليه . ردّ السلام ، وقال : لماذا جئتَ إلىٰ هنا ؟!

قلت : لنفس الغرض الذي ذهب من أجله موسىٰ إلىٰ الخضر (عليهما السلام) .

قال : لقد ادّعيتَ عظيماً ! هل أنت مثل النبيّ موسىٰ (عليه السلام) ؟!

قلت : لا مناقشة في الأمثال . أنا من هذه الجهة مثل موسىٰ ، أسعىٰ طلباً للمعرفة .

قال : إنك لا تستطيع أن تصاحبني ، ولكنّي أعطيك بضعة تعليماتٍ إذا التزمت بها تقدّمت تقدّماً كبيراً .

الأول : أن تعمل كلّ ما في وسعك ألّا يجتمع الناس حولك ، واحذر بكلّ وسيلةٍ من الشهرة وحبّ الظهور . لأنّ هذا ـ مهما كنت أنت قوياً ـ سيقطع عليك الطريق . (والحقّ . أنّ الحاج ملّا آقا جان كان ملتزماً بهذا الإرشاد . ومصداقاً لهذا فإنّ أحداً لا يعرف عنه هذه الفضائل التي شاهدناها منه ما عدا أفراداً قلائل . وحينما يَحْدُث أن يعرّفه أصدقاؤه لآخرين ، فيلتفّ الآخرون

حوله . . فانّه كان يفرّقهم من حوله بأن يقوم بأفعال يفرّ منها عامّة الناس) .

الثاني : أن تسعىٰ لتصلّي الصلوات في أوّل الوقت . واحفظ قلبك في الصلاة ، ولا تلتفت إلىٰ غير الله .

الثالث : ليكن حبّك لأهل الكمال والفضيلة . وكن في الحقيقة عاشقاً للعلم والفضيلة والتقوى ، وعظِّمْ ما عظّمه الله .

والخلاصة فانّ ذلك الوليّ من أولياء الله قد أعطاني ارشاداً أخر يتعلّق بي شخصيّاً . وكان هذا الإرشاد هو وحده المفيد لي في اكتساب الترقّيات الروحيّة . ثم إنّه صَرفني بدون أن يخبرني باسمه ولقبه . في اليوم التالي ذهبتُ مرّة أخرىٰ إلىٰ خان القوافل فقال لي البوّاب : عصر أمس غادر هذا المكان !

تابع الحاج ملاّ آقا جان كلامه قائلاً : أربعين سنة فيما بعد . . ما رأيته ، ولكنّي عملت بارشاداته .

وكان يقول :

كما انّ غيبة الإمام وليّ العصر (أرواحنا فداه) تنقسم إلىٰ قسمين : الغيبة الصغرىٰ والغيبة الكبرىٰ . . فإنّ ظهور الإمام (عليه السلام) ينقسم كذلك إلىٰ قسمين :

الأوّل : هو الظهور الأصغر الذي ابتدأ سنة (١٣٤٠هـ) .

والثاني : هو الظهور الأكبر الذي سيكون في القريب العاجل بإذن الله .

لست أدري ما هو الدليل الذي استند إليه الأستاذ . وقد سهوت في ذلك الوقت عن استيضاح ذلك منه .

ولكنّ مكاشفة وقعت بعدئذٍ لأحد السادة المعظّمين ، اتّضح فيها أنّ الموضوع هو كالآتي . . وعسىٰ أن يكون مطابقاً للواقع :

وقعت الغيبة الصغرىٰ لأنّ الشيعة آنذاك كانت لهم صلة مباشرة بإمامهم المعصوم . ولم يكونوا مُهَيَّئين للإنقطاع التام عن الإمام (عليه السلام) . . ذلك أنهم لم يكونوا يستوعبون كيف يأتلفون ويجتمعون دونما رابطة مباشرة بإمامهم ، ولا كيف يستنبطون الأحكام الإسلاميّة ، ولا كيف يحاورون المخالفين ليثبتوا لهم دينهم الحقّ . . إلىٰ غيرها من عشرات الموضوعات التي يرجعون فيها إلىٰ الإمام (عليه السلام) ، في زمان حضوره . وهي موضوعات عليهم أن يتعهّدوها بأنفسهم في زمن الغيبة .

إنّ أحداً لا يصل إلىٰ الإمام في غيبته الصغرىٰ . ولكنّ ارتباط الشيعة بالإمام (عليه السلام) كان بوساطة النوّاب الأربعة ، لئلّا يقع الناس في حيرةٍ . وخلال تلك السبعين سنة ـ وهي مدّة الغيبة الصغرىٰ ـ يكونون قد وطّنوا أنفسهم للدخول في عصر الغيبة الكبرىٰ التي جعلها الله (تبارك وتعالىٰ) .

كذلك أمر الظهور الأصغر الذي يستعد فيه الناس في العالم ، وبخاصة الشيعة وأنصار الإمام لمرحلة الظهور الأكبر . ومعنىٰ هذا أنّ الظهور الأصغر ـ رغم أنّ الناس لا يلتقون خلاله بالإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) مباشرة ـ يشهد ظهور أشياء تُعدّ مقدمة للظهور الأكبر . وهذه الأشياء هي :

الأول : يغدو اسم الإمام (عليه السلام) شائعاً متداولاً بين الناس ؛ ففي كلّ زقاقٍ وسوقٍ . وفي كلّ المجالس وفي جميع المدن وعلىٰ ألسنة القرّاء يرد اسم الإمام وألقابه ، ويُطلق اسمه كثيراً علىٰ المساجد والأماكن الأخرىٰ . وهذا بخلاف عصر الغيبة الكبرىٰ الذي لم يذكر فيه اسم الإمام بين الناس ، وحتىٰ بين شيعته .

إيضاح : لم يكن في إيران قبل سنة (١٣٤٠ هـ) ـ علىٰ سبيل المثال ـ ولا مسجد واحد قد أُطلق عليه اسم الإمام صاحب الزمان (عليه السلام) . ولكن بعد سنة (١٣٤٠هـ) قلّما نجد في المدن وحتىٰ في القرىٰ مسجداً أو بناءً

لا يرتبط اسمه باسم الإمام (عليه السلام) . وقد غدت مجالس (دعاء الندبة)[1] عامرةً ، وصارت المحافل الكبيرة تنوّه باسمه المقدّس ، وأُلّفت الكتب في إثبات وجوده (عليه السلام) . . إلىٰ جوار مظاهر أخرىٰ يذكر فيها اسم الإمام قد صارت لافتة لأنظار الناس ، ومذكّرة باسمه المقدّس . وكلّ هذا علامة من علامات ظهور الفجر الصادق ومقدّمة لبزوغ شمس الولاية .

الثاني : نضج الأفكار وتقدم العلم والتكنلوجيا .

إيضاح : إلىٰ ما قبل سنة (١٣٤٠هـ) لم تكن أفكار البشر قادرةً ــ في ميدان العلم والصناعة ــ علىٰ أن تنمو وتتسارع بالمقدار الذي حدث بعد هذا التاريخ .

أكثر العلوم والمكتشفات إنما بلغت مرحلة الظهور منذ هذا التاريخ وما بعده ، ولقد تقدّمت وتطوّرت حتىٰ استطاعت أن تغزو الفضاء .

وتأسيساً علىٰ هذا ، فإنّ مثل هذه الأفكار والمكتشفات العلميّة تمكّن البشر من الوصول إلىٰ إدراك معجزات الإمام بقيّة الله كما لو أنّها عمل طبيعيّ ، أو انّ الذات الإلٰهية المقدّسة قد رشّدت هذه الأفكار العلميّة في هذا الزمان تمهيداً لاستقبال الظهور الأكبر .

الثالث : ظهور معجزات للإمام (عليه السلام) ، وازدياد الصلة به (كما أثبتنا ذلك بتفصيل في كتابنا « اللّقاء بإمام الزمان (ع) ») .

الرابع : كان عامّة الشيعة قبل سنة (١٣٤٠ هـ) قليلي العناية بدفع ما

---

(١) هذا الدّعاء هو أنشودة للعاشقين ومناحة قُدْسيّة للمؤمنين الذين أضناهم فراق إمام زمانهم (عجّل الله فرجه) . روىٰ هذا الدعاء ــ فيمن رواه ــ السيّد عليّ بن طاووس في (مصباح الزائر ــ ص ٢٣٠) وفي (جمال الأسبوع ــ ص ٥٥٣) . وتستحبّ قراءته في الأعياد الأربعة : الجمعة ، والفطر ، والأضحى ، والغدير .

عليهم من حقوق ماليّة شرعيّة ، ومن سهم الإمام المبارك (عليه السلام) . وإذا تيسّر لأحد أن يدقّق في حياة مراجع الدين والعلماء ، فانّه يرىٰ كم كان هؤلاء المراجع والعلماء في ضائقةً ماليّةٍ ، ولم يكن بحوزتهم من المال ما يكفي للإنفاق علىٰ طلبة العلوم الدينيّة . . وبعد هذا التاريخ ابتدأ أغلب الشيعة إمّا يؤدّون ما عليهم من حقوق شرعيّة أو انهم صاروا في الأقلّ يفكرون : لِمَ يمنعهم الشيطان من أداء هذه الحقوق ؟ (وقد أوضحنا هذه المسألة مفصّلةً في كتابنا « المصلح الغيبيّ ») .

وبناءً علىٰ هذا لا يَبْعُد أن يكون أصل كلام أستاذنا في هذا الموضوع له واقعٌ وحقيقةٌ ؛ إنّ كلامه ـ وإن لم يستند في حينه علىٰ الأحاديث والروايات ـ تعضده هذه المكاشفة وتجعل أصل الموضوع حقيقةً واقعةً نعيش نحن في زمانها . ونسأل الله (تعالىٰ) ان يوفّقنا كذلك للعيش في عصر الظهور الأكبر .

وكان يقول :

شاهدتُ يوماً امرأتين عجوزين قد جلست إحداهما إلىٰ جوار الأخرىٰ في أحد المساجد . . وكانتا تتحدّثان . قالت إحداهما : أجد ألماً في رجلي وظهري . فقالت الأخرىٰ بكلّ جدٍّ وإخلاصٍ : ألم تذهبي إلىٰ مجلس عزاء الحسين (عليه السلام) ؟

أجابتها : بلىٰ ، أذهب أحياناً .

قالت : المسألة يسيرة إذن . خذي من دموع عينيك في مجلس العزاء ، وامسحي موضع الألم . ألا تعرفين أنّ شفاء كلّ الأسقام بيد الله ؟ وأنت حينما تبكين علىٰ سيّد الشهداء (عليه السلام) الذي هو وليّ الله ، فإنّ الله يحبّك . والله لا يترك أحبّاءه يتألّمون .

في إحدىٰ الليالي نقل لنا حكاية تكشف عن المقام السامي لأبي الفضل العباس (عليه السلام) ، قال :

كنت في سفرةٍ لي إلىٰ كربلاء قبل عدّة سنواتٍ . كنت أنام في الليالي في رواق الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) . وكانت عادتي أن أذهب لزيارة أبي الفضل (عليه السلام) في أوّل الليل . وفي إحدىٰ الليالي ــ حين دخلت صحن أبي الفضل (عليه السلام) رأيت شابّين كأنّ بينهما فصاماً واختلافاً . كانا واقفين قبالة الحرم ، بحيث يُرىٰ الضريح الشريف . كان أحدهما يهمّ أن يقول شيئاً حين وقع علىٰ الأرض مُغْمىً عليه . أمّا الآخر فقد فرّ . اجتمع الناس حول الشابّ المغمىٰ عليه ، فعَرفوه وعَرّفوه ، وقالوا : هذا من العشيرة الفلانيّة . وحين أُخبر شيخ العشيرة قَدِم إلىٰ المكان ــ وكان رجلاً مُسِنّاً ــ وسأل :

ــ ألم ينتبه أحد ، حين وقع علىٰ الأرض ، إلىٰ ما كان يفعله ؟

ذهبت نحوه ، وقلت له : لقد أشار إلىٰ قبر أبي الفضل العباس ، وأراد أن يقول كلاماً ، ولكنه لم يتمكّن ، وسقط علىٰ الأرض .

قال شيخ العشيرة : لقد غضب عليه أبو الفضل (عليه السلام) ؛ لأنّ بدنه قد ازْرَقّ واندقّت عظامه . خذوه إلىٰ صحن سيّد الشهداء (عليه السلام) ، فإذا كان من طريقٍ للخلاص فانّه هناك .

حمله أصدقاؤه علىٰ أكتافهم ، ونقلوه إلىٰ صحن سيّد الشهداء (عليه السلام) .

يومان بليلتيهما كان إلى جوار إحدىٰ غرف الصّحن في حالة إغماء . في الليلة الثالثة . . كنت نائماً قريباً منه أترقّب ما سيحدث لهذا الشابّ ، فالليلة إمّا أن يموت ، وإمّا أن ينجو . ذلك أنّ من يقع تحت غضب أبي الفضل العباس (عليه السلام) لا يُمْهَل له في الحياة أكثر من ثلاثة أيّام . وفجأةً رأيتُ الشابّ قد تحرّك من تلقاء نفسه ، وقعد .

سأله الأشخاص الذين كانوا يدارونه : ماذا تريد ؟ قال : هاتوا حبلاً شُدّوا به قَدَميّ ، واسحلوني نحو حرم حضرة أبي الفضل (عليه السلام) . فعل

أصحابه ما أراد . ثمّ طلب منهم ــ وهو يُسحل بالحبل ــ حين بلغوا به قريباً من صحن أبي الفضل (عليه السلام) أن يعطوا مقداراً من المال إلىٰ فلانٍ ، وأن يتصدّقوا بنفس المقدار من المال ــ نيابةً عنه ــ علىٰ الفقراء .

تعهّد أصدقاؤه أن يؤدّوا ما طلب . وإذ بلغوا به باب الصحن طلب منهم أن يشدّوا عنقه بالحبل ، ففعلوا . . ثمّ دخل الحرم بمذلّةٍ عجيبةٍ .

وحين صار بإزاءِ ضريح أبي الفضل (عليه السلام) قال كلاماً بالعربيّة ، خلاصته : ما كنت أتوقّع منك ــ يا سيّد ــ أن تذهب بماء وجهي بهذا الشكل ، وأن تفضحني بين الناس :

إذا كنتَ تَجْـزي آلـذَّنْبَ منّي بمثلِهِ   فما آلفَرْقُ ما بَيْني وبينَكَ يـا سَيِّدْ ؟!

في تلك اللحظة وصل شيخ العشيرة ، فقبّله ، والسرور ظاهرٌ عليه . تجمهر الناس من حوله ، وعاملوه بمودّةٍ لأنّه انغمر بألطاف أبي الفضل العباس (عليه السلام) من جديدٍ .

أمّا أنا . . فقد انتظرت حتىٰ خلا المكان حوله من الناس . ثمّ قلت له : لقد كنت معك من أوّل أمرك حتّىٰ آخره . ولكنّي ما فهمت بعض جوانب حكايتك . . هل ترغب أن تخبرني ؟

قال : الشابّ الذي دخل الصحن معي . . كان له عليّ دَيْن منذ زمانٍ . وفي تلك الليلة ألحّ عليّ أن أعطيه دَيْنه ، فتأذّيت منه ، وقلت له : لا دَيْن لك عليّ أصلاً !

فقال لي : أقسِمْ بحياة أبي الفضل !

وبدون حياء . . عزمت أن أقسم . ثمّ لم أفهم ما جرىٰ بعدئذٍ . . حتىٰ هـذه الليلة إذ كانت آلامي وأوجاعي لا تُطاق . ففي عالم الرؤيا كنت أعاين الملائكة يتهيّؤن لاستقبال شخصٍ يروم زيارة سيّد الشهداء (عليه السلام) . سألتهم : ما الخبر ؟ قال أحدهم : سوف يأتي أبو الفضل (عليه السلام) لزيارة

أخيه سيّد الشهداء (عليه السلام) . كنت أهيّىء نفسي للإعتذار وطلب العفو عندما رأيت أبا الفضل (عليه السلام) واقفاً عند رأسي . ركلني بإحدىٰ قَدَمَيْه وقال لي : قُمْ ! لقد قصدتَ باب بيت لـو توسّـل به الجنّ والإنس لمـا رجعوا محرومين .

منذ تلك اللحظة تحسّنت حالتي . وعسىٰ ألاّ أعود إلىٰ مثل هذه الجرأة علىٰ مقام أبي الفضل المقدّس (عليه السلام) .

إنّ الحاج ملاّ آقا جان كان يعتقد أنّ الإنسان إذا استطاع أن يحـرّر نفسه من أسر عالم المادّة ويعمل لتقوية روحه . . فانّه سيكتسب مشابَهةً باطنيّةً لأولياء الله ، ومن ثَمّ فانّه يستطيع رؤيتهم والتحدّث معهم . وقد تولّد هذه الحالـة في باطن الإنسان طهارةٌ معنويةٌ واعتقاداتٌ فطريّةٌ أصيلةٌ .

وأضاف الحاج ملاّ آقا جان : عندما كنت مشغولاً بالزيارة في حرم سيّـد الشهـداء (عليه السـلام) ، لفتت انتباهي امـرأة عربيّـة كـانت تخـاطب سيّـد الشهداء بصوتٍ مرتفعٍ . كانت تقول :

ــ الآن . . أريد ولدي منك !

ثم إنّها اقتربت من الضريح وكأنّما سمعت كلاماً ، فقالت : علىٰ العين ! ثمّ تحرّكت تلقاء الصحن . وما إن بلغت باب الصحن حتىٰ عادت كرّةً أخرىٰ ، واستقبلت الضريح قائلةً :

ــ لا تَقُل بعد ذلك إنَّكَ ما قلتَ لي !

ثمّ خـرجت من الحرم . كنت جـالساً في زاويـةٍ أفكّر في إخـلاص هذه المـرأة ، فتوجّهتُ إلىٰ حضـرة سيّد الشهـداء (عليه السـلام) وطلبت منـه أن يعطيها ما تريد . لم تمض ساعة حتّىٰ عادت هذه المرأة بصحبة شابٍّ إلىٰ داخل الحرم ، وقالت للشابّ : إذهب واشكر سيّد الشهداء (عليه السلام) . تقـدّم الشاب قرب الضريح ، وشكر الإمام (عليه السلام) . أمّا أنا فقد قصدتُ هذا

الشابّ ، وسألته عن قضيّته .

قال : قبل ليلتين أخذني أعداء لي وجعلوني عندهم رهينةً . ثمّ جاؤوا بي إلىٰ كربلاء من قريتي التي تبعد عن كربلاء (١٢) كم ، وحبسوني في منزلٍ . وكانوا يهدّدونني كراراً بالقتل . . حتىٰ كان قبل ساعةٍ ؛ إذ أصاب الرعبُ حارس المنزل . . فجأةً . لم أدرِ ماذا رآىٰ ، ولكنّه فتح باب المنزل . . وهرب . عندها خرجت ــ بدون خوف ــ من المنزل . ثمّ توجّهت ــ وكأنّما بدون إرادتي ــ نحو صحن سيّد الشهداء ، حيث رأيت أُمّي تنتظرني في هذه الزاوية .

في هذه الأثناء تقدّمت المرأة وقالت : عندما اختطف ولدي السارقون تحرّكت من القرية . وقبل ساعة وصلت إلىٰ حرم سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ووقفت قرب ضريحه وشكوت إليه حالي ، فقال (عليه السلام) في جوابي : اخرجي من الحرم إلىٰ الصحن ، وسيأتي ولدك .

رجعت وقلت له : لا تَقُلْ بعد ذلك إنّك ما قلتَ لي !

ولم تمض أكثر من دقائق ــ بعد دخولي الصحن ــ حتىٰ رأيت أنّ ولدي قد جاء . فلم أسأله عن شيءٍ ، ولكنّي أخذته فوراً إلىٰ الحرم المطهّر لسيّد الشهداء (عليه السلام) ، وقلت له : أولاً . . أشكر الحسين بن عليٍّ (عليه السلام) . ثمّ أردتُ أن أسأله عن الموضوع ، ولكنّك سبقتني بالسؤال . وحين قصّ عليك ما جرىٰ له فهمت الموضوع .

قال المرحوم الحاج ملاّ آقا جان بعدما نقل هذه الواقعة : قَوِّ روحك بقدر ما تستطيع ؛ فإنّ مفتاح السعادة ليس في شيءٍ غير هذا .

وكان يقول :

في ليلةٍ من ليالي النجف الأشرف رأيتُ في المنام أمير المؤمنين (عليه السلام) جالساً عند النبيّ الأكرم (صلّىٰ الله عليه وآله) . وكان الشيخ محمد حسين جالساً هناك . وكنتُ أنا أيضاً في محضرهم .

كان الرسول الأكرم (صلّىٰ الله عليـه وآله) يحـدّث الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) . وحينما كان النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) يخفض رأسه كان أمير المؤمنين (عليه السـلام) يرفع رأسه ، ويقول للشيخ محمّد حسين : يا شيخ محمّد حسين ، يا شيخ محمّد حسين . . في قلبي عليك شيءٌ . وما ان يـرفع النبيّ الأكـرم (صلّىٰ الله عليه وآلـه) رأسه حتىٰ يـطأطىء أمير المؤمنين (عليه السلام) رأسه ، وكأنّما هو مشغولٌ مع نفسه بشيءٍ .

تكررت هذه الحالة مرّات . ولدىٰ استيقاظي في الصباح قصـدتُ مكان الشيخ محمد حسين الغَرَويّ الكَمپانيّ ، وقصصت عليه ما رأيت .

فقال : إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قـد ردّ عليّ ما كنتُ قلتُ لـه ؛ ذلك أنّي حين كنت أُنشد أشعاراً في مديح عليّ وفاطمة (سلام الله عليهما) . . وحين أذكر الظُّلامات الواقعة عليهما . . كنت أُخاطب الإمام عليّ بن أبي طالب (عليـه السلام) بقـولي : يا عليّ . . في قلبي عليـك شيء ؛ لأنّك لم تـأخذ أولئك الظَّلَمة أخذَ مقتدر ، مع كلّ ما لديك من القدرة !

وبطبيعة الحال فانّ هذا الشيخ الجليـل كان يقـول عبارتـه تلك من شدّة محبّته ؛ وإلاّ فإنّه يعلم أنّ كلّ ما يفعله عليّ (عليه السلام) هو من إرادة الله .

قصة رائعة حكاها والدي

في تلك السفـرة . . دعا والـدي الحاج مـلاّ آقا جـان ليلةً إلىٰ منزلنـا ، وجلسنـا نتجاذب أطـراف الحديث . وخـلال ذلك التفت الحـاج ملاّ آقـا جان وقـال : طوبىٰ لكم أيّهـا السادات ، فـانكم دائماً في طليعـة الثـورات ، ولكم فضيلة السَّبْق المادّي والمعنويّ علىٰ الدوام . وهذا من بـركات الـوراثة ونـوع الشجـرة الـطيّبـة التي أصلهـا ثـابتٌ في قلوب النـاس ، ولفـروعهـا تـأثيـر في الجماهير .

قلت : ومن أين يُعْرَف أنّي « سيّد » ؟

قال : أنت سيّد ، وعندي دلائل ربّما تتّضح لك فيما بعد .

التفت أبي إلىٰ الحاج ملاّ آقا جان ، وقـال : لديّ قضيّـة ، أفتسمح لي بذكرها لكي يعلم أنّه سيّد ؟ قال : لا مانع .

قال أبي : كنت شابّاً في السادسة عشرة من عمري حين توفي والـدي . كانت أختي الكبيرة المتزوّجة قد ذهبت إلىٰ مصيفٍ في أطراف مشهد يقال لـه (مايون الأعلىٰ) . الجوّ في مشهد كان حارّاً آنـذاك . . ولهذا رغبنـا نحن في الذهاب إلىٰ (مايون الأعلىٰ) كذلك . وإذ لـم تكن في ذلك الزمان وسائلُ نقلٍ حديثةٌ توصلنا إلىٰ هنـاك ، فقد استـأجرنـا ثلاثـة بغال . ركبت أمّي أحـدها ،

والآخر لأختي التي تصغرني . أمّا الثالث فكان لحمل وسائلنا ، وأحياناً كنتُ أمتطيه حين أشعر بالتعب من السير . صاحب هذه البغال ــ الذي كان شابّاً أيضاً ــ كان يمشي برفقتنا علىٰ قدميه ، ولكنّه لم يكن مؤدّباً . كان قد بقي ثلاثة كيلو مترات تقريباً للوصول إلىٰ نهر (مايون) حين التقىٰ في الطريق بشخصٍ ، وانشغل معه بالحديث . أمّا نحن فقد صعدنا نحو (مايون الأعلىٰ) ، فصاح بنا من بعيدٍ أن نهبط إلى (مايون الأسفل) ، ولكننا لم نكترث له ، وواصلنا المسير ؛ لأننا كنّا قد أخبرناه سلفاً أنّ مقصدنا هو (مايون الأعلىٰ) . في ذلك الوقت كان ما تزال ثلاثة كيلو مترات من أوّل (مايون) إلىٰ (مايون الأعلىٰ) ، فأوصل نفسه إلىٰ قربنا بمشقّةٍ من خلال طريقٍ لدىٰ النهر كثيف الأشجار ، واعترض سبيل البغال وأنزلنا . ورغم أنّ الظلام كان ينتشر . . فانّه ربط البغال في جانبٍ ، وقال : لا بدّ أن تدفعوا بقيّة الأجرة ، وتذهبوا مشياً علىٰ الأقدام .

وكلّما طلبت منه أُمّي أن يوصلنا إلىٰ (مايون الأعلىٰ) لقاء ما يريد من أجرٍ إضافيٍّ فإنّه لم يقبل . وإذ كانت معنا امرأة وفتاة ، فمن المحتمل أنّه كان يتربّص حلول الظلام ليرتكب جنايةً . وأدركت أُمّي هذا المعنىٰ ، فاضطربت بشدّةٍ .

أظلم الجوُّ ، حتى صار أحدنا لا يرىٰ الآخر . فبلغ اضطراب أُمّي إلىٰ حدّ أنها ضَرَبَتْني وأُختي بشدّةٍ ، وقالت : أَلستما « سادة » ؟! فلماذا لا تناديان جدّكما ؟! بكينا وكنّا نصيح : « يا جَدّاه . . ! » . وعلىٰ حين غرّة رأينا سيّداً مديد القامة قد أقبل من أسفل النهر ، بحيث إننا ــ رغم الظلام ــ قد ميّزنا هيئة ثيابه ولونها . ولا ننسىٰ أنّه كان يعتمر عمامةً خضراء ويرتدي جُبّةً مخطّطةً .

التفت السيّد ــ من دون أن يستفسر منّا عمّا جرىٰ ــ إلى ذلك الشاب وقال له : يا عديم الشرف ، تجعل ذريّة النبيّ في وسط النهر حيارىٰ مرتعدين ؟! في ظاهر الأمر أنّ هذا السيّد لم يكن يعرفنا ، وما ثمّة علامة تدلّ علىٰ أننا سادة .

ذلك الشاب غير المؤدّب ــ وقد عرفنا فيما بعد أنه لا يعبأ بأحدٍ في

(مايون) وكان يؤذي الجميع ــ قام فوراً وولّىٰ هارباً دون أن ينطق بكلمةٍ . عندئذٍ لحق به السيّد وقبض عليه ، وقال له : اذهب وأحضر البغال ، وأركبهم ، وأوصلهم إلىٰ مقصدهم . فأذعن له ولم يقل أيّ شيء .

قالت أمّي : أيّها السيّد . حين تذهب يعود فيؤذينا .

قال : سأكون معكم حتّىٰ تَصِلوا .

بقي هذا السيّد معنا في الطريق كلّه . كنّا آنئذٍ في غفلةٍ عن ظلمة الليل ، وكنّا نبصر طريقنا وكأننا في النهار . كان منزل أُختي في موضعٍ منفردٍ خالٍ من الشجر والبناء . وحين بلغنا باب المنزل ، قال لنا : وصلتم ؟ قلنا : نعم ، وشكراً لك أيّها السيّد .

قالت لي أُمّي : ادعُ السيّد إلىٰ المنزل ليستريح .

قلت : السيّد غير موجود ، والجوّ مظلمٌ . وكلّما ناديت :

ــ أيها السيّد . . .

لم يُجِبْني أحدٌ . بقينا نتساءل فيما بعد : كيف استطعنا عند النهر أن نتبيّن خصوصيّات هيئته من خلام الظلام ؟ كيف عرف أننا سادة ؟ كيف عرف ما جرىٰ لنا ؟ ولماذا تركنا فجأةً ولم يبق له من أثرٍ ؟

كان هدف أبي من نقل هذه الواقعة أن يثبت سيادتنا ؛ لأنّ هذا السيّد كان قد قال لذلك الشاب : يا عديم الشرف ، تجعل ذريّة النبيّ في وسط النهر حيارىٰ مرتعدين ؟

والخلاصة . . فانّ الحاج ملاّ آقا جان بقي في مشهد عدّة أيّام ، ثمّ رجع إلىٰ زنجان . وذهبت أنا إلىٰ قم .

في المدّة التي كنت فيها بقم . . كان يرشدني بوساطة رسائله . وفي هذه السنة أصرّ عليّ كثيراً ألاّ أتّصل بالذين يدّعون العرفان والإرشاد . وربّما كان

يعلم ماذا سيحدث لي . ذلك أنّي ذهبت يوماً إلىٰ أحد علماء قم المعروفين ، وسألته عن أمورٍ معنويّةٍ ، وعن طريقة الوصول إلىٰ الحقائق ، فقال لي : « قُل اليونسيّة[1] في السجود كلّ يوم أربعمئة مرّة » .

قلت : هذا ذكر حسن جدّاً ، كثيراً ما قُلْته . وأريد منكم أن تنظّموا لي خطةً أخرىٰ .

قال : اقرأه أربعين يوماً . وما دمت قد أجَزْتُك بقراءته فانّ له أثراً آخر .

قلت في نفسي : لا مانع . أجرّب هذا أيضاً ، فكنت أقول : ﴿لا إله إلاّ أنتَ سُبحانك إنّي كنتُ من الظالمين﴾ في حالة السجود (٤٠٠) مرّة ، حسب ما أجازني .

في اليوم الثالث بعد ما قلت « اليونسيّة » أخذني النوم فيما يظهر . وفي عالم الرؤيا رأيت أنّ جداراً قطره أكثر من كيلومتر واحد يحول بيني وبين مقصدي . وكنت أريد بتحريك اللسان مدّة عشرين دقيقة (وهي ما يستغرقه ذكر اليونسيّة) أن أزيحه عن طريقي . في اليوم الأوّل والثاني حينما واظبت علىٰ العمل ولم أظفر بفائدةٍ . . تضايقت . وفي اليوم الثالث ــ إلىٰ جوار أنّي لم أجد تقدّماً ــ رأيت أنّ الشيطان قد زاد من قطر الجدار ، فيئست من التوفيق في هذا العمل ، وصرخت : يا صاحب الزمان أغثني ونجّني من هذا الحجاب والإبتلاء .

وفجأةً رأيت ذلك الجدار الضخم قد تحوّل ــ في لحظةٍ ــ إلىٰ ما يُشبه المسحوق الذي قد ذرّته ريحٌ عاصفة وبدّدته ، فانفتح أمامي الطريق . . ووصلت بسرعةٍ إلىٰ مقصدي . هنالك كان كلّ شيء نوراً . وعُلِّمتُ إذ ذاك

---

(١) اليونسيّة هي ذكر النبيّ يونس (في النون) الذي كان يدعو به ويتوسّل لمّا التقمه الحوت ، وهي : ﴿لا إلٰهَ إلاّ أنتَ سُبْحانَكَ إنّي كنتُ من الظالمين﴾ .

أشياء وقيلت لي معاني ، منها ما يرتبط بالموضوع المذكور آنفاً ، وهو :

إنّك حين تؤدّي الأدعية والأذكار بإذنٍ من أفرادٍ غير معصومين ــ كائناً من يكونون ــ فإنّك حينئذٍ كمن يريد ، بتحريك لسانه ، أن يزيل جداراً بهذه الضخامة . ولكن إذا كان الذكر والدعاء بوساطة المعصومين (عليهم السلام) وبالتوسّل بهم . . فانّ الحواجز تندفع فوراً ، وترتفع الحُجُب في الحال . إنّهم (عليهم السلام) مثل رجل ثريّ إذا أراد أن يُثري شخصاً آخر ، فانه قادر ــ بكتابة حوالة واحدة ــ أن يجعله ثريّاً في لحظةٍ . ولكنْ إذا أراد فقيرٌ أن يكسب الثروة بنفسه ، أو بارشادٍ من فقيرٍ مثله . . فإنّه يحتاج إلىٰ سنين متمادية . ومن غير المعلوم أن يفوز ــ رغم ذلك ــ بالثروة .

كانت معاني قيّمة . وفطنت ــ حين نهضت من النوم ــ إلىٰ أني كنت قد ارتكبت خطأً فاحشاً . وفي الوقت نفسه أبردتُ رسالةً للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان ، وشرحت له ما وقع . وكتب لي : إنّ كلّ خطأ وضرر يتنبّه بعده الإنسان . . يزيد في عقله . . وأملي ألاّ تتوسّل بعد بمثل هذا الشخص ممّن يدّعون الإرشاد ، ويجعلون من عند أنفسهم وِرْداً يرون أنّ أثره منوط بكسب إجازةٍ منهم .

. . . ألم تكن قبل سنتين ــ وقبل أن أغدو رفيقاً لك ــ علىٰ حذرٍ من هذه الناحية ، ولم تُرِد في وقتها أن تتحدّث معي خشية أن أجعلك مريداً لي ؟! فماذا بدا لك حتىٰ تعود ــ بعد كلّ هذه الارتقاءات الروحيّة ــ للتفكير في اتّخاذ مرشد ؟! وعلىٰ أيّ حال ، فاني أدعوك خلال هذه الرسالة للقدوم إلىٰ زنجان في أيام المحرّم ، لتنال قسطاً من تزكية الروح ، حتىٰ لا يتكرر مرّةً أخرىٰ مثل هذه الأخطاء .

وقبل المحرّم بخمسة أيام . . سافرت ــ كما أراد ــ إلىٰ زنجان ، وبلغتها عصر ذلك اليوم ، وقصدت فوراً منزله . لم أكن قد أعلمته سابقاً

بمجيئي هذا اليوم ، ولكنّي وجدته جالساً بانتظاري وكـان أهل بيتـه كلّ بضعـة دقائق يأتون إليه من داخل المنزل ويسألونه : هل جاء فلان أم لا ؟ وقد تيقّنت أنّه كان قد أخبر أهله بقدومي في هذا الوقت .

عشيّـة ذلك اليـوم قال لي : أحـد شبّان زنجـان الصـالحين على فـراش المرض . وأبوه يتوقّع منّي أن أعوده . إذا كنت راغباً . . نذهب معاً .

قلت : لا مانع . إنما جئت إلىٰ زنجان لأكـون معك . وسـأذهب معك أينما تذهب ، لا فرق لديّ .

ذهبنا معاً لعيادة ذلك الشابّ . كانت حالته سيّئةً للغاية . . إلىٰ حدٍّ أنّه لم يعرف الحاج ملاّ آقا جان . كان مقارباً لحالة الإحتضار ونزع الروح . بدأ الحاج ملاّ آقا جان بتسلية أمّه وأبيه ، ودعا له . وحين خرجنا من منـزلهم كنت متأثـراً كثيراً . في أثناء ذلك كنت أفكر أنْ لا بدّ أن نذهب صباح الغد لتشييع جنازته . ولكنّ أمّ الشـابّ خرجت وراءنـا من المنزل وقـالت : أيّها الحـاج . . الأطبّـاء أعطوني الجواب القاطع . ويدي الآن في حجزتك . . أرجوك !

قال الحاج ملاّ آقا جان لأمّ الشابّ : سيتماثل للشفاء . في البداية ظننتُ أنّه قال هذه العبارة لتهدئة خاطرها ، ولكنّه التفت إليّ بعدئذٍ وقال : فوق أننا لن نشيّع جنازته ، فانّ هذا الشابّ سوف يأتي بنفسه مع أمّه إلىٰ منزلنا غداً .

كـانت الساعـة حوالي الثـامنة صبـاحاً حين دُقّ البـاب ، فذهبت لأفتـح الباب . في بادىء الأمر لم أعرفهما . سألاني : هـل الحاج مـلاّ آقا جـان في البيت ؟ سمعته هو يقول لهما : تفضّلوا . . كنت بانتظاركم .

دخـل الشابّ وأمّـه المنزل . وحينمـا جلسا في الغـرفة نـظر إليّ الحاج وقال : أتعرفهما ؟ قلت لا . قال : إنّه هو نفسه الشابّ الذي كان مريضاً أمس . أمّا أنا فقد بُهِتّ من العجب !

قال الحاج ملاّ آقا جان لأُمّ الشابّ : إحْكِ القضيّة ؛ فانّ السيّد الأبطحيّ لا طاقة له علىٰ التحمّل أكثر من هذا .

قالت أُمّ الشابّ : البارحة بعد ذهابكم . . ساءت حالة ابني كثيراً ، حتىٰ آحتُضِر ، وفَقَد الإحساس برجليه ، وبدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة . كنت جالسةً عند رأسه أبكي ، ولكنّه فتح عينيه فجأةً ، وقال : أُمّي . . يقول الإمام الرضا (عليه السلام) : لديكم من تراب قبري ، فلماذا لا تستشفون به ؟ ثمّ غاب عن الوعي .

عندها تذكّرت أنّي حينما ذهبت إلىٰ مشهد قبل عدّة سنين أخذت قبضةً من التراب من أمام مكنسة الخدم ، وجعلته في ورقةٍ ملفوفةٍ ، وأتيت به إلىٰ زنجان ، ووضعته خلف المرآة . أحضرت التراب في الحال ، ومسحت به جسد ولدي . وبحمد الله ـ كما تَرَوْن ـ حصل له الشفاء .

أمّا الشابّ نفسه الذي شفي فقد قال : في حالة الإغماء رأيتني في حرم الإمام الرضا (عليه السلام) . . فخرج الإمام (عليه السلام) من وسط الضريح ، وقال لي : قل لأُمّك . . لديكم من تراب قبري ، فلماذا لا تستشفون به ؟ فتحت عيني ، وقلت هذه العبارة ثم لم أحس بما حدث . كان الوقت فجراً حين أعادني إلىٰ الوعي صوت المؤذّن والعَرَق الغزيز الذي نقعت فيه . ولم أعد أشعر بشيءٍ من الآلام والأوجاع .

* * *

في زنجان يرتقي الحاج ملاّ آقا جان المنبر . وكان له ولعٌ عجيبٌ بالتربية المعنويّة والروحيّة ، فالشباب يميلون إلىٰ حضور مجلسه ، وكبار السنّ يتحدّثون كثيراً عن خُلُقه . العلماء يستمدّون من نظره الدقيق في الآيات والروايات . وأهل المعنىٰ والحال طالما التذّوا بمعاشرته .

لم أفارقه مدّة مكوثي في زنجان لحظةً واحدةً ، فحيثما يذهب أكن معه .

وكنت أتحيّن أن يتحدّث في موضوعٍ لأدقّق فيه ، ولا أدع أدنىٰ فرصة تفوتني .

إنّه يصلّي صلاتي المغرب والعشاء ، عادةً ، في أحد مساجد زنجان ، خلف أحد أئمة الجماعة . وكان يوصيني بالصلاة قدر الإمكان في أوّل وقتها جماعة . وبعد الصلاة كان يذهب لقراءة مجالس العزاء التي كان قد دُعي إليها من قبل .

في مدّة بقائي في زنجان كان يقرأ مجلساً واحداً ـ في المعدَّل ـ كلّ ليلة من ليالي شهر المحرّم . وأحياناً كان يقول لي : الآن دُعيت إلىٰ مجلس عزاءٍ في المكان الفلانيّ ، وعليّ أن أذهب . وحين نذهب معاً إلى المجلس يكون صاحب المجلس قد أعدّ مجلسه بإخلاصٍ ، واجتمع الناس ، ولكنّ قارىء مجلسه لم يحضر . وإذ يرىٰ صاحب المجلس أنّ الحاج ملاّ آقا جان قد حضر علىٰ غير موعدٍ ، وآستأذن لصعود المنبر . . يأخذه العَجَب : (فكيف عرف الحاج ملاّ آقا جان أنّي قد طلبت الآن من إمام الزمان (عليه السلام) قارىء تعزية . . وهو موضوع ما أطّلع عليه حتىٰ الخواصّ من أهل زنجان ؟!) .

أذكر جيّداً أننا ذهبنا ليلةً إلىٰ مجلسٍ كهذا . وحين وقعت عينا صاحب المجلس علىٰ الحاج ملاّ آقا جان ، قال : أقسم بالله ، أني قد توسّلت قبل دقائق بإمام الزمان (عليه السلام) ، وقلت : « يا مولاي . . إبعثْ لي قارىء تعزية » . . فجئتَ أنت !

في هذه السفرة ، قلت للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان : إنّ حادثة لافتة للنظر وقعت في طهران ، ولديّ شكّ في صحّتها . . أفتأذن لي بالسؤال عنها ؟

قال : سَلْ .

قلت : في محضر أحد علماء طهران المعروفين . . أحضر أحدهم روح المرحوم الشيخ البهائيّ ، وسأله أسئلةً . ذكر أحد الحاضرين في المجلس فيما بعد أنّه كان قد قرأ في أحد الكتب أنّ الشيخ البهائيّ قال : إذا كان لأحدٍ أمر

مهمّ ، وقرأ هذا الدعاء مدّة عشرة أيّام ، في كلّ يومٍ مئة مرّة (علىٰ أن يبدأ بيوم الأربعاء ويختم يوم الجمعة) . . ثم لا تُقْضىٰ حاجته ، فليلعنّي . وهذا هو الدعاء :

« يا مُفَتِّحَ الأبواب ، يا مُقَلِّبَ ٱلقُلوبِ والأبصارِ ، ويا دَليلَ المُتَحَيِّرِينَ ، ويا غياثَ المُسْتغيثِينَ . . تَوكَّلْتُ عليكَ يا ربِّ ، فاَقْضِ حاجَتِي ، وٱكْفِ مُهِمِّي . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ العَليِّ العَظِيمِ ، وصَلّىٰ اللَّهُ علىٰ مُحمَّدٍ وآلهِ أجْمَعِينَ » .

قال ذلك الشخص : قرأت هذا الدعاء عشرة أيّام ، فبدأت يوم الجمعة وختمت يوم الأربعاء . وكان ظنّي أنّي قد أدّيت العمل علىٰ نحو سليمٍ . ولكنّ حاجتي لم تُقْضَ . . فأريد أن ألعن الشيخ البهائيّ ، ولكنّ قلبي لا يطاوعني .

في ذلك المجلس الذي حضرت فيه روح الشيخ البهائيّ . . لم يكن أحد من الحاضرين علىٰ علمٍ بهذا الموضوع . وفجأةً التفت إليّ الرجل الذي أحضر روح الشيخ وقال : يقول الشيخ : « اختتامه يوم الجمعة » . بمعنىٰ أن ختم العمل ينبغي أن يكون يوم الجمعة . ففطنت عندها إلىٰ ما وقعت فيه من الخطأ ، وأدركت أنّ حاجتي لم تُقْضَ لأنّي ابتدأت به يوم الجمعة وختمت يوم الأربعاء ، وقد لفت نظري الشيخ البهائيّ إلىٰ الموضوع .

كان لديّ سؤالان حول هذه الواقعة : أحدهما : هل من الممكن إحضار الأرواح ؟ والآخر : هل هذا الدعاء بهذه الصيغة صحيح ؟

أجاب الحاج ملاّ آقا جان : إحضار الأرواح والتحدّث معها أمر عاديّ جدّاً في نظر أولياء الله . ولكن هل كلّ من يدّعي إحضار الأرواح علىٰ صواب ؟ هذا غير مؤكّد . ولكنّي أقول : إذا قرأ أحدٌ هذا الدعاء مرّةً واحدةً ــ وهو في الحالة الروحيّة التي ينبغي ــ فَلْيَلعَنّي إذا لم يُسْتَجب دعاؤه . ولكنّه إذا قرأ هذا الدعاء ــ بدون هذه الحالة الروحيّة ــ مئات المرّات في عشرات الأيام . . ولم

يُسْتَجب دعاؤه ، فلا يلومَنّ إلاّ نفسه ، ولا يحقّ له أن يلعن الشيخ البهائيّ .

قلت : رأيتُ في كتابٍ أنّه قد نُقل عن الشيخ البهائيّ أنّ من كانت له حاجة وقرأ هذا الدعاء سبعين مرّة ، فانّ حاجته تُقْضىٰ . . وإلاّ فليلعنّي . وهذا هو الدعاء : « لا إلهَ إلاّ اللّهُ بِعِزَّتِكَ وقُدْرَتِكَ . لا إلهَ إلاّ اللّهُ بحقِّ حَقِّك . لا إله إلاّ الله فَرِّجْ برحمتِك » .

فهل هذا صحيح ؟ وهل هو مرويّ عن المعصوم (عليه السلام) ؟

قال الحاج ملاّ آقا جان : إذا ثبت أنّ الشيخ البهائيّ قد قال هذا . . فإنّه يرويه عن المعصوم بالتأكيد ؛ ذلك لأنّ الشيخ كان عظيماً بحيث انّ أحداً لا يحتمل أنّه كان يخترع هذه الأدعية ويبتدعها من عنده . وعلىٰ هذا ، فانّ قراءة هذه الأدعية رجاء أن تكون صادرة عن المعصوم (عليه السلام) . . أمرٌ حَسَنٌ .

في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجّة اتّصل (الحاج حاج آقا) هاتفياً من أبهر (إحدىٰ المدن في أطراف زنجان) بالحاج ملاّ آقا جان ، يدعوه إلىٰ قراءة مجلس العزاء في حُسَيْنيّته خلال الأيام العشرة الأولىٰ من المحرّم .

قال له الحاج ملاّ آقا جان : لديّ ضيف . . إذا وافق علىٰ المجيء معي فسوف آتي . قلت له : لا فرق لديّ بين أبهر وزنجان . . ما دمت معك ، وأنا سعيدٌ بذلك . فقبل الحاج ملاّ آقا جان الدعوة . وفي الصباح التالي الموافق للتاسع والعشرين من ذي الحجّة . . ذهبنا إلىٰ أبهر بالقطار .

كان الحاج حاج آقا الأبهريّ رجلاً عجيباً ، طاهراً نقيّاً ، ومن ذوي المحبّة لأهل البيت (عليهم السلام) ، ومن أصحاب الولاء والمودّة لهم (عليهم السلام) . ليس في قاموس حياته موضعٌ للغشّ . وهو لا يصدّق مثلاً أنّ شخصاً من سلك العلماء ، تمرّ عليه عدّة شهور لا يرىٰ فيها إمام الزمان (عليه السلام) .

الحُسَيْنِيّة التي كان قد شيّدها . . يُشَمّ منها حقاً العطر الحُسَيْنِيّ .

كنت جالساً وحدي يوماً ما في هذه الحسينيّة ، فرأيتني في حالة بكاءٍ عجيبٍ بدون أدنىٰ سبب . ذرفت دموعاً علىٰ ظُلامة سيّد الشهداء (عليه السلام) ، ثمّ غادرت الحسينيّة .

لقيني الحاج حاج آقا ، فقال لي : أما استطعت أن تسيطر علىٰ نفسك ؟

قلت له : كلّا ، فهذه الحسينيّة عجيبة .

قال : ولماذا لا تكون كذلك ؟ أتدري كيف بُنِيَتْ هذه الحسينيّة ؟

لقد استقدمت عمّالاً وبنّائين من أصحاب الحالات الروحيّة ، من طهران وزنجان . ودعوت أحد قرّاء العزاء المخلصين . وحينما كانوا يريدون البدء بالبناء كانوا يقرؤن مجلس عزاء ، ثم يشرعون بالبناء وعيونهم باكية . واستمرّوا علىٰ هذا النهج . . حتىٰ اكتمل تشييد الحسينيّة .

كان الحاج حاج آقا يرىٰ الأرواح . ولم يكن يصدّق أنّ « مُعَمَّماً » مثلي لا يراها .

في صباح أحد الأيّام ــ وكان قد أوىٰ إلىٰ النوم في ليلته باكراً ــ رأيت أن سِنَةً من النوم كانت ترنّق عينيه . سألته : ما هذا النعاس ؟

قال : صلّيت البارحة ركعتي صلاة هديّةً لروح أبي (رحمه الله) . . فجاءتني أرواح كافّة أهلي الميّتين ، وقالوا : صلّ لكلّ واحدٍ منّا ركعتين أيضاً . فلم أستطع ردّ طلبهم ، وبقيت إلىٰ وقت السّحر مشغولاً بالصلاة ، وما نمت إلّا قليلاً .

كان يقول هذا بصفاءٍ ونقاءٍ . . إلىٰ حدّ أنّ المرء لا يحتمل إطلاقاً أن يجد فيه ولا ذرّة من الغشّ والخداع .

ذهبتُ يوماً بصحبة الحاج ملّا آقا جان والحاج حاج آقا إلىٰ مقبرة أبهر .

أخذنا الحاج حاج آقا إلىٰ قبور أهله وأصدقائه ، حتّىٰ إذا وصلنا إلىٰ جوار قبر منها أشار الحاج ملاّ آقا جان إلىٰ القبر ، وقال : الشيخ رضا (كانت علىٰ فمه ابتسامةٌ ، كما لو أنّه التقىٰ بصديقٍ له بعد انقطاعٍ طويلٍ) .

قال الحاج حاج آقا : نعم ، هو الشيخ رضا . . الذي كان يقول : ما القضايا المعنويّة ؟! وكان يهزأ بنا . قال الحاج ملاّ آقا جان : أتسمع ما يقول الآن ؟ إنه يقول : كنت علىٰ خطأ ، وكلامكم هو الصحيح . وطوبىٰ لبعضكم ، إذ سيحيىٰ إلىٰ زمان الظهور .

جُزْنا ذلك المكان ، وبلغنا قبر أُمّ الحاج حاج آقا . . فبيّن الحاج ملاّ آقا جان كلّ أوصاف أُمّ الحاج حاج آقا الظاهريّة والروحيّة ، وقال له : إنها تقول لك أنْ لا تعمل العمل الفلانيّ .

قال الحاج حاج آقا علىٰ الفور : علىٰ العين !

سألته أنا : ما الموضوع الذي تنهاك عنه والدتك ؟

قال : بشرطٍ أن تعاهدني علىٰ ألاّ تبوح به . . لأنّه من الأسرار .

قلت : لا مانع .

قال : العمل الذي كنت أقوم به . . (وذكره لي) لا يعلم به إلاّ الله وأنا وقد عزمت قبل ليالٍ علىٰ تركه ، فنهتْني أمّي الآن عن تركه .

كان الحاج ملاّ آقا جان يصعد المنبر في منزل الحاج حاج آقا وفي حُسَينيّته كلّ صباحٍ . وكان يجتمع في المجلس خلقٌ كثيرٌ . وقليلة هي الأيّام التي لم تغمر المجلس فيها روحيّةٌ باهرةٌ .

بعض الأفراد في المجلس كانوا يقعون أحياناً في غيبوبةٍ من فرط البكاء . وكان الحاج حاج آقا يلتفت إليّ في بعض الأحيان ويقول : اجتمعت هنا أرواح جميع الأولياء .

وعلىٰ أيّ حالٍ . . فقد سلخت في أبهر اثني عشر يوماً في حالةٍ روحيّةٍ غامرةٍ .

في يوم عاشوراء قال لي الحاج ملاّ آقا جان : إذا طلبت من الله أن نسافر معاً إلىٰ العراق لزيارة الأئمة (عليهم) فاننا سنوفّق للزيارة .

قلت : لا مشقّة في الدعاء ، ولكن هل من الممكن أن يحدث هذا ؟

قال : ليس عند الله شيء لا يمكن .

(في ذلك الوقت لم يكن عمري يسمح لي ــ من الناحية القانونيّة ــ بالحصول علىٰ جواز سفرٍ . ولا يمكن أن أحصل عليه أيضاً لأسبابٍ سياسيّةٍ) . وعلىٰ كلّ . . فقد دعوت . ثمّ إني بعد ذلك نسيت الموضوع .

بعد أيّام من انقضاء عاشوراء ذهبت إلىٰ قم ، وبقيتُ هناك خلال شهري المحرّم وصفر . وحدث يوماً أنْ ذهبت إلىٰ طهران لوداع أحد أقاربي ، وقصدتُ مسجد الحاج سيّد عزيز الله ، فوقعت عيني هناك علىٰ الحاج ملاّ آقا جان . . فغمرتني البهجة ، وقلتُ له : لماذا جئتَ إلىٰ طهران ؟

قال : من أجل الذهاب لزيارة الأئمة في العراق . ألم تكن قد دعوتَ الله يوم عاشوراء ؟

قلت : وهل آستُجيب الدعاء ؟

قال : نعم ، ولماذا لا يُستجاب ؟ الله تعالىٰ نفسه يقول : ﴿**اُدعوني**﴾ . . ثمّ لا يستجيب ؟!

قلت : كيف يمكن أن أذهب إلىٰ الزيارة . . ولا نقود لديّ ولا جواز سفر ؟!

قال : لقد أُعطِيتُ نفقات سفرك . وسيُنْجَز الجواز بشكلٍ من الأشكال .

قلت : حسناً جدّاً .

ثمّ إنّي بقيت في طهران عشرين يوماً تقريباً أسعىٰ للحصول علىٰ جواز السفر ، فلم أفلح . . ورجعت إلىٰ قم يائساً .

تسلّم الحاج ملاّ آقا جان جواز سفره . وفي الليلة الثالثة عشر من شهر جمادىٰ الأولىٰ جاء إلىٰ قم ، وقال : علينا أن نستقلّ ــ من قم ــ قطار (طهران ــ خرّمشهر) . وبعد غدٍ سيكون السفر .

قلت : ولكن . . ليس لديّ جواز سفر .

قال : ستحصل علىٰ جوازٍ بطريقةٍ ما . . فلا تبتئش . أقصىٰ ما في الموضوع أننا نأخذك من خرّمشهر إلىٰ البصرة ، عن طريق التهريب .

أمّا أنا فقد زاد خوفي . . واشتدّ قلقي ، وأمسيت تحت ضغوطٍ عجيبةٍ : فمن جانبٍ أودّ من قلبي زيارة العتبات المقدّسة في العراق . ومن جانبٍ آخر . . كانت هذه سفرتي الأولىٰ ، وأشعر بالخوف من اجتياز الحدود عن طريق التهريب .

كانت ليلة شاتية باردة . . تلك التي كان فيها الحاج ملاّ آقا جان وبعض رفقائه الذين قدموا معه من طهران ، معي في غرفتي بالمدرسة الحجّتيّة . كنّا نجلس جميعاً في الغرفة حول الكرسيّ الدافيء[1] .

قال الحاج ملاّ آقا جان : الليلة ليلة وفاة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ، فلنتوسّل بمقامها (عليها السلام) .

الجميع كانوا يرغبون ، وابتدأ الحاج يقرأ التعزية .

وضعت رأسي علىٰ الكرسيّ . كنتُ أبكي ، وقد أمكستُ رجل الكرسيّ

---

(١) الكرسيّ : جهاز خشبيّ توضع تحته وسيلة للتدفئة . . ويغطّى بغطاءٍ سميكٍ عريضٍ ، ويمدّ الجالسون أرجلهم تحت الغطاء طلباً للدفء ، وهم متحلّقون حول الكرسيّ .

الخشبيّة بيدي حين أخذني النوم بدون أن أشعر . رأيتُني في الرؤيا طفلاً غير مؤدّب قد طردتني أمّي فاطمة الزهراء (عليها السلام) من البيت ، ولكنّي تمسّكت بإطار الباب الخشبيّ ، وكنت أبكي ، وأطلب من أمّي الصّفح .

انفتح الباب . . فخرجت من باب المنزل سيّدة كأنها الشمس في رابعة النهار . ما كنت أظنّ أن الله (تعالىٰ) قد خلق امرأةً مثلها في عَظَمتها وجلالها وجمالها . أخذتني بحنوٍ وحنانٍ وأدخلتني داخل البيت . في تلك اللحظة استيقظت من النوم مسروراً ، وسمعت الحاج ملّا آقا جان يقول لهؤلاء الأصدقاء : الحمد لله . . لقد أُعطيَ الأبطحيّ حاجته .

وعلىٰ أيّ حالٍ . . فقد نمتُ تلك الليلة . وفي منتصف الليل أفقْتُ علىٰ صوت نقْرٍ علىٰ زجاج باب الغرفة ، لا بدّ أنّ أحداً ينقر الباب . فتحت باب الغرفة ، وإذا رجلان من تجّار طهران . . أحدهما من تبريز ، والآخر من إصفهان . . وكانا يسكنان في طهران . لقد سمعا أنّ الحاج ملّا آقا جان قد وصل إلىٰ قم ، فجاءا ليلاً لرؤيته . ولأنهما يعلمان أنّه لا ينزل هنا في مكانٍ آخر . . فقد قصدا غرفتي مباشرةً في المدرسة الحجّتية ، وأيقظانا من النوم . جلسنا معاً ساعةً من الليل ، وفي أثناء كلامهما سألا عن موعد السفر .

أجاب الحاج ملّا آقا جان : المقرّر أن يكون سفرنا بعد غدٍ بالقطار . ولأنّ السيّد الأبطحيّ ليس لديه جواز سفر . . فإنّه يخاف .

قال التاجرُ التبريزيّ : معه حقّ ؛ فالسفر تهريباً مشكل كثيراً .

بعد حديثٍ من هنا وهناك . . تهامس الرجلان فيما بينهما . ثمّ نهض التاجر الإصفهانيّ من مكانه ، وقال لي : ألَدَيْك صورة ؟

قلت : نعم .

قال : أعطني عشر صور ، لأُحضر لك عشيّة غد وفي مثل هذا الوقت جواز السفر .

أعطيته الصّور ، فذهب في وقت انتصاف الليل هذا إلىٰ إصفهان بسيّارات الليل . وفي الليلة التالية جاء ومعه جواز سفر لي ، وجوازا سفر لشخصين آخرين كانا في رفقتنا ولم تكن لديهما جوازات سفر . ولكنْ : ماذا صنع ؟ وكيف استطاع بهذه السرعة تهيئة جوازات السفر ؟ لا أحد غيره يعلم ، والذي عرفناه نحن أنّ التاجر التّبريزيّ قد تحمّل نفقات إعداد الجوازات ، وتحمّل التاجر الإصفهانيّ متاعب السّعي لاستحضار الجوازات . ثمّ عرفنا أنّهما كانا مأمورين من قِبَل الصدّيقة الطاهرة (عليها السلام) . وعندها فهمت علّة إخفاقي في الحصول علىٰ جواز سفرٍ لي من طهران رغمي سعيي الحثيث مدّة عشرين يوماً .

وعلىٰ كلّ حالٍ . . فقد ركبنا القطار من قم باتّجاه خرّمشهر عصر اليوم الرابع عشر من جمادىٰ الأُولىٰ .

كانت تلك أوّل سفرة طويلة مع الحاج ملاّ آقا جان . وإذ ينبغي أن يستفاد من الأستاذ في السفر أكثر . . فقد ركّزت انتباهي علىٰ أخلاقه وطريقة تعامله مع الأصدقاء ورفقة السفر . وكنت أنتفع من علومه ومعارفه خطوةً بخطوةٍ علىٰ طريقة المشّائين(1) .

كان في أخلاقه غير قابل للوصف ؛ فانّه كان يقتدي بصاحب الخلق العظيم (صلّىٰ الله عليه وآله) . في تلك الليلة الخامسة عشر من جمادى الأُولىٰ ، حينما كنّا في قطار طهران ـ خرّمشهر . . أخذني النوم . وفي الصباح أخبرني الأصدقاء ، فقالوا : عندما نمتَ مال رأسك إلىٰ ركبة الحاج ملاّ آقا جان . وقد ظلّ هو جالساً بكلّ هدوءٍ . وظلّ رأسك علىٰ ركبته حتّىٰ الصباح ، ولم يشأ أن يوقظك (ومن المعلوم أنّ ليالي الشتاء ليالٍ طويلةٍ) . وكلّما قلنا له : لقد تعبتَ ، فاسمح لنا نجعل رأسه برفقٍ علىٰ وسادةٍ من

(1) المَشّاؤون هم أتباع الفلسفة المَشّائيّة .

الثياب . قال : هذا غير ممكن (وذكروا لي كلماتٍ قالها بشأني حتىٰ رضوا وسكتوا ، ممّا لا أقدر علىٰ ذكره هنا) .

وحين استيقظت صباحاً من النوم ، كانت رجله قد خدرت . وبعد كثيرٍ من التدليك من قِبَل رفقاء السفر . . استطاع بالتدريج أن يحرّك رجله .

قال لنا :

تستطيعون المزاح في السفر ، ولكن لا تكذبوا . ولا تستخفّوا بأحدٍ ولا بجماعةٍ .

خلال السفر كلّه لم يُرَ محزوناً إلاّ في كربلاء . كان دائماً بشوشاً متبسّماً . وكان إمّا ناطقاً بالحكمة ، أو راوياً لأحاديث ، أو تالياً للقرآن .

ينام قدراً من الليل . ويُعْنىٰ في آخر الليل بالتهجّد وصلاة الليل .

قلت له يوماً : حينما كنّا في زنجان أمرتني أن أقوم لصلاة الليل ، ولكنّك ما كنت تصلّيها في بعض الأحيان . أمّا في السفر فانك تواظب عليها .

قال : سبعون سنة انسلخت من عمري ، كنت مضطرّاً خلالها في زنجان أن أصعد المنبر لقراءة مجالس العزاء في الأربع ساعات الأولىٰ من الليل . وما كنت أستطيع الجمع بين مجالس أول الليل وصلاة الليل . . ذلك لأنّ وضعي الصحّيّ لا يساعد بعدما دبّ فيّ الضعف . ثمّ إنّي لا أستطيع النوم في النهار ؛ لأنك تدري أنّ لديّ أعمالاً زراعيةً ينبغي أن أقوم بها بنفسي . ولكنّ تكاليفي في هذه السفرة قد قلّت ، وأستطيع ــ بحمد الله ــ أن أتهجّد وأصلّي صلاة الليل .

قلت : ينبغي أن تترك المنبر في زنجان ، ولا تشقّ علىٰ نفسك إلىٰ هذا الحدّ . أو ينبغي أن تقلّل من ارتقائك المنبر . . حتّىٰ تستطيع أن تقوم الليل ؛ لأنّ الله تعالىٰ ــ في القرآن ــ قد وعد المتهجّدين بالنجاة .

قال : فكّرت يوماً في زنجان . . إمّا أن أقوم لصلاة الليل وأقلّل من صعود

المنبر ، وإمّا أن استمرّ علىٰ صعود المنبر كالعادة . وفي النوم قيل لي : صلاة الليل من العبادات التي يعود نفعها عليك وحدك ، ولكنّ المنبر والموعظة ومجلس العزاء من العبادات التي يعود نفعها عليك ، وينتفع بها الناس أيضاً . وحين تتعارض عبادات من هذا النوع فانّ ما ينفع صاحبه وينفع الناس هو الذي يُقَدَّم .

يأكلُ الحاجُ ملاّ آقا جان من الطعام نزراً يسيراً ، ولا ينطق بأكثر من كلمتين . قلبه طافحٌ بمحبّة الله والنبيّ والأئمة الأطهار (عليهم السلام) . وهو يحترم ــ بشكلٍ لافتٍ ــ السادة وذريّة النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) . وكان يقول : ورد في الرواية أنّه لا ينبغي أن يُتَقَدَّم علىٰ السادة في أثناء المشي في الطريق .

حين يدخل السادةُ في مجلسٍ (حتّىٰ لو كانوا صغار السنّ) ، فانّه كان يقوم إجلالاً لهم علىٰ امتداد قامته . وكان يقول : جاء في الحديث : لو أنّ شخصاً رأىٰ أحد السادة . . ثمّ لم يقم له بكامل قامته فانّ الله يبتليه بداءٍ لا دواء له .

كان يجلس دائماً علىٰ ركبتيه [كهيئة المصلّي] . وما كان يدع الآداب مع أصدقائه حتّىٰ في السفر . قلت له مرّةً : كنت سمعت من يقول : (بين الأحباب تسقط الآداب) . فقال : أنا أسأل الأشخاص من الذين يقولون مثل هذا الكلام : هل الآداب شيء حسن . . أم لا ؟

حتماً سيقولون : الأدب شيءٌ حسنٌ . فأقول في جوابهم : إذا كان لدىٰ الإنسان شيء حسن . . فلماذا لا يقدّمه لأصدقائه ؟!

هذه كانت إضمامة من أدب هذا الرجل الكبير وأخلاقه التي شهدتها في سفري معه .

وحين وصلنا إلىٰ الحدود العراقيّة الإيرانيّة . . قال لنا : إنّي لأشمّ عبير

مولاي سيّد الشهداء . وقد جرىٰ هذا المعنىٰ علىٰ لسانه ليجعلنا أشدّ بصيرة بمقام سيّد الشهداء (عليه السلام) .

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة حين ذهبنا من بغداد إلىٰ الكاظمين[1] ، وتوجّهنا بلا توقف تلقاء الحرم المطهّر للإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) . كنّا في حالةٍ روحيّةٍ طّيبةٍ ، فدخلنا ــ وبدون اختيار ــ إلىٰ داخل الحرم ، من دون أن نقرأ (إذن الدخول) . أمّا الحاج ملاّ آقا جان فقد كان ما يزال واقفاً عند عتبة الحرم المقدّسة حين خرجنا من داخل الحرم . كان له توجّه قلبيّ عجيب نحو الضريح المقدّس ، كمن كان يرىٰ الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) ، وكان هو يتحدّث مع الإمام (عليه السلام) بكلّ أدبٍ . وحين خرجت من الحرم ــ وقد كنت طلبتُ من الإمام (عليه السلام) ثلاث حاجاتٍ ــ أخبرني الحاج ملاّ آقا جان بحاجاتي الثلاث ، وذكر لي ما سيُقْضىٰ منها وما لا يُقْضىٰ ؛ لأنّ قضاءها ليس في مصلحتي . . بحيث انه أقنعني تماماً .

في صباح اليوم التالي قصدت الحرم بمفردي . وحين عدت إلىٰ الفندق قال لي : لقد شاهدت مشهداً عجيباً . ثمّ لم ينطق بعدها بحرفٍ .

ألححتُ عليه ليعرّفني بما شاهد . .

فقال : حين دخلت الحرم ، رأيت الإمام موسىٰ بن جعفر والإمام الجواد (عليهما السلام) جالسَيْن ، فسلّمتُ عليهما ، وردّا الجواب .

كنت واقفاً أمامهما أقرأ (الزيارة الجامعة) . وبغتةً رأيت كلاًّ منهما قد

---

(١) تقع مدينة «الكاظمين» شمالي بغداد . وهي المدينة التي فيها مزار الإمامين الشهيدَيْن الهُمَامَيْن موسىٰ بن جعفر الكاظم ومحمّد بن عليّ الجواد (عليهما السلام) . وقد اتّخذت اسمها من لقب الإمام الكاظم (ع) . ويقال لها أحياناً « الجوادَيْن » نسبة إلىٰ الإمام الجواد (ع) .

نهض . وطأطأ الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) رأسه . كـان واقفاً علىٰ امتداد قامته ينظر باتّجاه باب الدخول . نظرت أنـا أيضاً إلىٰ حيث كـان (عليه السـلام) ينظر . . فـرأيت الإمام عليّ بن مـوسىٰ الرضـا (عليه السـلام) قـد دخـل ، حتىٰ صـار بين الإمـام مـوسىٰ بن جعفـر والإمـام الجـواد (عليهمـا السـلام) . . ثمّ جلسوا جميعـاً . إلتفت الإمام عليّ بن مـوسىٰ الرّضـا (عليه السلام) إلىٰ الإمام الجواد (عليه السلام) ، وقال : لدينا في هذه المدينة عدد (كذا) من الشيعة (وذكر العدد) . . فلمَ لا تلبّي لهم حاجاتهم ؟

تناول الإمام الجواد (عليه السلام) ورقةً وقلمـاً ، وسأل الإمـام عليّ بن مـوسىٰ الـرّضـا (عليـه السـلام) عن أسمـائهم ، فكتب أسمـاءهم ، وذكّـره بحاجاتهم ، وأمره بتلبية تلك الحاجات .

قـال الحاج مـلّا آقا جـان : فلان مثـلاً (وذكـر اسم أحـد الأصدقـاء)، وقال : قد كُتب . وحاجته هي أن يُرْزَق طبعاً شعريّاً . . فأعطي حاجته .

وحين سألت هذا الشخص عن الموضوع ، قـال : هذا صحيـح . كنت حتّىٰ البارحة لا أستطيع أن أقول بيتاً من الشعر . وقد طلبت الليلة الماضيّة من الإمامين الكاظمين (عليهما السلام) قول الشعر . وما ان استيقظت في الصباح حتّىٰ صرت أقول حتّىٰ الكلام العادي شعراً .

قضينا أيّاماً في الكاظمين ، وزرنا قبور السفراء الأربعة في بغـداد . وقد قال لنا الحاج ملّا آقا جان أفكاراً رائعةً حول السفراء الأربعة ، وهي :

إنّ الدليل الـذي يؤدّي بنا إلىٰ الإعتقـاد بعصمة الأئمـة الأطهار (عليهم السـلام) . . هو نفسـه الدليـل الذي يجعلنـا نقول : إنّ السفـراء الأربعة لهم نصيب من العصمة ؛ لأننا إذا لم نعدهم كذلك ــ كأنْ نعدّهم يذنبون ويخطؤون ويجري عليهم السهو والنسيـان ــ فاننـا لن نستطيـع عندئـذٍ أن نعتمد علىٰ مـا ينقلونه إلينا .

أوصانا الحاج ملاّ آقا جان ، في كلِّ المشاهد المشرّفة ، أن يكون اعتقادنا في الأئمة (عليهم السلام) أنّهم أحياء يرزقون ، يسمعون كلامنا . ولا ينبغي أن نغفل عن هذه الحقيقة أدنىٰ غفلة .

إنّه يعدّ (الزيارة الجامعة الكبيرة)[1] وزيارة (أمين الله) أفضل الزيارات . ويوصينا أن نقرأ زيارة الإمام صاحب الأمر (عليه السلام) كلّ يوم ، وخاصة عند الأضرحة المقدّسة ، إذ هو يعتقد أنّ إمام الزمان (عليه السلام) يُحتَمل أن يكون لدىٰ الأضرحة المقدّسة ، أكثر من أيّ مكان آخر . ويقول : إنّ أفضل زيارة له (عليه السلام) هي زيارة (آل ياسين) .

في المدّة التي مكثنا فيها بالكاظمين . . ذهبنا مرّةً لزيارة قبر سلمان الفارسيّ في المدائن . وفي صباحات الأيام حين كنّا نعود من حرم الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) ، كان يقف إلىٰ جوار قبر السيّد الرضيّ والسيّد المرتضىٰ[2] ويسلّم عليهما ، ويقرأ الفاتحة ، ويقول : إنّ قبر الشيخ كاظم الأُزْريّ ــ الذي هو من كبار شعراء الشيعة ــ إلىٰ جوار قبر السيّد المرتضىٰ .

وخلاصتها . . أننا قضينا بضعة أيام في الكاظمين ، ثم ذهبنا إلىٰ كربلاء . كانت عدّة كيلو مترات ما تزال قبل بلوغنا كربلاء . . حين رأيت الحاج ملاّ آقا جان يقرأ بصوتٍ خفيفٍ ويذرف الدمع . أنْصَتُّ . . فإذا هو يقول :

---

(١) هي الزيارة العظيمة التي يُزار بها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) . صدرت عن الإمام أبي الحسن الهاديّ (عليه السلام) ، وأكّد الإمام وليّ العصر (عجّل الله تعالىٰ فرجه) أنّها أكمل الزيارات وأحسنها . قال السّيد عبدالله شبّر (الأنوار اللامعة في شرح زيارة الجامعة) : رواها جملة من أساطين الدين وحملة علوم الأئمة الطاهرين ، مثل الشيخ الطوسيّ والشيخ الصّدوق . واعلم انّ هذه الزيارة الشريفة لا تحتاج إلىٰ ملاحظة سند ؛ فانّ فصاحتها وبلاغتها وأنوار معانيها تغني عن ذلك ، فهي كالصحيفة السجاديّة ونهج البلاغة .

(٢) هما قبرا الشريف الرضيّ والشريف المرتضىٰ (رضوان الله عليهما) .

حبيبي يا حسين « قَتَلُوكَ وما عَرَفُوكَ ، وَمِنْ شُرْبِ المَاءِ مَنَعُوكَ » .

بعدئذٍ . . قال للسائق : أرجو أن تتوقّف .

أوقف السائق السيّارة ، فنزل الحاج ملّا آقا جان ، وقال لنا : هيّا آنزلوا . فنزلنا .

قال لنا : من هنا يبدأ حرم كربلاء ؛ فانّ أربعة فراسخ في أربعة فراسخ متعلّقةً بكربلاء وبالإمام الحسين بن عليّ (عليه السلام) . ثمّ إنّه سجد سجدة الشكر ، وركب السّيارة . . فركبنا نحن كذلك .

ومنذ تلك اللحظة ــ وما دمنا في كربلاء ــ لم نَرَ الحاج ملّا آقا جان متبسّماً قطّ . كان إمّا جالساً جلسة المحزون ، وإمّا منخرطاً في البكاء .

قلت له يوماً : ذهبت اليوم إلىٰ جوار حفرة مَنْحر سيّد الشهداء (ع) . . وتأثّرت كثيراً .

فقال : مدّة سُكْناي كربلاء فيما مضىٰ من الزمان . . كلّما كنت أجيىء للزيارة لم أكن أقدر ، أعني قلبي لا يطاوعني ، ولا يسعفني حالي للذهاب قرب حفرة المذبحة . وأنت آبنهم . . فكيف قدرت أن تذهب ؟!

كان الحاج ملّا آقا جان مفعماً بحقيقة الولاية ومحبّة أهل بيت العصمة (عليهم السلام) إلىٰ حدٍّ أن ترىٰ ذلك ظاهراً عليه ، وأن نعدّ كلّ ما يقوله في هذا السياق حقيقةً لا يرقىٰ إليها شكّ .

بعد أيام معدوداتٍ من إقامتنا في كربلاء . . توجّهنا إلى النجف الأشرف . وفي اليوم الثاني من وصولنا جاء جمع من العلماء وأهل الحال والمعنىٰ لزيارته . وجرت بينهم وبينه مباحثات يطول بسطها هنا ، حسبنا منها هنا بحث موجز دار بينه وبين تلاميذ المرحوم سيّد علي القاضي .

الساعة الثامنة صباحاً . . كنّا جلوساً في الفندق ، حين دخل جمع من

العلماء وكبار أهل المعنىٰ . وبعد معانقته ومعانقتنا فرداً فرداً ، جلسوا في جانب من الغرفة . . وقد بدا عليهم أنهم ينتظرون فرصةً لالقاء ما لديهم من أسئلة . ثمّ أنّ أحدهم سأل : أرجو أن توضّح لنا ما معنىٰ « كمال التوحيد » ، ومعنىٰ « التوحيد الكامل » ؟

قال في جوابه : التوحيد أن ننبذ ما صوّرناه في مخيّلتنا عن الأرباب المصنوعين ، وأن نعتقد وحسب بالله الذي له الولاية الكليّة . ولهذا التوحيد شرط ذكره الإمام عليّ بن موسىٰ الرِّضا (عليه السلام) في حديث « سلسلة الذَّهب »[1] . وإذا لم يُعرف الله (تعالىٰ) عن الطريق المستقيم ، وعن صراط الحقّ وبيان الصدق . . فانّ ما يُعرف عندئذٍ ليس هو الله (جلّ جلاله) ، بل هو

---

(١) حديث « سلسلة الذهب » هو الحديث العظيم الذي ذكره الإمام عليّ بن موسىٰ الرِّضا (عليه السلام) حين بلغ نيسابور في الطريق إلىٰ خراسان . وروىٰ هذا الحديث كثير من مؤلّفي الشيعة والسّنة .

روىٰ الشيخ الصّدوق في كتاب (التوحيد) فقال :

« لمّا وافىٰ أبو الحسن الرِّضا (عليه السلام) بنيسابور ، وأراد أن يخرج منها إلىٰ المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له : يا ابن رسول الله . ترحل عنا ولا تحدّثنا بحديثٍ فنستفيده منك ؟!

وكان قد قعد في العُماريّة (مظلّة فوق الراحلة) فأطلع رأسه ، وقال : سمعت أبي موسىٰ بن جعفر يقول : سمعت أبي جعفر بن محمّد يقول : سمعت أبي محمّد بن عليّ يقول : سمعت أبي عليّ بن الحسين يقول : سمعت أبي الحسين بن عليّ بن أبي طالب يقول : سمعت أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) يقول : سمعت جبرئيل يقول : سمعت الله (جلّ جلاله) يقول : « لا إله إلاّ الله حِصْني ، فمن دخل حصني أمِنَ من عذابي » .

قال راوي الحديث : فلمّا مرّت الراحلة نادانا : « بشروطها ، وأنا من شروطها » .

قال الشيخ الصّدوق بعد إيراد الحديث : من شروطها الإقرار للرِّضا (عليه السلام) بأنّه إمام من قِبَل الله (عزّ وجلّ) علىٰ العباد ، مفترض الطاعة عليهم .

وسلسلة الذهب أو السلسلة الذهبيّة هي وصف لسلسلة سند هذا الحديث . . التي قيل فيها : لو قُرِيء هذا السند علىٰ مجنونٍ لأفاق من جُنّته .

إلهٌ مخلوقٌ مصنوعٌ ، كما قال الإمام الصّادق (عليه السلام) : « كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه . . فهو مخلوقٌ لكم ، مَردود إليكم » .

قال السائل : أليست الولاية من أجل أن توصلنا إلىٰ التوحيد ؟ وحينما نصل إلىٰ التوحيد . . فهل نظلّ بحاجةٍ إلىٰ الوليّ المعصوم وإلىٰ كلماته ؟

قال : أتظنّون أنكم تستطيعون ان تتحرّكوا لحظةً واحدةً في طريق التكامل بدون مرشد ودليل معصوم ؟ ألم تكن للشيطان معرفة بالله ؟ بلىٰ ، ولا شكّ . كان يكلّم الله ، ولكنّه لحظة رفض ولاية أبينا آدم انحرف عن الصراط المستقيم ، وطُرد من مقام القرب الإلٰهيّ ، وبات يعتقد بما يصل إليه فكره هو ، فنسب إلىٰ الله (تعالىٰ) الظلم ، وقال بالجبر . وكذلك شأن الفلاسفة وبعض العارفين الذين لم يصنعوا أيديهم بيد وليّ الزمان ، واكتفوا بالإعتقاد بما تولّده أفكارهم هم .

قال السائلُ : كان المرحوم الشيخ إبراهيم إمام زاده اليزديّ يعتقد أنّ الإنسان حينما يصل إلىٰ الكمال فانّه يستطيع ــ بدون مرشد من خارج ذاته ــ أن يستمدّ من الجلال والجمال الإلٰهيّ .

(حين ذهبت فيما بعد عند المرحوم آقاى طاهائي الذي هو من علماء أهل الحال ، وكان من تلامذة المرحوم الشيخ إبراهيم . . أعطاني كرّاساً اسمه (رسالة في العرفان) ، ما يزال لديّ حتّى الآن . وقد كتب فيها ذلك المرحوم في الكلمة الثانية والأربعين :

دقيقة عرشيّة :

« إذا وصل العارف الكامل إلىٰ مقام الحَيْرة والإستغراق ، يستفيض من الحقّ تعالىٰ بلا واسطة المرشد الخارجيّ لرياضة النفس والضلالة والهداية . والواصل قد جاوز عنها ، ونال مقام : بي يُبْصر ، وبي ينطق ») .

قال الحاج ملاّ آقا جان : صحيح أنّ الله (تعالىٰ) قد ألهم الإنسان

الهداية ، ولكنّ الإلهام قد تشوبه أحياناً وسوسة ، فينبغي أن يكون لدىٰ الإنسان ــ في الموارد المشكوكة ــ ميزان يزن به . وهذا الميزان هو الإسلام وأحاديث المعصومين . ولهذا فنحن لا نتّفق مع هذا الرأي .

ومهما يكن . . فقد بقينا في النجف الأشرف أيّاماً . أمّا أنا فقد اطّلعت خلال هذه الأيام علىٰ الدروس التي يلقيها المراجع العظام في ذلك الوقت ، مثل آيات الله سيد عبد الهادي الشيرازي ، وسيد محمود الشاهروديّ ، وسيّد محسن الحكيم ، والشيخ باقر الزنجانيّ ، والشيخ حسين الحلي ، والشيخ البُجْنُوزديّ . وقد رأيت أنّ حوزة النجف العلميّة ملائمة جدّاً للدرس والتحصيل .

في صبيحة أوّل يوم ثلاثاء من إقامتنا في النجف . . قال لنا المرحوم الحاج ملاّ آقا جان : حين نصلّي الظهر ونتغدّىٰ ينبغي أن نذهب إلى الكوفة لزيارة مقام مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وحضرة زكريّا ، ومسجد الكوفة ، ومسجد زيد ، ومسجد صَعْصَعة ، ونبيت الليلة في مسجد السهلة . . لننال ــ إنْ شاء الله ــ بركات كثيرة . فلنذهب . . وربّما نلتقي بالإمام بقيّة الله (صلوات الله عليه) . ثمّ قال بصوتٍ خفيضٍ سمعته أنا وحدي : إذاً لم أنفعل .

قال هذه العبارة وهزّ رأسه : ولماذا أنفعل ؟! كلاّ . . لن أنفعل ، إذا لم يَكِلْني الله إلىٰ نفسي . ثمّ تلا هذه الآية : **﴿وما أُبرّيء نَفْسي إنّ ٱلنّفْسَ لأمّارَةٌ بالسُّوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي﴾** .

بعد أداء صلاة الظهر وتناول الغداء توجّهنا نحو الكوفة بالسيّارة . وفي الطريق زرنا مقام كُمَيْل بن زياد وميثم التمّار ومسجد الحنّانة . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر دخلنا مسجد الكوفة . وحين كنّا في مقامات مسجد الكوفة مشغولين بأداء الأعمال . . التحق بنا شابّ إيرانيّ يعمل خفّافاً في كربلاء . وكان هذا الشاب مشغولاً برياضة نفسه في مسجد الكوفة داخل غرفة خَلْوَته .

سألته : ماذا تفعل هنا ؟

قال : كنت عاكفاً علىٰ رياضة نفسي ، ومن شروط هذه الريـاضة أنّي لا أكلّم أحداً مدة واحد وعشرين يوماً ، أُقضيها صائماً .

قلت له : وهل تمّت رياضتك ؟

قال : كلاّ . ولكنّي حين كنت جالساً في الغرفة ــ هذه الساعة ــ مشغولاً بقراءة سورة (الحمد) . . سمعتُ فجأةً صوتاً يقول لي : ما تريده تجده عند هذا الرّجل (يعني الحاج ملاّ آقا جان) ، ولذلك فإنّي لن أتركه حتىٰ أنال بُغيتي .

قلت : وما بغيتك ؟ لكنّه ما قال شيئاً ولاذ بالصمت . وقد تبيّن فيما بعد أنّ مراده التشرّف بلقاء الإمام وليّ العصر (عليه السلام) .

أدّينا مجتمعين أعمال مسجد الكوفة ، ثمّ ذهبنا لـزيارة مقـام مسلم بن عقيل . وكان ثمّة قبر إلىٰ جوار ضريح مسلم ، قال عنه الحاج ملاّ آقا جـان : نقرأ الفاتحة علىٰ روح المختار . فعلمنا أن القبر قبر المختار الثقفيّ .

سألته : كيف كان وضع المختار ؟

فقـال : لأنّه كـان في قلبه حبّ لبعض أعـداء فاطمـة الـزهـراء (عليهـا السلام) . . فانّـه يُذهَب بـِهِ يوم القيـامة ــ حسب الأمـر الإلٰهيّ ــ إلىٰ النار . ولكنّ سيّد الشهداء ــ نظراً لخدماته ــ يشفع له .

بعدها قصدنا زيارة مقام هاني بن عُرْوة ، فأجلسَنا الحاج ملاّ آقا جان في جانبٍ ، وقرأ لنا مجلس عزاء . كنّا في حالة توسّل حَسنة . ثم قال لنا : هـذه الحالة وصلت إلينا من حقيقة ومعنويّة حضرة هاني ، فآشكروه .

تحرّكنا ، مِنْ ثَمَّ ، صوب مسجد السهلة . وكان الشاب الذي التحق بنا في مسجد السهلة لم يدع الحاج ملاّ آقا جان ــ خلال ذلك ــ في ارتيـاحٍ . . فانخرط يسأله أسئلةً حول الكمالات المعنويّة .

إنّ مسجد صعصعة ومسجد زيد غير بعيدين عن مسجد السهلة . وكان لدينا شيء من الوقت قبل أن يحلّ الغروب ، فقصدنا هذين المسجدين وأدينا أعمالهما . وحين كنّا في مسجد زيد . . كان الحاج ملاّ آقا جان يدعو ــ بصوتٍ عالٍ ــ بعد الصلاة بهذا الدعاء العجيب ، وكاد أن يُصْعَق .

وما زلت الآن ــ بعد مُضيّ ثماني عشرة سنة علىٰ ذلك اليوم ــ كأنّي أرىٰ مشهد هذا الرجل الكبير وهو يصرخ ، ويدعو بهذه العبارات :

إلٰهي . . قد مَدّ إليك الخاطيءُ المُذنبُ يَدَيْهِ ، بِحُسْنِ ظنِّهِ بك .

إلٰهي . . جَلَسَ المُسيىءُ مُقِرّاً لك بسوءِ عمله ، وراجياً منك الصَّفْحَ عن زَلَلِهِ .

إلٰهي . . قد رَفَعَ إليك الظالمُ كَفَّيْهِ راجياً لِما لَدَيْكَ ، فلا تُخَيِّبْهُ برحمتِكَ مِنْ فَضلِكَ .

إلٰهي . . قد جَثَا العائدُ إلىٰ المعاصي بين يَدَيْك خائفاً من يومٍ تجثو فيه الخلائق بين يديك .

إلٰهي . . جاءك العبدُ الخاطيءُ فَزِعاً مُشْفِقاً ، ورفع إليك طَرْفه حَذِراً راجياً ، وفاضتْ عَبْرته مستغفراً نادماً .

(وهنا علا صراخه ، وقال) : وعزّتِك وجلالِك ما أردتُ بِمَعْصِيَتِي مُخالَفَتِكَ . وَمَا عَصَيْتُكَ إذْ عَصَيْتُكَ وأنَا بكَ جاهِلٌ ، وَلَا لِعِقُوبَتِكَ مُتَعَرِّض ، وَلَا لنَظَرِكَ مُسْتَخِفّ . وَلَكِنْ سوّلَتْ لِي نَفْسِي ، وأعَانَنِي عَلَىٰ ذٰلِكَ شِقْوتِي ، وغرّنِي سِتْرِكَ المُرْخىٰ عَلَيّ . .

(ثمّ كرر في خضوع عجيب هذه العبارة :) فَمَنِ الآنَ مِنْ عذابِكَ مَنْ يَسْتَنْقِذُنِي ؟! وَبِحَبْلِ مَنْ أعْتَصِمُ إنْ أنت قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي ؟!

(من هنا فصاعداً تغيّرت حالته ، وصرخ بطريقةٍ خشينا فيها عليه ،

قال :) فيا سَوْأَتاه غَداً من الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، إذَا قِيْلَ لِلمُخِفِّينَ : جُوزُوا . ولِلْمُثْقَلِينَ : حُطّوا ! أَفَمَعَ المُخِفِّينَ أَجُوزُ ، أَمْ مَعَ المُثْقَلِينَ أُحُطّ ؟!

(ثمّ قبض علىٰ لحيته بيده ، وعيناه تصبّان مثل الميزاب ، وقال :) وَيْلِي ! كلّما كَبُرَ سِنّي كَثُرَتْ ذُنوبي ! وَيْلي ! كلّما طال عُمْري كَثُرَتْ معاصِيَّ ! فكَمْ أتوب ؟! . . وكم أعود ؟!

(ثمّ خاطبَ نفسه ، ولطم وجهه ، وكأنّما كان يعاقب ذاته . . وقال :) أما آنَ لي أن أستحيي من ربّي ؟!

(وهنا رفع يديه ، وقال ودموعه تجري بصراخٍ وعويلٍ :) اللهمّ . . بحقِّ محمّدٍ وآل محمّدٍ ، إغْفِرْ لي ، وآرحمني . . يا أرحم الراحمين وخير الغافرين .

(ثمّ مرّغ وجهه بالتراب ، فهيمن عليه البكاء والتأوّه والخشية من الله ، حتىٰ غدت أكتافه تهتزّ ، وهو يقول :) إنْ كنتُ بئس العبد ، فأنت نِعْمَ الرّبّ .

(رأيت التراب وقد تحوّل من دموعه إلىٰ طينٍ . ثمّ مرّغ خدّه الأيسر بالتراب ، وراح ينتحب كأمّ مات ولدها الوحيد ، ويصيح :) عَظُمَ الذّنب مِنْ عَبْدِكَ ، فَلْيَحْسُنِ العفوُ من عندك . . يا كريم .

وهنا سجد مرّةً أخرىٰ ، وردّد كلمة (العفو) مئة مرّة ، وبكىٰ بكاءً شديداً . . حتّىٰ أُغميَ عليه . وبعد مشقةٍ استطعنا أن نساعده ليعود إلىٰ الوعي .

بعد ذلك . . سار بنا حتّىٰ وصلنا ، في أوّل الغروب ، إلىٰ مسجد السهلة .

هنا بيت إمام الزمان .

هنا عتبة الحجّة ابن الحسن .

هنا ملتقىٰ محبّي الإمام .

كان الأمر بالقياس إليّ رائعاً جدّاً ، بسبب أنّي أخطو لأوّل مرّة في هذا المكان المقدّس ، وبسبب البرنامج الخاصّ الذي أعدّه لنا المرحوم الحاج ملاّ آقا جان .

بعد صلاة المغرب والعشاء وأداء أعمال مسجد السّهلة ، أدرك محبّو الإمام بقيّة الله الأعظم (أرواحنا فداه) أنّ لدىٰ (المولىٰ) هذه الليلة ضيفاً محبوباً . ولهذا اجتمعوا في غرفةٍ من غرف المسجد تخصّ الشيخ جواد السّهلاويّ الذي هو من كبار أهل المعنىٰ ، ومقيم في منزلٍ مجاورٍ لمسجد السهلة ، وهو المسؤول عن شؤون المسجد . وطلب هؤلاء المجتمعون من الحاج ملاّ آقا جان أن يبيت عندهم في تلك الغرفة ، ليستفيدوا منه ، فقبل دعوتهم .

كانت ليلةً عجيبةً . الإجتماع كان لافتاً للنظر . . ذلك أنّ نخبة من الأشخاص كانوا في تلك الغرفة .

أحدهم سيّدٌ محترمٌ من أهل مشهد ، كان يأتي من كربلاء إلىٰ المسجد مدّة أربعين ليلة أربعاء ، ليفوز في ختامها بلُقيا إمام الزمان (عليه السلام) . وكانت تلك ليلة أربعائه الأربعين .

والآخر هو ذلك الشابّ الذي رافقنا من مسجد الكوفة ، إذ كان مشغولاً برياضة نفسه ، لكي يحظىٰ بلقاء الإمام بقيّة الله (عليه السلام) . . وأمله أن يفوز الليلة بما كان ينتظر .

ثمّة شخص آخر كان علىٰ جانبٍ كبيرٍ من صفاء القلب ، بحيث لا يُشكّ أنه سوف يفوز الليلة برؤية الإمام (عليه السلام) .

أمّا مضيّفنا الشيخ جواد السّهلاويّ فقد كان في حالةٍ روحيّةٍ هي من

فيوضاتٍ توجّهه إلىٰ وليّ العصر (عليه السلام) .

كان تحرّق الحاج ملاّ آقا جان وذوبانه علىٰ نحوٍ عجيبٍ . . إلىٰ درجةٍ أنّه كان يوجّه المجلس تلقاء كبرى الحقائق والمعنويّات .

وكنت ـ وأنا يومئذٍ شابّ غضّ العُود ـ جالساً في زاويةٍ أرقب ما يدور .

كانوا جميعاً يريقهم علىٰ فراق مولاهم سخيّ الدموع . . وقرئت في المجلس زيارة (آل يٰس) و (دعاء التوسّل) .

استمرّ الحال علىٰ هذا النمط . . حتّىٰ الصّباح . صلّينا صلاة الصبح في مقام الإمام الحجّة ابن الحسن (عليه السلام) الكائن في وسط المسجد . أمّا صديقنا الذي اكتملت ليلة أربعائه الأربعون . . فقد كان في غمٍّ شديدٍ ؛ إذ أنفق ما يقرب من عشرة شهور من الزمان بعيداً عن بيته وبلده ، وتحمّل عناء الغربة ، عشقاً لمولاه الإمام المهديّ (روحي له الفداء) .

كنت أصحبه أكثر من سواه ؛ لأنّي كنت أعلم أنّه من المحال أن لا يكلّل إمام الزمان (عليه السلام) معاناة هذا الرجل بثمرةٍ . ولقد سألته : هل تشرّفتَ فيما مضىٰ بلقاء الإمام (عليه السلام) ؟

قال : حَظِيتُ بلقائه عدّة مرّات ، ولكنّي ما كنت في أثنائها أعرفه . وقد عانيت مشقّة هذه الرياضة من أجل أن أتعرّف عليه (عليه السلام) إذا التقيت به . وهكذا ، فانّ ما ذكره هذا الرجل جعلني ألازمه ولا أفارقه .

في صباح تلك الليلة ، حينما كنّا نصلّي في مقام صاحب الزمان (عليه السلام) . . رأيته يتخاصم وأحد أهل السّنّة الذي كان يصلّي هناك وقد كفّر يديه . فسألته : لماذا انفعلت ؟

قال في بادىء الأمر : لماذا يصلّي في مقام مولاي خلافاً لتعليمات الإسلام ؟ ثم أضاف علىٰ الفور : أكاد أُجَنّ ! أربعون ليلة أربعاء في بلد الغربة

بعيداً عن الوطن . . دونما أيّ فائدة ! أيجوز هذا ؟!! لو كنت أنت في مكاني . . ماذا ستفعل ؟

قلت : أنا لست مثلك . انتظرتُ ليلةً واحدةً فقط ، فما عدت أتحمّل . الحقّ معك . جرت دموع عينيه ، وأسند رأسه إلىٰ الجدار ، وصار ينتحب . أمسكته من ذراعه ، وأخذته إلىٰ غرفة الشيخ جواد السّهلاويّ ، حيث كان رفاقنا مجتمعين لتناول طعام الإفطار .

كان الحاج ملاّ آقا جان جالساً . ظهره إلىٰ الجدار ووجهه نحو باب الغرفة . . وكأنّما كان بانتظار أحدٍ . كان جالساً بكلّ أدبٍ ، فجلسنا نحن في زاوية الغرفة .

في هذه الأثناء دخل الغرفة شابٌّ من طلبة العلوم الدينيّة يرتدي زيّ العلماء . كان أسود اللون نحيف الجسم . ورأيت سيّداً معظّماً قد ألقىٰ علىٰ كتفه الأيسر رداءً ، وهو ينظر إلىٰ داخل الغرفة . وكان واقفاً خارج الغرفة .

وعندما دخل هذا الشيخ ـ الذي ظهر فيما بعد أنّه هنديٌّ ـ اعترض عليه الحاج ملاّ آقا جان قائلاً :

لماذا دخلت الغرفة ؟!

أجاب الشيخ الشاب بلسانٍ ألكنٍ نصف فارسيّ وبلهجةٍ هنديّةٍ : أنا محبّ لإمام الزمان (عليه السلام) ، وكنت قاعداً في المسجد من البارحة حتّىٰ الصّبح . وجئت إلىٰ هنا لأستريح .

قال له الحاج ملاّ آقا جان : أنت تَكْذِب ! أنت لا تحبّ إمام الزمان ولا تعرفه . ولكنّ هذا الشيخ ظلّ يردّد كلماتٍ مماثلةً لِما كان قاله . وكان الحاج ملاّ آقا جان يزداد انفعالاً ، ويصرّ علىٰ تكذيبه .

كلّنا قد أصابنا الذّهول لِما جرىٰ ؛ فما عهدنا للحاج ملاّ آقا جان سابقةً

مثل هذه . حتّیٰ انّ بعض الأصدقاء اعترضوا عليه وقالوا : لماذا أهنت هذا الشيخ المسكين إلیٰ هذا الحدّ ؟ بعدها قام الحاج ملاّ آقا جان من مكانه ، وأُخرج الشيخ من الغرفة .

السيّد الذي كان ينظر إلیٰ داخل الغرفة ، ويبتسم أحياناً . . كان طول هذه المدّة كمن ينتظر إلیٰ أين ستنتهي هذه المخاصمة . ويبدو أنه ، لو لم يكن ثمّة خصام . . لدخل الغرفة .

في اللحظة التي أُخرج فيها الشيخ من الغرفة . . انصرف ذلك السيّد .

كنت أظنّ أنّ السيّد هو صديق الشيخ ؛ فانّه قد ذهب مع ذهابه . قلت للحاج ملاّ آقا جان : كلّ ما قلتَه لهذا الشيخ فقد سمعه صديقه الذي كان واقفاً خارج الغرفة . ومن حسن الحظّ أنّه لم يتدخّل للدفاع عنه .

قال الحاج ملاّ آقا جان : أوَ كان له صديقٌ أيضاً ؟

قلت : نعم ، سيّد ذو شخصيّة ، كان واقفاً خارج الغرفة بهذه الأوصاف . . وكان ينظر إلیٰ خصامك مع الشيخ .

قال عدّةُ أفرادٍ من أهل المجلس : نحن أيضاً قد رأيناه . ولكنّ شخصين أو ثلاثة ــ من ضمنهم الحاج ملاّ آقا جان ــ لم يروه . ولم يكن في موضعٍ لا يراه فيه أحدٌ ، بل كان هذا السيّد واقفاً قريباً من عتبة الباب .

بكیٰ السيّد الذي قضیٰ أربعين ليلة أربعاء في مسجد السّهلة ، فقلت له : أرأيته أنت أيضاً ؟

قال : رأيته ، ووقع في ظنّي أنّه الإمام صاحب الزمان (عليه السلام) . فقال له الحاج ملاّ آقا جان : فكّرْ جيّداً ؛ فإنّ إمام الزمان (عليه السلام) وعدني أن يأتي لزيارتنا في هذه الساعة . سألت السيد صاحب الأربعين أربعاء : ومن أين عرفت أنّه الإمام صاحب الزمان (عليه السلام) ؟

قال : أُلهمت في البداية أنّه الإمام (عليه السلام) . وقد تصرّف في قواي حين هممت أن أنهض لأذهب إليه ، ولم أعد قادراً حتّىٰ أن أنطق بالسلام عليه .

وقال الشابّ الذي التحق بنا في مسجد الكوفة : أنا أيضاً عرفته في تلك اللحظة .

حين سمعنا ذلك كلّه ــ ولمّا يمض علىٰ الحادثة إلاّ وقت قصير ــ تحرّكنا جميعاً نبحث عن ذانك الشخصين .

كان مسجد السّهلة خالياً ، بحيث أستطيع أن أزعم أنه لم يكن في المسجد أحدٌ غيرنا . وكان ما حول المسجد صحراء يرىٰ الناظر فيها علىٰ بُعْد (٢) كيلو متر . وفي خارج المسجد رأيت ذلك الشيخ الهندي ، فسألته : أين ذهب صديقك السيّد ؟

قال : ليس معي صديق .

ثمّ إنه خاف وابتعد عنّا حين رأىٰ أننا كنّا نعدو باتجاهه مرتبكين .

كلّما نظرنا هنا وهناك . . لم نشاهد عند المسجد إلاّ الشيخ . لو أنّ أحداً مرّ بظرفٍ كظرفنا هذا فانّه لا بدّ أن يظنّ أن ذلك السيّد قد طُوِيَتْ له الأرض فآختفىٰ فجأةً ، أو انه قد استخفىٰ في مكانٍ ما من المسجد . ما ثمّة احتمال آخر . وحين جُلْتُ في المسجد أنظر إلىٰ داخل الغرف المفتّحة أبوابها ، واحدةً فواحدةً . . تبخّر الإحتمال الثاني ، ولم يَبْقَ ألاّ أوّل الإحتمالين .

عندئذٍ تيقّن الحاج ملاّ آقا جان والسيّد الذي أمضىٰ في مسجد السهلة أربعين ليلة أربعاء أنّ ذلكم السيّد كان إمام الزمان (عليه السلام) . أمّا سائر من كانوا في الغرفة فانّهم إمّا أن يكونوا ما رأوه ، أو أنّهم كانوا مشغولين بواقعة الشيخ والحاج ملاّ آقا جان فلم يفطنوا إلىٰ وجوده (عليه السلام) . وهذا قد جعل الحاج ملاّ آقا جان محزوناً بحيث لم يجرؤ أحدنا أن يكلّمه .

انفضّ المجلس ، وقد ساء بعضَ الأصدقاء الذين كانوا في الغرفة ما فعل الحاج ملاّ آقا جان ، ولم يرتضوا تصرّفه . ولكننا ـ الذين نعرف أخلاقه ونعرف أنّه مظهرٌ من مظاهر الخلق الجميل ـ كنّا نرىٰ أن وراء فعلته سرّاً . وصبرنا لكي نعرف ماذا يقول هو .

حين عدنا إلىٰ النجف وجلسنا في غرفة الفندق ، تأوّه الحاج ملاّ آقا جان ، وقال : أرأيتَ أيّ خسار فعلتُ ؟ لقد قال لي : لا تنفعل !

قلت له : ولماذا انفعلت . . حتىٰ انّ الأصدقاء اعترضوا عليك ، وحتىٰ حُرِمنا زيارة مولانا صاحب الأمر (عليه السلام) ؟

قال : لقد وقع شيءٌ يُدْرَك ولا يُوصَف . كيف أستطيع وصف انتظاري إيّاه في تلك الساعة ؟ وكيف أستطيع أن أصوّر الظلام الذي ملأ الغرفة حين دخل ذلك الشيخ ؟! وما دخل المولىٰ الغرفة بسبب وجود الشيخ . ومع أنّي ما رأيت الإمام (عليه السلام) ـ وأعرف لماذا ما رأيته ـ لكنّي أدري أنّ وجود الشيخ كان حائلاً دون دخول الإمام (عليه السلام) ، ولهذا ألححت عليه ليخرج ، فيدخل الإمام (عليه السلام) ، وتبيّن بعدئذٍ أنّه قد جاء حين كنّا مشغولين بالخصام والنزاع مع الشيخ .

قلت : ولكن ما السرّ في أنّك لم تر الإمام (عليه السلام) مع أنّك كنت تنتظره وتعلم أنّه سوف يأتي ؟

قال : لو كنتُ قد رأيتُ الإمام لدىٰ الباب ، والشيخ يحول دون دخوله لشدّدت في إيقاع الأذىٰ به . . وربّما لم يكن في ذلك مصلحةٌ . تابع بعدئذٍ وقال : لا تفكّر أنّ ذلك الشيخ لا ينبغي أن يؤذىٰ ، إنه ينبغي أن يُقْتَل . ولكنّكم قد تأذّيتم لأنّكم لا تدركون السرّ .

قلت : لماذا يعدك الإمام من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ يأتي هذا الشيخ ؟ ولماذا لم يأتِ بعد ذهاب الشيخ ؟

قال : حين رجع النبيّ موسىٰ من جبل الطُّور ورأىٰ أصحابه قاطبةً قد عَبدوا العجل ، قال : ﴿إنْ هِيَ إلاّ فِتنتُك﴾ ، (أي هي ابتلاءٌ منك تهدي به قوماً وتضلّ آخرين) .

وفي حالتنا يتكرّر الأمر نفسه : الأفراد الذين كانوا مؤهّلين شاهدوا الإمام (عليه السلام) . والأفراد الذين كانوا في غير طريقنا وتخلّفوا عنّا فقد انصرفوا وساءهم تصرّفي . ذلك السيّد الذي سلخ أربعين ليلة أربعاء في مسجد السهلة رغم أنه ما باح في وقتها بما رأىٰ ولم يقوَ علىٰ الحركة إلاّ انه كان علىٰ صلةٍ روحيّةٍ بالإمام ، فتعرّف عليه وأدرك حاجاته . وحتىٰ لو دخل الإمام داخل الغرفة لما عرفته أنت أيضاً . الفارق الوحيد هو انّ عيني لم تكتحل برؤية جماله . وهذا عقاب لي ، ليمتحنَني ويعرّفني علىٰ مدىٰ طاعتي . كان قال لي : لا تنفعل . ولكنّي ما كنت أظنّ أنّه لا ينبغي أن أنفعل حتّىٰ لرفع الحائل بيني وبينه (عليه السلام) ، ولعلّي كنت غافلاً تماماً . ينبغي للإنسان أن يوطّن نفسه علىٰ طاعة الله ، لتنتظم أخلاقه تلقائيّاً ، وتنسجم أعماله من تلقاء نفسها مع تعاليم الإسلام ، فيغدو مسلماً واقعيّاً .

لم نكن نفهم في حينها لِمَ دخل الشيخ الهنديّ الغرفة بكلّ ظلامه ذاك . ولكنّي في السنة التالية ـ حين أقمت في النجف للتحصيل العلميّ ـ رأيت ذلك الشيخ ، وفتحتُ بيني وبينه ، بالتدريج ، صلة تعارف ، فقال لي بنفسه :

كنت فيما مضىٰ سنيّاً وهّابيّاً ، وتظاهرت بين الطلاب بأنّي شيعيّ ، ولكنّي كنت أتجسّس عليهم . ثمّ تعرّفت علىٰ حقائق المذهب الشيعيّ ، وتبت من أعمالي وعقائدي القديمة .

ثمّ انكشف أمره بعد ستة أشهر ، إذ تبيّن أنّه كان ما يزال علىٰ عقائده وأفعاله ، فطُرِد من النجف والعراق . وكان قد قال لي ما قال بهدف خداعيّ ، وبهدف اظهار توبته ممّا انكشف للناس من عقائده .

وقد طمأنني هـذا بأن المـرحوم الحـاج ملّا آقـا جان مـا قال الـذي قال جُزافاً ، وبأنّه كان سليم التصرّف .

وعلىٰ أيّ حال . . فقد بقينا في النجف عدّة أيام ، ذهب خلالها لزيـارة العلماء في النجف . ثمّ ارتحلنا مرّةً أخرىٰ إلىٰ كربلاء حيث مكثنا بضع ليالٍ . ليلة الجمعة كان مبيتنا في الحرم ، فسألته : أتعرف في أيّ مكانٍ يجلس الإمام وليّ العصر (عليه السلام) حين يأتي لزيارة كربلاء ؟

قال : ما هذه الأسئلة ؟! ماذا تقصد ؟!

قلت: أرغب أن أذهب إلىٰ ذلك المكان المقدّس طلباً للبركة .

قال : ليس له مكان مخصوص ، ولكنه يجلس ـ حسب القاعـدة ـ في هذا المكان . وفي تلك اللحظة كنّا قد وصلنا ، في داخل الحرم ، إلىٰ زاويـةٍ خلف جهة الرأس الشـريف شبيهةً بـالمحراب ، تقـع بين القبر المـطهّر لسيّـد الشهداء وقبر عليّ الأكبر (عليهما السلام) .

بعـدئـذٍ . . حين سكنت النجف لـطلب العلم ، كنت ـ أحياناً أقصـد كربلاء ـ أتوجّه إلىٰ هذه الزاوية . وكنت أستفيض من هذه البقعة المقدّسة .

في العشـرين من رجب . . حين رجعت إلىٰ الفندق في كـربلاء لتنـاول الإفطار ، كالعادة ، رأيت الحاج ملّا آقا جان أشدّ ارتياحاً من سائر الأيّام . وفي مثل هذه الأحوال عادةً ما أسأله : أهناك خبرٌ سارٌ جعلك بشوشاً هكذا ؟

قال : نعم . لقد أذِن لي سيّدي أن أبقىٰ في خدمته بكربلاء .

قلت : من حُسْن الصّدف أنّي قد أنست بالحوزة العلميّة في النجف من أجل الدراسة . ستبقىٰ أنت هنا ، وسأكون أنا في النجف ، ولسوف نلتقي كلّ أسبوعٍ .

فـابتسم . . وقال : عصـر هذا اليـوم سأغـادر هـذه الـدنيـا ، وأُدفَن في

كربلاء . وليس بقائي هنا كبقائك في النجف حتىٰ يمكن أن نلتقي كلّ أسبوعٍ .

عندما تحدّث المرحوم الحاج ملاّ آقا جان بمثل هذا الحزم والجزم فلا بدّ أن يكون الأمر جدّاً . تضايقت كثيراً : فمن جهةٍ كانت تشدّني إليه وشيجة محبّة شديدة . ومن جهةٍ أخرىٰ يتحتّم عليّ إذن أن أسافر من العراق إلىٰ إيران بدونه . إلىٰ جوار ما يحمل معنىٰ وفاته في داخل المرء من أسىً كبير . خنقتني العبرة . . فنهضتُ من مكاني ، وقلتُ له : إذاً أنا سيّدٌ حقّاً . . فلن أدعك تظلّ في كربلاء ! وتوجّهت فوراً إلىٰ الحرم المطهّر لسيّد الشهداء (عليه السلام) . لشدّ ما بكيت ، وأنا أطلب إطالة عمره . . حتّىٰ سمعت أذان الظهر قد ارتفع ، فاطمأنّ قلبي إلىٰ أنّي قد أدركتُ بُغيتي .

عدتُ إلىٰ الفندق ، حيث كان الحاج ملاّ آقا جان قاعداً في زاوية الغرفة وعليه أماراتُ الحزن . بعد ردّ سلامي قال لي : فعلتَ فعلتك يا سيّد ؟! عَليّ أن أظلّ سنةً أخرىٰ في هذا السجن المأهول بأوجاع الدنيا وآلامها ، تحت الأشغال الشاقّة ، بعيداً عن مواليّ وساداتي . . كلّ ذلك من أجلك ؟! فلماذا فعلتَ هذا . . فجعلتني أُدفن في زنجان بدل كربلاء ؟! والذي أريد أن أقوله أنّه استاء كثيراً . ولكنّي ــ إذ بلغت مرادي ــ كنت شديد السرور .

نعم ، إنّ أحوال أولياء الله عجيبة ، إلىٰ حدّ أنّه (رحمه الله) قد توفّي في السنة التالية عصر اليوم العشرين من رجب . وكان قُبَيْلَها برفقة أحد أصدقائه في صحّةٍ وعافيةٍ إذ قال له : عصر هذا اليوم أنا مغادرٌ ، وسيحلّ بي الموت . لقد غادر الدنيا (رحمة الله عليه) بالسكتة القلبيّة بعد سنةٍ تماماً من ذلك اليوم الذي كان مقرّراً أن يرحل فيه عن الدنيا في كربلاء ، أي في اليوم العشرين من شهر رجب .

وعلىٰ أيّ حالٍ . . فقد مكثنا أيّاماً في كربلاء ، ثم ذهبنا إلىٰ سامرّاء .

كان للحاج ملاّ آقا جان في سامرّاء نشاطٌ خاصّ . كان يقول : هنا بيت

مولاي صاحب الأمر . هنا موضع ينبغي أن تكتحل فيه عيناي برؤية مولاي صاحب الأمر (عليه السلام) .

أقمنا في سامرّاء عدّة أيام . . في عذوبةٍ روحيّةٍ . في إحدىٰ لياليها كنّا في منزل المرحوم الشيخ كُمَيْليّ . أغفىٰ رفقائي ، ولكنّي بقيتُ أرقاً . فشاهدتُ ـ علىٰ حين غرّة ـ كأنّما عشرات المصابيح من ذوات (الألف واط) مضاءة في فناء المنزل ، وقد غمر الفضاء كلّه نورٌ أبيضُ ، وخوطبت : إذا كانت بك رغبة أن تلتقي بالإمام وليّ العصر (عليه السلام) ، فاخرج من الغرفة ، لكي تفوز بزيارة الإمام (عليه السلام) .

حين سمعت هذه الكلمات . . شعرت بعَرَقٍ باردٍ في كلّ بدني ، ولم ينطلق لساني ، وما عادت لي قدرة علىٰ الحركة ، فلم أكن أقوىٰ علىٰ النهوض . وبقيتُ أنظر من خلال النافذة . . حتّىٰ بدأ النور يتوارىٰ شيئاً فشيئاً ، ثمّ غمرني النوم . كتمت هذا الموضوع عن صحبي ، وكتمته حتىٰ عن الحاج ملّا آقا جان . وإذا أردتَ الحقيقة فانّي حين استيقظتُ في الصباح كنتُ أحسب أنّ ما رأيته كان رؤيا ، فلم أعِرْه اهتماماً . . حتّىٰ سهوت عنه .

وفي اليوم الذي عزمنا فيه علىٰ السفر إلىٰ إيران ، قلت للحاج ملّا آقا جان : ما دمنا لم نَحْظَ برؤية الإمام وليّ العصر (عليه السلام) في هذه السفرة وفي هذه البقاع المشرّفة . . فاننا لن نسافر إلىٰ إيران . وإذا أصررت علىٰ هذه المسألة كثيراً ، فانه انتحىٰ بي جانباً ، وقال :

ـ لقد بلغتك فيوضات لم يوفّق إليها رفاقك .

قلت : أين ؟

قال : أحدها في مسجد السّهلة . والآخر في سامرّاء . في منتصف تلك الليلة لماذا لم تَقُم ، ولم تذهب إلىٰ لقاء الإمام (عليه السلام) ؟ أمَا دُعيتَ إلىٰ ذلك ؟

قلتُ : أوَ كنتُ مستيقظاً ؟!

قال : وهل كنتَ نائماً ؟!

سألتُه : وكيف اطّلعتَ علىٰ الموضوع ؟

قال : كنت أنا مستيقظاً أيضاً ، وتوفّقت لزيارته (عليه السلام) . ثمّ قال لي : لماذا تقابل نِعَم الله بالكفران ؟ لقد تُلُطِّف بك في هذه السفرة ألطافاً كثيرةً .

ثمّ إنه سرد عليّ كثيراً من النعم الإلٰهية التي غمرتني . . حتىٰ اقتنعتُ بالسفر إلىٰ إيران .

وحين وصلنا إلىٰ قم علمنا أنّ الشائع هناك أنّ الحاج ملاّ آقا جان قد توفّي في كربلاء ، وحتىٰ انّ بعض الأعلام كان قد أقام مجلس الفاتحة علىٰ روحه .

وعلىٰ كلّ حالٍ . . فانّ الحاج ملاّ آقا جان ذهب علىٰ عجلٍ من قم إلىٰ زنجان . وبقيتُ في قم طلباً للعلم . بَيْد أنّ ما في حوزة النجف في ذلك الوقت من دفءٍ لذيذٍ أرغمني علىٰ تهيئة مقدمات السفر للإقامة هناك . وما مرّ على مكوثي في قم إلا شهران حتى ذهبت إلى زنجان ، لزيارة استاذي وللاستئذان منه في السفر إلىٰ النجف .

بقيت معه عدّة أيّام ، شاهدت خلالها كرامةً من كراماته . . يتّصل طرف منها بما قبل وفاته . ويتّصل الطرف الآخر بما بعد الوفاة . وأراني مضطرّاً لأروي ما وقع :

في هذه السفرة رأيتُ أنّ لدىٰ الحاج ملاّ آقا جان صندوقاً صغيراً ، كان يخفي عنّي ما في داخله . وحَدَث مرّةً أن دخلت عليه في الغرفة . وما ان رآني داخلاً حتّىٰ بادر بعجلة فأغلق الصّندوق الصغير .

ووفق قاعدة (الإنسان حريض علىٰ ما مُنِع) . . تولّدت فيّ رغبة قويّة

لمشاهدة ما في الصندوق ، ولكنّي لم أستطع ـ بأيّ نحو ـ أن أنطق بكلمةٍ واحدةٍ .

في أحد الأيام دخلت الغرفة . كان الحاج ملّا آقا جان في غرفةٍ أخرىٰ . وكان الصندوق مفتوحاً . ثمّة كرّاس مفتوح قد وُضع فوق سائر مكتوباته . لم أمسّ الصندوق ولا الكرّاس ، ولكنّي قرأت في الكرّاس وهو علىٰ حاله . موضوع ذلك الكرّاس كان شرحاً لمكاشفة قد وقعت له في اليوم الثالث عشر من شهر رجب . وكانت بدايتها ما كتبه :

« صباح الثالث عشر من رجب الذي يوافق يوم ولادة الإمام أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) ، كنت أُصلّي في أولىٰ ساعات النهار ـ وهي الساعة المخصوصة بالإمام (عليه السلام) ـ صلاة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) . قرأت في الركعة الأولىٰ بعد الحمد « قُلْ هو الله أحد » خمسين مرّة . وفي الركعة الثانية قرأت « قُلْ هو الله أحد » بعد الحمد خمسين مرّة أيضاً . وفي القنوت تشرّفت بزيارة جمال عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، ووعدني أن يعطيني اثني عشر شيئاً كعيديّة . وقال : أوضح لك هذه الأشياء الاثني عشر بعد إتمام الصلاة . ثمّ صلّيتُ الركعتين الأُخريين من صلاة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) علىٰ هذا الترتيب أيضاً . . . » .

وحين بلغت في القراءة بالكراس إلىٰ هذا الموضع . . دخل الحاج ملّا آقا جان الغرفة ، فأغلق الصندوق علىٰ الفور ، ولم يَدَعْني أقرأ بقيّة ما حدث له في المكاشفة .

حاولت أن يأذن لي بقراءة بقيّة الموضوع . . ولكنّه لم يفعل . وحين وجدني شديد الإلحاح قال لي : يصل إليك هذا الكرّاس بعد موتي ، وتستطيع وقتئذٍ أن تقرأ الموضوع جيّداً .

لقد حَسَم القضيّة ، فلم يعد ثمّة مسوّغ للإلحاح . . فتركت الموضوع ،

وربما قد نسيته بعدئذٍ . ومرّت سنوات بعد وفاته لم أستطع خلالها أن أذهب إلىٰ زنجان وأرىٰ مكانه هناك خالياً منه . وبعد مُضيّ أربع عشرة سنة علىٰ وفاته كنت قد نسيت موضوع الكرّاس ، وربما نسيت أكثر القضايا التي وقعت بيني وبينه .

في طريق سفرة لي إلىٰ آذربايجان . . ذهبت إلىٰ زنجان ، فزرت منزل أبناء المرحوم ، وطلبت من ولده الكبير (محمد عتيق) ــ الذي كان من المدرّسين المحترمين في زنجان ــ أن يدفع إليّ ما كان للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان من أشياءٍ مدوّنةٍ أو كتابات ـ إذا كانت ما تزال ـ للإستفادة منها .

فقال في جوابه : كلّ ما كان من كتابات المرحوم جمعها أحد علماء طهران وأخذها ، ولم يبق لدينا منها شيء . في هذه السفرة خرجت من زنجان خالي الوفاض ، ولكنّي ذهبت في السنة التي أعقبت تلك إلىٰ زنجان مرّةً أخرىٰ ، لرؤية أبناء المرحوم ، وقصدت منزل ولده (محمّد عتيق) . عندها قال لي : إذا كنت تتذكّر . . فانك قد طلبت منّي في العام الماضي أن أدفع إليك مكتوبات المرحوم الحاج ملاّ آقا جان ، وظلّ هذا الموضوع عالقاً في بالي . وحين انتقلنا من منزلنا رأيت كرّاساً واقعاً خلف الصناديق ، فتناولته واحتفظت به إليك . ومن المدهش أنّه حين وضع الكرّاس في يدي ، وفتحته . . فقد انفتح علىٰ نفس تلك الصفحة التي قرأت فيها ، يوم كان الكرّاس في الصندوق المفتوح . وحين وقع نظري علىٰ تلك الصفحة . . تذكّرت دفعةً واحدةً كلّ تلك الحادثة ، كما لو أنّ ستارة سينما قد رُفعتْ من أمامي فجأةً ، فقرأت بقية المكاشفة بعد خمسة عشر عاماً . وكم كان حسناً أنّي لم أقرأ في ذلك الزمان الحكاية كلّها حتّىٰ الختام ! لأنّ في هذه المكاشفة ألطافاً بهذا الرجل الكبير ، بحيث لو أنـي اطّلعت عليها في حينها فلربّما ما استطعت أن أفارقه ولا لحظةً واحدةً ، ولكنت قد هجرت الدراسة والعيش . وإذ كانت تلك آخر سنوات حياته فانّ فقدانه يكون قاتلاً لي ، أو يجعلني أنطوي علىٰ نفسي وأنزوي عن الحياة

الإجتماعيّة . . إلىٰ جوار أنّ عمري واستعدادي آنذاك كانا غير مؤهّلين لتحمّل قضايا من هذا النوع . وهذا المعنىٰ الأخير هو الذي يجعلني أعـرض عن سرد بقيّة موضوع المكاشفة هنا ، فلربما يكون الموضوع ثقيلاً علىٰ بعض القرّاء .

عود على ما بقي من سيرته

قلت إني ذهبت إلىٰ زنجان بعد شهرين من سفرتنـا إلىٰ العراق . وثمـة حادثة يتّصل سياقها بما بعد وفاة المرحوم .

وخلاصتها أني لبثت بضعـة أيام في زنجـان ، ولـم أكن أدري أن ذلـك سيكون آخر لقاء لي به . استأذنت منه للسفر إلىٰ العراق ، فأذن لي . وبعد أيّام توجّهت إلىٰ العراق ، حيث كانت تصل إليّ منه رسالة في كلّ أسبوعٍ تقريباً ، كان ينظّم لي خلالها أمور عملي ودراستي وحياتي . واستمرّ الحال كـذلك . . حتّىٰ وصل إليّ يوماً سيل من برقيّات التعـازي قلبت حالي رأسـاً علىٰ عقبٍ . البرقيات كـانت تخبر بمـوته . . ذلـك أنّ أغلب أصدقـائه يعلمـون أنه لـم يكن للحاج ملّا آقا جان صديق أكثر مودّة منّي .

وقد علمت أنّه غادر الدنيـا بالسكتـة القلبيّة في نفس اليـوم العشرين من رجب ، بعد سنةٍ واحدةٍ لم تتأخر ساعةً ولـم تتقدّم ساعةً ؛ فقد توفي في زنجان في نفس اليوم ونفس الساعة التي كان مقرّراً في العام الماضي أن يودّع فيها دار الفناء في مدينة كربلاء (رحمة الله عليه) .

وقائع ما بعد الوفاة

كان اليوم يوم جمعة لمّـا أقمنا في منـزلنا ، بـالنجف الأشرف ، مجلس الفاتحة للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان . وكـان العلماء والفضـلاء يتوافـدون إلىٰ مجلس الفاتحة . وجاء ــ فيمن جاء ــ السيّد مرتضىٰ الواعظي السبزواريّ أحد علماء مشهد الأجلاّء الذي كان علىٰ صداقةٍ وثيقةٍ بالمرحـوم . . وكان قـد أقام زماناً في كربلاء . وخلال مجيئه إلىٰ النجف كان يأتي إلىٰ منـزلنا . جلس في مجلس الفاتحة . . وسأل : الفاتحة . . لمن ؟

قلت له : بكلّ أسف . . وصل إلينا خبرٌ من إيران أن صديقك الحاج ملاّ آقا جان قد توفي ، ومجلس الفاتحة هذا له .

ولكنّه قال : خبرٌ مكذوبٌ ! البارحة ــ ليلة الجمعة ــ رأيته في الصحن الطاهر لسيّد الشهداء (عليه السلام) ، وبقيت مدّةً أتحدّث معه !

قلت : لا بدّ أنكم قد توهّمتم ؛ فهذه البرقيّات وصلت إلينا من المقرّبين إليه ، ولا بدّ أنّه قد توفّي حقّاً .

بَيْدَ أنّ هذا السيّد لم يصدّق . وإذ كنّا علىٰ هذا الحال من الأخذ والردّ . . حَدَثَ ما جعلنا جميعاً أمام الحقيقة وجهاً لوجـه : لقد دخـل الحاج مصطفىٰ القائميّ أحد أصدقاء المرحوم ، وكان قد جاء من إيران ، فقال قبل أن نخبـره

بشيءٍ : الليلة الماضية كنت في كربلاء ، ولمّا كنت في طريق الخروج من الصحن الطاهر لسيّد الشهداء (عليه السلام) انتابتني الدّهشة وأنا أرىٰ الحاج ملاّ آقا جان يدخل الصحن ! مع أنّه كان قد توفّي عندما كنت في إيران . وحين دنوت منه لأحتضنه وأعانقه . . انساب منّي كما ينساب النسيم . . ثمّ غاب !

حينئذٍ سأله السيّد مرتضىٰ الواعظيّ : في أيّ ساعة كان هذا ؟ فأخبره بالوقت الذي رآه فيه . فقال السيّد الواعظيّ : أنا أيضاً رأيته في الصحن في نفس الوقت . . ثمّ قال : عجيب ! من الممكن أن تكون تلك روح هذا الرجل العظيم . لقد قال لي الحاج ملاّ آقا جان لمّا رأيته في الصحن : جئت هذه الليلة لأزور وأرجع ؛ لأنّي قد حصلت في زنجان علىٰ منزلٍ جديدٍ . . وعليّ أن أعود سريعاً . ولكنّه عند ما ودّعني . . مرّ سريعاً ، حتّىٰ انّي ما استطعت رؤية ظهره وهو ذاهب .

وبعد بحثٍ من هنا وهناك حول هذه المسألة توصّلنا إلىٰ حقيقةٍ مفادها أنّ الأرواح القويّة تقدر ــ بعد الموت ــ أن تعود إلىٰ الدنيا وأن تظهر للآخرين . كما كانت في الحياة الدنيا .

* * *

كنت ذكرت فيما مضىٰ أنّ المرحوم ملاّ آقا جان كان يبعث لي ــ حين فارقته رسالةً في كلّ أسبوعٍ علىٰ نحوٍ متوسّطٍ . . يرشدني فيها ويدلّني . وما زلت أحتفظ بأكثر رسائله . وأودّ هنا أن أورد نموذجاً واحداً من رسائله . وقد أعرضت عن دَرْج المزيد من رسائله بغية صون القاريء الذي لا يعرف أفكار الحاج ملاّ آقا جان أن تذهب به التصورات إلىٰ الأوهام . . ذلك أنّ المرحوم كان يُظهر لي ــ باعتباري سيّداً ــ من المودّة والمحبّة في أكثر رسائله ما

ربّمـا لا يسيغه غيـر العارف بـه . ولكني أورد هنا رسـالة واحدة هي آخر ما وصل إليّ منـه ، وقد وصلت إليّ بعـد أيّام من وفاته . . ولعلّه (رحمه الله) كان كتبها قبل وفاتـه بيوم واحدٍ . وأنا أورد من نصّ الرسالة الأخيـرة ما أجـده مفيداً للقارىء .

الرسالة الأخيرة

نفسي الفداء للسيّد الأبطحيّ . . وفّقه الله تعالىٰ .

فراقك أضناني ، خاصةً وأنّي أدري أنّ لقاءاتنا القادمة ستكون في القيامة ، ولن نلتقي بعد الآن في هذه الدنيا . . إلّا في الرجعة إن شاء الله .

أُوصيك بتقوىٰ الله ، كما كان جدّك أمير المؤمنين (عليه السلام) يوصي الناس وأبناءه باستمرارٍ .

إسْعَ لتكون فقيهاً في الدين .

وسيُجْري الله علىٰ يديك أعمالاً في طريقٍ تقدّم الدين المبين . . بحيث انك أنت نفسك ستندهش . وربّما ــ لا قدرّ الله ــ يصيبك الغرور ، ولكن ينبغي أن تعلم أنْ لو دخل في الدين المقدّس علىٰ يديك الآلاف . . فلست أنت الذي هديتهم ، ﴿ولكنّ الله يَهْدي مَنْ يشاء﴾ .

ستكون لك حياة طيّبة .

أنت الشخص الوحيد الذي عرفني إلىٰ حدٍّ ، فلا تُفْشِ أسراري لغير أهلها ، وتصوّر أنّ « محموداً » ما يزال علىٰ قيد الحياة . . إلّا إذا وجدت مصلحة في ذكر هذه الأسرار .

(وهنا ذكر لي هذا الرجل الكبير ـ في رسالته ـ قضايا شخصيّة ، ترتبط بمستقبلي . . ولا أجد ضرورةً إلىٰ بيانها) .

حاول بكلّ ما تستطيع ألاّ تفكّ كفّ التوسّل من حُجْزة الإمام بقيّة الله ؛ فانّ السعادة تتلخّص في هذا التوسّل .

ولتحترمْ معلّميك والأساتذة والعلماء . . خاصّة مراجع التقليد ، وقد قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) : (مَنْ علّمني حَرْفاً . . فقد صَيّرني عَبْداً) .

لا تعتمد علىٰ الدراويش والمتصوّفة. ولا تَنْسَ أنّ الإمام العسكريّ (عليه السلام) قد قال : « علماؤهم شِرارُ خَلْق الله علىٰ وجه الأرض ؛ لأنّهم يميلون إلىٰ الفلسفة والتصوّف » .

الفلسفة القديمة آفة الدين والدنيا . وإذا أردت الإطّلاع علىٰ الفلسفة فاستفد أكثر من الفلسفة الحديثة .

الطريقة الوهّابيّة إذا تلبّست باسم التشيّع . . أشدّ مخرّب لعقائدك . وحاذر صداقة الذين يعتقدون بعقائد الوهّابيين .

لا تنسني من دعائك ، وآدْعُ لي بالمغفرة .

والسلام . فاديك : محمود المجنون[1]

* * *

(١) لقب كان الحاج ملاّ آقا جان يلقّب به تعبيراً عن انجذابه بالعشق الحقيقي المعنويّ . ولعلّ هذا اللقب مشتقّ من لقب (المجنون) لقيس بن الملوّح الذي استبدّ به العشق لـ (ليلىٰ) .

عندما كان المرحوم الحاج ملاّ آقا جان يذهب إلىٰ طهران . . ما كان ينزل في بيت أحد ـ مع كثرة أصدقائه ـ إلاّ في بيت الحاج الميرزا أبو القاسم المعروف بـ (العطّار) . . وهناك يصعد المنبر ويعظ محبّيه . كان (العطّار) من الأوتاد ، ومن المخلصين في مودّتهم لأهل بيت العصمة (عليهم السلام) . وكان ما يفتأ ـ طول عمره ـ يتوسّل بأذيال كرم المعصومين ، خاصة الإمام سيّد الشهداء أبي عبدالله الحسين (عليه السلام) . ومن يعرف هذا الرجل الكبير يعلم مدىٰ حبّه وارتباطه بالأئمة الأطهار (عليهم السلام) .

وقد تحدّث هذا الرجل العظيم ، فقال :

في اللحظة التي توفّي فيها الحاج ملاّ آقا جان بزنجان ـ ولم أكن قد عرفت ذلك من أيّ طريقٍ ـ كنت في غرفتي للإستراحة ، وربّما كان بي شيءٌ من الحمّىٰ . وفجأةً رأيت الإمام بقيّة الله (عليه السلام) والحاج ملاّ آقا جان . . جالسين في غرفتي . كان الحاج ملاّ آقا جان يتحدّث مع الإمام ، ويقدّم له تقريراً عن حياته ، ويقول : قضيت عمراً في رياضة النفس . وكان الإمام (عليه السلام) يصدّق قوله ، ويعدّ حياة الحاج ملاّ آقا جان حياةً صحيحةً مَرْضيّةً عند الله (تعالىٰ) .

وفجأةً حدث ما لا أستطيع وصفه بدقّةٍ : رأيت كأنّ أعمال أئمة الهدىٰ (عليهم السلام) وأعمال الحاج ملاّ آقا جان صارت واحدةً ، لا فرق بينهما .

(في تفسير هذه العبارة لا بدّ من القول إنّ المرحوم الحاج ملاّ آقا جان في أيّام حياته قد قال وهو يوضّح معنىٰ « الصراط المستقيم » : كلّما كانت أفعالك وأقوالك

ومناهج مساعيك أكثر انطباقاً علىٰ أفعال وأقوال ومناهج أئمة الدين . . كنتَ أقرب إلىٰ الصراط المستقيم . وإذا كانت أعمالك وتصرّفاتك يصدّقها الدين وأئمة الإسلام تصديقاً كاملاً ــ ولا تخالف حتّىٰ في أقلّ الأعمال شأناً ــ فإنّك تغدو مسلماً واقعيّاً) .

ومهما كان . . فانّ الحاج الميرزا أبو القاسم قد تابع قائلاً : ثمّ عُدْت بغتة إلىٰ سابق حالتي ، ووجدتُني جالساً في الغرفة ، وليس معي من أحد . لم أفهم في وقتها معنىٰ هذه المشاهدة ، أي أنّي لم أكن أدري ماذا كانت حالة الحاج ملّا آقا جان في تلك اللحظة . ولكنّي عرفت في اليوم التالي أنّ الحاج ملّا آقا جان قد فارق الدنيا في نفس تلك الساعة ، وكان ذلك أوّل لقاء له بأئمّته وسادته . . ثمّ أقمنا مجلس فاتحة علىٰ روحه (رحمة الله عليه) .

كان المرحوم الشيخ برهان أحد علماء أهل المعنىٰ الأخيار في طهران . . وكانت له علاقة بالمرحوم الحاج ملّا آقا جان ، فأقام مجلس فاتحة في مسجده المعروف باسم مسجد « لرزاده » . وفي هذا المجلس صعد المنبر أحد الوُعّاظ من أهل المعنىٰ ، فأعطوه قصاصة ورق يعرّفونه فيها بمن أُقيمت الفاتحة علىٰ روحه ، لكي يتحدّث عنه ــ إذا تحدّث ــ بما يناسب . ولكنه قال وهو علىٰ المنبر :

إنّي لأعجب لكم إذ تقصدون تعريفي به . . وأنا نفسي قد شاهدت كرامة من كراماته . . أذكرها لكم ، لتكونوا علىٰ معرفةٍ أكثر بعظمة هذا الرجل الروحيّة .

كنت قد بِتُّ ــ إحدىٰ ليالي الجمعات ــ في حرم الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) . وكنت أترقّب أذان الفجر ، وما معي ساعةٌ . . فسألت الحاج ملّا آقا جان : هل طلع الفجر ؟ فأشار بيده ، وقال : أُنظرْ إلىٰ ملائكة الصبح يهبطون ، وملائكة الليل يعرجون !

لم يَقُل هذا الرجل على المنبر ما رأىٰ هو في تلك اللحظة ، ولكنه أقسم بالله قائلاً : قسماً بالله لقد كان يرىٰ .

وحين تفحّصت الوقت . . وجدت أنّ الفجر قد طلع في تلك اللحظة ، وعلا صوت المؤذّن .

* * *

كانت تلك حكاية أذكرها من حكايات رجل متألّه .

وفي الختام . . أودّ ألّا ينظر القارىء إلىٰ هذه الحوادث علىٰ أنّها وقعت كما ذكرتُ تماماً وبكلّ حذافيرها ، ذلك أنّي قد دوّنت في هذا الكتاب ما أذكره من سيرة المرحوم الحاج ملّا آقا جان ممّا في وسع القرّاء هضمه وقبوله . وأملي أن يكون هدفي من وراء تأليف هذا الكتاب هدفاً عمليّاً . وأملي من الأصدقاء والمعارف أن يدعو لأستاذي الجليل بالرحمة والمغفرة ، وأن يطلبوا له ولنا المزيد من التوفيق في خطواتنا علىٰ الصراط المستقيم .

إلىٰ هنا يكون الكتاب قد اكتمل ، وتمّ إعداد مقدّمات الطبع الأوّليّة . ولكنّي أودّ أن أضيف ملزمةً واحدةً إلى الكتاب ، هي هذه :

ليلة الأحد العاشر من صفر عام (١٤٠٠هـ) سافرت من مشهد إلىٰ قم ، لزيارة السيّدة المعصومة (عليها السلام) . وهناك تذكّرت أنّ في قم صديقاً للمرحوم الحاج ملّا آقا جان ، كان من علماء أهل المعنىٰ ، وكان يودّه ودّاً خاصاً ، وهو يُعَدّ من تلاميذ المرحوم الحاج ملّا آقا جان . وعندما كنت فيما مضىٰ أدرس في قم كانت تربطني به رابطة قوية ، رغم أنّه شديد الكتمان ، فلا يكشف شيئاً ممّا عنده . ولكنّ المرء يتفطن ــ من خلال حركات هذا الرجل ومن خلال وضعه إلىٰ أنّه كان متوجّهاً تلقاء عالَم آخر . علىٰ أيّ حالٍ . . ذهبت إلىٰ منزله ، لعلّي أستطيع أن أسأله عن شيءٍ من سيرة المرحوم الحاج ملّا آقا جان ، لا من أجل تدوينها في هذا الكتاب ، وانما كنت أريدها لنفسي . . فعسىٰ أن

يتجدّد لي ـ بذكر ذلك المرحوم ـ توجّه إلىٰ الله وإلىٰ المعارف الحقّ . ولكن ـ يا للأسف ـ حين طرقت باب المنـزل ، وكلّمتني زوجته المعـظّمة من وراء الباب حين سألتها : هل الحاج موجود ؟

قالت : سيّد . . أما لديك خبر ؟!

قلت : وماذا حصل ؟!

قالت : لقد توفّي قبل أكثر من سنةٍ . وتمنّيتُ لو كنتَ موجوداً لترىٰ كيف فارق الدنيا .

طلبت منها موعداً ، لأسألها أكثر عن حالات هذا العالم الجليل ، فكان الموعد في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي .

حين ذهبت إلىٰ منـزل هذه المـرأة المعظّمـة . . أعـطتني أوّلاً مصحفـه الخاصّ الذي كان يسجّل خلفه تواريخ ولادات أبنائه وبعض الوقائع .

أمّا أنا فقـد أُلهمت علىٰ حين غرّة أن أتفـاءل بهذا القـرآن ، لأرىٰ ذلك المرحوم في أية حالة هو الآن . فتحت المصحف ، فكانت هذه الآية مكتوبـة في أوّل الصفحة :

﴿تلك الجنّة التي نُورث من عِبادِنا مَنْ كان تَقِيّاً﴾

(سورة مريم ، الآية ٦٤)

دُهِشت . . لأنّ اسم المرحوم هو « تقي » . وربّما ليس في القرآن كلّه آية أنسب للموضوع من هذه الآية . ومن المعلوم أنّ « تقيّاً » في الآية هي وصف ، أي كان رجلاً تقيّاً ، ولكنه كان تفاؤلاً منـاسباً يـطابق اسم المرحـوم . وعندمـا ذكرت لزوجته الآية والموضوع قـالت أقسم بالله أنّ روحـه الآن هنا . من وقت وفاته فانه يعطيني كلّ ما أردت .

بعدئذٍ ابتدأت مقابلتي مع زوجته وأحد أولاده ، واسمه (باقر زرگر) .

سألت : بأي مرض توفّي ؟

قالت زوجته : الأطبّاء كانوا يقولون إنه مصاب بسرطان الأمعاء . . فعولج في المستشفىٰ (النجميّة) بطهران ، وأجريت له عمليّة جراحيّة ، ثمّ توفّي بعد أيّام . وكان المرحوم يقول قبل أربع أو خمس سنوات : سوف أموت وأنا في السادسة والستين من عمري . وكان أذاه الأخير بسبب تأخّر موعد وفاته عدّة أشهر .

قلت : كنتِ زوجة هذا الرجل الكبير . وإذ كان يكتم مسائله وقضاياه ، فليس لدينا اطّلاع دقيق علىٰ حالاته . لكنّ الإنسان ـ مهما كان كتوماً ـ لا يمكن أن يخفي كلّ حالاته تماماً عن زوجته وولده . . ولهذا أطلب منك أن تذكري لي ما رأيته من قضاياه أو ما عرفته .

قالت : أشياء كثيرة طلب منّي ألّا أذكرها لأحدٍ . وأظنّ أنّه لا يرضى ـ حتىٰ بعد وفاته ـ أن أذكرها . . فلماذا أؤذي روحه ؟ ولكن بعض القضايا والمسائل لا أظنّ من اللاّزم أن تظلّ مطويّةً ، ولهذا فإني أذكرها لك إذا كنت تميل إلىٰ ذلك . ثمّ واصلت كلامها ، فقالت :

منذ ثلاثين سنة هو مصاب بقرحةٍ في المعدة ، ووجعٍ مزمنٍ في القلب . وفي السنة الأخيرة تحسّنت حالته ، ولكنّ مرضه عاوده بشدّةٍ قبل أيّام من حلول شهر رمضان الأخير من حياته ، أي شهر رمضان سنة (١٣٩٨هـ) . راجع الطبيب ، فكتب له أدوية يتناولها . كان عليه ألا يصوم ، ولهذا فقد هيّأت في الليلة الأولىٰ من شهر رمضان طعاماً للسّحور بالمقدار الذي يكفيني وحدي . وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أفقت من النوم ، فرأيته في حالة مناجاةٍ لله كانت له فيها مع الله أسرار وحاجات . ولكنّه كان متهيّئاً لتناول طعام السّحور .

قلت : أليس من المقرّر ألّا تصوم ؟

قال : رأيت في المنام خمسة أشخاص من العلماء والسادة ، قد جاءوا

إلىٰ منزلنا . تعرّفت علىٰ أحدهم ، وهو المرحوم آية الله العظمىٰ البروجُرْوديّ . قال لي : سترحل هذه السنة عن الدنيا ، وشهر رمضان هذا هو آخر عمرك . الصّوم لا يضرّك ، وبإمكانك أن تصوم . فصام . . وكانت حالته تتحسّن .

في منتصف الليلة السادسة عشر من شهر رمضان ، استيقظت من النوم علىٰ صوت بكائه ومناجاته ، وكان عطرٌ عجيبٌ يغمر جوّ الغرفة .

سألته : ماذا حدث ؟

قال : لا أدري ما الخبر ! لقد كان هنا الإمام بقيّة الله (روحي له الفداء) ، وجلست إليه مدّةً . والآن ، إذ ذهب . . آلمني فراقه .

قلت : ولماذا لم توقظني ؟

قال : الإمام قال لي : دعها نائمةً .

قلت : وهل جرىٰ بينكما كلام ؟

قال : سألت الإمام أسئلةً ، فتفضّل بالجواب عنها ، ولكنّي لا أستطيع أن أخبرك بكلّ تلك الأسئلة .

قلت : قل ما تستطيع قوله .

قال : سألت الإمام عن أوضاع البلاد ، فقال : المَلِك سوف يُوَلّي ، وسوف يسقط نظامه ، والفَرَج قريبٌ . (في مثل ذلك اليوم لم يكن أحد من الناس يتوقّع أنّ ملكاً قويّاً مثل الشاه سوف يسقط) .

قلت : هل طلبت من الإمام شفاء لمرضك ؟

قال : كان ينبغي أن أغادر الدنيا ، ولكنّي تأخّرت بضعة أشهر .

ثمّ تابع . . فقال : سألت الإمام بقيّة الله : كيف أستطيع لُقياك ؟

فقال : أنا معك دائماً ، تستطيع أن تراني كلّما شئت .

علىٰ أيّ حالٍ . . تصرّمت تلك الليلة . ومن وقتها فصاعداً تغيّر حال المرحوم الحاج الميرزا تقي (رحمة الله عليه) . كان في ارتياحٍ ، ولكنّ شدّة القلق كانت ظاهرةً علىٰ كلامه وعلىٰ ملامحه . وربّما كان قلقه حول العبور إلىٰ العالم الآخر شوقاً إلىٰ لقاء الله .

في كلّ الأيام التي صامها من شهر رمضان ــ وكانت نهاراتها صيفيّةً طويلةً ــ لم يظهر عليه أدنىٰ أثر لأيّ ألمٍ . ولم يعلم أحدٌ من الناس بمرضه إلّا عندما ذهب إلىٰ المستشفىٰ لاجراء العمليّة .

سألتها : هل كان يعطيك تعليمات لتزكية الروح ولطيّ المراحل الروحيّة العالية ؟

قالت : نعم ، كان يؤكّد عليّ كثيراً أن أزور الإمام بقيّة الله (عليه السلام) بزيارة (آل يٰس) المذكورة في كتاب : مفاتيح الجنان . . كلّ يوم مرّة في الأقلّ ، وبزيارة (آل يٰس) الثانية (المذكورة في كتاب بحار الأنوار ١٠٢ : ٩٢) . ولكنّي ما كنت قادرة علىٰ قراءة تلك الزيارة علىٰ نحو صحيحٍ ؛ لأنّ النصّ في الكتاب غير مشكول . ولهذا سجّل هذه الزيارة بصوته في شريطٍ بلفظٍ صحيحٍ . وكنت أنا أقرأ بقراءته في الشريط .

وقال لي : اقرئي سورة الفاتحة كلّ يوم مئة مرّةً .

وأكثِري من قول : « يا مولاتي يا فاطمة أغيثيني » .

وقُولي كلّ يوم هذا الذكر سبع مرّات : « بسم الله وبالله ، توكّلتُ علىٰ الله ، لا حولَ ولا قوّةَ إلّا الله ، أستغفر الله » .

سألتها : ما هي الأعمال التي كان المرحوم الحاج الميرزا تقي التبريزي ملتزماً بها أكثر من سواها ؟

قالت : كان يستيقظ كلّ ليلة بعد الساعة الثانية من منتصف الليل ، ويبادر

إلىٰ صلاة الليل . كان علىٰ وضوءٍ دائماً . وكلّ يوم يقرأ سورة الفاتحة مئة مرّةً .

كان شديد الكتمان ، وكان يُخفي عنّا أكثر حالاته .

كان ملتزماً قبل ظهر كلّ يوم بالذهاب إلىٰ أحد مساجد قم ، ليشتغل بالذكر والتوسّل بالإمام بقيّة الله (عليه السلام) . . ساعةً أو ساعتين .

قلت لها : القصّة المعروفة عنه (ثم ذكرت لها القصّة ، وقلت :) هل سمعتِ بها أيضاً ؟

قالت : نعم ، لقد نقلها هو لي علىٰ هذا النحو تقريباً .

(وهذه هي الواقعة)

كان الطريق من قم إلىٰ مسجد جمكران يمرّ ، فيما مضىٰ ، بمرقد عليّ بن جعفر (عليهما السلام) . وكانت في طرف المدينة طاحونةٌ حولها عددٌ من الشجر . وكان الجوّ هناك علىٰ جانبٍ من اللّطافة ، فهذا المكان كان ملتقىً لعشّاق الإمام بقيّة الله (عليه السلام) ، إذ يجتمع فيه صباح كلّ خميسٍ عددٌ من أصدقاء المرحوم الحاج ملاّ آقا جان ، ليذهبوا جميعاً إلىٰ مسجد جمكران . في صباح أحد أيّام الخميس كان أوّل من وصل إلىٰ المكان المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الميرزا تقي زرگري . وكان في حالةٍ روحيّةٍ عذبةٍ إذ قال في نفسه : إذا انتظرت حتىٰ يصل أصدقائي فلربّما لا أستطيع أن أحافظ علىٰ حالة التوجّه الروحيّ هذه . ولهذا سار بمفرده صوب مسجد جمكران . ومن وفرة استئناسه الروحيّ أنّه لم يفطن إلىٰ وجود عدد من طلبة العلوم الدينية الذين لَقَوه في الطريق وهم عائدون إلىٰ قم من مسجد جمكران بعد الزيارة .

أصدقاؤه الذين وصلوا إلىٰ المكان قرب الطاحونة ظنّوا أنّ الميرزا تقي لم يصل بعد . ثمّ إنّهم سألوا أولئك الطلبة العائدين من مسجد جمكران : هل رأيتم الميرزا تقي ؟ قالوا : نعم ، رأيناه برفقة سيّدٍ محترمٍ باتّجاه مسجد جمكران ، وكانا يتحدّثان حديثاً حميماً بحيث انهما لم يشعرا بنا .

سار أصدقاؤه باتّجاه مسجد جمكران . ولمّا دخلوا المسجد وجدوه مُمَدّداً

علىٰ الأرض قبالة الحرم ، غائباً عن الوعي . سعوا لاعادته إلىٰ وعيه ، ثمّ سألوه : لماذا وقعت في حالة إغماء ؟ وما كان من أمر السيّد الذي رافقك ؟

قال : حين وصلت إلىٰ الطاحونة . . رأيتُني في حالةٍ روحيّةٍ طيّبةٍ ، فمضيت وحدي إلىٰ مسجد جمكران . لم يكن معي أحد ، ولكنّي كنت أُكلّم الإمام بقيّة الله (أرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء) . كنت أُناجيه . حتىٰ وصلت قبالة المحراب ، وأنا أُنشد هذه الأشعار ، وأذرف الدمع :

إلىٰ مَ . . أجالس ، يا أيّها الأعْظَمُ
أولاءِ الذين يُريدون لُقْيا الإله ، فلا يَبْلُغونَ لِقاكْ ؟!
وما دُمْتُ أُبصرُ وجهَك . . لا كافرٌ أنا لا مُسْلِمُ
لقد أذهلتْنِيَ طُرّةُ وجهك عن ذا وذاكْ !
فيا هٰذه الطَّلْعةُ ــ الجنّةُ ، آحترقتُ بنارِ آلصُّدودْ
ولستُ أُريدُ بدونِكَ حتّىٰ نعيمَ الخلودْ
هنا مُطْرِبٌ عن يميني ، وساقٍ هنا عن شمالي
سكرتُ . . وصرتُ أميلُ لذاتِ اليمينِ وذاتِ الشّمالِ
ويَهْمِسُ في سِرّهِ : إنْ أردتَ لِتنظرَ يوماً إلىٰ العاشقِ الحائرِ
عليكَ آبتياعَ الدّلالِ من النّرْجسِ السّاحرِ
فَيا لَلْغزالِ الذي لم يقع لحظةً في شِباكٍ لصائدْ !
وإنّي ــ علىٰ رغم علمي بفنِّ التصيّدِ ــ ما فُزْتُ يوماً بصَيْدِهْ !
فليس بِجَوْرٍ إذا آنَسْتَني ــ ولو لمحةً من سَنا مَبْصَرِكْ
فإنّي يحقّ لكفّيَ أخْذُ ــ ولو قبضةٍ ــ من غِنىٰ بَيْدَرِكْ
ألا يا نسيماً أتىٰ من ديارِ المحبّين . . أقْبِلْ ، ومُرَّ بقبري
وأبْصِرْ سحائبَ دمعي وحُرْقةَ زَفْراتِ قلبي !

فاجأني صوت ارتفع من جهة المحراب . . فأعطاني ما أردت . لم تَعُدْ

لي طاقة ، وغبت عن الوعي .

لا شكّ أنّه كان خلال الطريق في رفقة إمام الزمان (عليه السلام) . لو أنّ أحداً سمع صوت الإمام (عليه السلام) فانّه يفقد الوعي . . فكيف تبقىٰ له طاقة لرؤيته (عليه السلام) ؟ ولهذا فانّ الناس الذين لا يعرفون الإمام (عليه السلام) ربّما يلاقونه في الطريق ولا يميّزونه .

ولكنّه وحده (رحمه الله) قد استمتع بلذّة مناجاة الحجّة ابن الحسن (عليهما السلام) .

قلت لزوجته المحترمة : هل كنت موجودةً لدىٰ وفاة المرحوم الميرزا تقي ؟

قالت : نعم ، وكلّ أبنائه كانوا حاضرين ما عدا محمّد باقر . لقد كان في حالةٍ حسنةٍ حين ناداني فجأةً وقال : تعالَي ! ثم ٱلتفت إليّ وقال باللسان التّركيّ :

ــ لقد حضروا ، لقد حضروا .

نظر إلىٰ الباب . أراد أن يقوم من مكانه . سلّم . ومع أنّي لم أرَ شيئاً فقد وضعت يدي علىٰ صدري ، وسلّمت .

أدركت أنّه في حالة الإحتضار ، فقلت له : قُلْ : « لا إلٰـهَ إلاّ الله » . ولكنه تبسّم ، كأنّما كان يريد أن يقول لي : أتعلّمينني ؟! كلّ وجودي من رأسي حتىٰ قدمي يصيح : « لا إلٰـهَ إلاّ الله » ، وكلّ خلايا بدني تقول : « محمّد رسول الله ، عليّ وليّ الله » .

ثمّ ناولني منديلاً معقوداً ، وقال : لا تعطِه لأحدٍ . (وضعتْ زوجةُ المرحوم المنديل أمامي ، فرأيت فيه مِسْبَحةً من نوع « اليُسْر » وكرّاساً واحداً) .

فتحت الكرّاس . . فرأيت فيه كتاباتٍ من علوم (الرّمل والجفر) ، وبضعة أبيات من الشعر ، أكتب هنا بعضاً منها كتذكار لهذا المرحوم :

إذا فارقَ الفمُ مزمارَهُ سَيُلقىٰ ويغدو جنازةَ صوتْ
حذارِ إذَنْ أن يفارقَ ربُّـ ـكَ قلبَكَ . . تغدو كَمَيتْ

* * *

إذا ما ذهبتَ . . سكبتُ سحابَ الدّموع
تَمَهَّلْ قليلاً . . إلىٰ أن يكفَّ المَطَرْ !

وكانت في الكرّاس أيضاً هذه المدوَّنة :

بسمه تعالىٰ

كان للمرحوم الميرزا علي القاضي تلميذ في عهد الشبيبة ، فلاحظ الأستاذ يوماً : أنّ تلميذه يزداد شحوباً ونحولاً يوماً بعد يوم . في أحد الأيام سأله الأستاذ : ماذا تفعل حتّىٰ صرتَ هكذا ؟ أجاب : كلّ ليلة ـ إضافة إلىٰ أداء أعمالي المألوفة ـ أختم القرآن مرّةً ، وأكاد لا أنام .

قال له الميرزا علي القاضي : منذ الليلة تَصَوَّرْ أني جالسٌ أمامَك حينما تقرأ القرآن . بعدئذٍ جاء التلميذُ وقال : لم أستطع أن أقرأ أكثر من جزءٍ واحدٍ من القرآن .

بعد أيّام قال له : تخيَّلْ أنّك تتلو علىٰ مسامع إمام الزمان (عليه السلام) ، أو النبيّ أو عليّ (عليهما السلام) . فجاءه في الغد ، وقال : كلّما حاولتُ فإنّي لم أستطع أن أقرأ أكثر من حزبٍ واحدٍ من القرآن .

بعد أيّام قال له : تخيَّلْ أنّك تتلو علىٰ الله . يقال : إنّ ذلك الشابّ ابتدأ يقرأ من أوّل القرآن ، ولكنّه لم يتجاوز في قراءته ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ ،

وظلّ عندها . وفي صباح اليوم التالي . . فارقت روحُه الدنيا .

ربّما كان هذا سرّ ما ورد في كتاب (فقه الرّضا عليه السلام) من قوله : إذا فَتحتَ الصلاةَ فاجعلْ واحداً من الأئمّة نصْبَ عينَيْك .

توضيحات

١ ـ كان المرحوم الميرزا علي القاضي من علماء أهل المعنىٰ ، وكان يسكن النجف .

٢ ـ ربّما كان في القضيّة شيء من المبالغة ؛ ذلك أنّ ختم القرآن كلّه في ليلةٍ واحدةٍ لا يتيسّر لأحدٍ ، إلّا قليلاً .

٣ ـ إنّ الأشخاص الذين يُصْعَقون بقراءة هذا المقدار من القرآن ، أو لدىٰ سماع خطبة في وصف المتّقين . . إنّما يُصْعَقون لأنهم ليسوا علىٰ استعدادٍ كافٍ لتحمّل هذا التوجّه والإقبال ، وإلّا فإنّ أولياء الله ـ وهم أشدّ إقبالاً وتوجّهاً في عباداتهم ـ لا تعصف بهم العواصف ولا تمحوهم القواصف .

٤ ـ معنىٰ رواية (فقه الرضا) أنّك حين تقف للصلاة ، فاجعل نصب عينيك أحد الأئمة الأطهار (عليهم السلام) وأعمالهم وكيفيّة توجّههم إلىٰ الله (اجعلهم ميزاناً لأعمالك . . وصلّ علىٰ هذه الشاكلة) .

قالت زوجةُ الميرزا تقي زرگري (رحمة الله عليه) : علّمني المرحوم شيئاً ثبتت لي صحّته بالتجربة . قال لي : كلّما أردتِ زيارة النبيّ الأكرم (صلّىٰ الله عليه وآله) أو أحد الأئمة الأطهار في الرؤيا ، فاجعلي هذه الكتابة تحت رأسك ، فانّك ترين في المنام الوليّ الذي نويت رؤيته :

بســم الله الــرَّحمــن الــرَّحيـم

يا ذا العرش الكريم والمُلْك القديم والصِّراط المستقيم ، يا مرسل الرِّياح ويا فالق الأصباح ويا ذا الجود والسّماح ويا باعث الأرواح ويا ربّ السمٰوات والأرض يا رحيم يا أحَدُ يا أحَدُ يا أحَدُ يا أحَدُ يا صَمَد يا فرد يا وِتْر يا حيّ يا قيّوم يا ذا الجلال والإكرام ، إرحمْ ذُلّي وفاقتي وانفرادي وخضوعي وخشوعي إليك . ربِّ سهّل عليّ كلّ عُسْرٍ ، وامنع عنّي إثمي وشرّ كلّ ظالم وحاسد وعاهد [وعاهة] وآفة ومرض وشدّة وبلاء ورياء وزلزلة وكلّ علّة وبليّة يا سبّوح يا قدّوس ويا ربّ الملائكة والرُّوح ، وصلّىٰ الله علىٰ نبيّنا محمّدٍ وآله أجمعين كثيراً كثيراً .

و هـ علي علي لاع صلوع لو ما له ما له آلـ ا ع .

وإذا أردت أن تظلّ الرؤيا في ذاكرتك فينبغي أن تقرئي (آية الكرسي) قبل النوم .

وإنّ قراءة (سورة الكوثر) مئة مرّة مأثورة لرؤية النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) في المنام .

* * *

وكان المرحوم الميرزا تقي (رحمة الله عليه) قد روىٰ لي هذه الواقعة قبل وفاته بعدّة سنوات . . فقال :

قصدت مشهد في إحدىٰ السنين لزيارة الإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) . وفي أحد الأيام دخلت بكلّ أدبٍ لأزور . كنت أقرأ (الزيارة الجامعة) ، وأنا حذر من أن يشغلني شيءٌ عن التوجّه خلال الزيارة . وحَدَث أنْ مرّ بقربي شاب قرويّ، فضرب بيده علىٰ كتفي وهو يقول: أيّها الشيخ زر زيارة صحيحة، وذهب. قلت في نفسي: كلام حسن، ينبغي أن أزور زيارة صحيحة . ولكن هذا الشاب دار دورة ثم جاء . . فضرب بيده على كتفي ضربتين قائلا : أيها الشيخ : قلت لك زُرْ زيارةً صحيحةً . انفعلت منه ، وقلت : لماذا تشغلني ؟! وكيف ينبغي أن أزور ؟!

قال : إذَنْ . . تعال لأروي لك أوّلاً حادثةً ، لكي تكون علىٰ معرفةٍ بالإمام (عليه السلام) ، وبعدئذٍ زُر الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) .

كان توجّهي إلىٰ الزيارة قد أفلت منّي ، فلم أعد قادراً علىٰ الإستمرار في الزيارة . عندئذٍ قلت له : لا مانع لديّ . جلسنا معاً في أحد أروقة الحرم ، وحكىٰ لي قصّته علىٰ هذا النّحو :

كان والدي أحد الملاّكين في أطراف مشهد ، وله ثروة كبيرة . وحينما توفّي كنت شابّاً ، فورثت منه ارثاً له قيمة . ولأنّي ما كنت قد تعبت في تحصيله ، فقد أتلفت كلّ ما ورثته عن أبي ، خاصةً وأنّه كان حولي أصدقاءُ طفيليّون .

فطنت في أحد الأيّام إلىٰ أنّه لم يبق لديّ شيء من المال ، فقلت لأُمّي ، وأنا شديد الخجل : هل لديك نقود تُقْرضيني منها ؟

قالت : صرفت كلّ أموال أبيك ؟! لك الويل ! لن أعطيك نقوداً . أمامك طريقٌ واحدٌ : أن تذهب إلىٰ الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) ، وتأخذ منه ثروة أبيك التي ورثتها وأتلفتها .

تركت أُمّي . . وخرجت ، وعيناي مغرورقتان بالدموع . المرحوم أبي كان رجلاً صالحاً ذا ولاء لأهل البيت (عليهم السلام) . وكان يعرّفني بمقام الولاية ، وكيف أنّ الإمام (عليه السلام) له إحاطة بالعوالم . وهذا المعنىٰ كان حاضراً في ذهني حين سرت من منزلنا إلىٰ مشهد (والمسافة حوالي ثلاثة فراسخ) أذرف الدمع ، وأخاطب الإمام (عليه السلام) . وإذ أنّي لم أكن أملك ولا قيراطاً . . قطعت المسافة مشياً علىٰ القدم .

في حدود الساعة العاشرة صباحاً ، وصلت إلىٰ الحرم المطهّر لثامن حجج الله (عليه السلام) . كنت متعباً ، فجلست في زاوية داخل الحرم ،

وشكوت إلىٰ الإمام حالي . بكيت وطلبت حاجتي . في هذه الأثناء وقعت عيني علىٰ فتاةٍ كان وجهها المدوَّر ظاهراً مكشوفاً ، فدخل حبّ الفتاة في قلبي علىٰ نحوٍ عجيب . وإذ أنّي ما كنت متزوّجاً . . خطر لي أن أطلب من الإمام (عليه السلام) أن يزوّجني إيّاها . إذن صارت لي حاجتان بعد أن كانت حاجة واحدة ، **الأولىٰ** : ثروة أبي . **والثانية** : الزواج من هذه الفتاة . بقيت أبكي وأطلب حاجَتَيّ . . حتىٰ حانت الساعة الرابعة عصراً .

انتبهت فجأةً إلىٰ أنّ أحداً قد هزّ كتفي بيده قائلاً : لِمَ تبكي ؟ قلت : لي حاجة ، لن أذهب حتىٰ يقضيها الإمام .

قال : هل تغدّيت ؟

قلت : لا .

قال : تعال معي تَغَدّ . وإذا لم تُقْضَ حاجتك خلال ذلك فَعُدْ إلىٰ هنا مرّةً أخرىٰ .

قلت : غير ممكن ؛ لن أكفّ عن الطلب حتّىٰ تقضىٰ لي حاجتي .

قال : تعال نذهب؛ فإنّي مكلَّف باعطائك حاجتك . أو ليست حاجتك كذا مقدار من المال ، والفتاة التي رأيتها اليوم ؟!

قلت : نعم .

وجدت أنّه يعرف حاجتي . . فلم أتردّد في الذهاب معه . أدخلني في منزله ، ثمّ نادىٰ ابنته . وحين جاءت البنت رأيتها هي نفسها التي رأيتها اليوم في الحرم .

سألت هذا الرجل : وكيف عرفت أنّ هذه هي حاجتي ؟!

قال : ظهر اليوم ذهبت إلىٰ الحرم ، ومعي ابنتي ، لزيارة الإمام الرضا (عليه السلام) . ثمّ عدنا إلىٰ البيت ، فتغدّيت . . ونمت . وفي عالم الرؤيا

رأيت كأني في حرم الإمام الرضا (عليه السلام) . ورأيتك واقفاً في نفس المكان الذي رأيتك فيه . كان الإمام الرضا (عليه السلام) جالساً علىٰ الضريح ، فقال لي : اعط ابنتك مع كذا مبلغ إلىٰ هذا الشابّ .

قلت له : ولماذا يا مولاي أعطي ابنتي إلىٰ هذا الشابّ القرويّ ؟

قال : هذه عقوبة لك . . فلماذا أتيت بابنتك مكشوفة الوجه بين الناس في الحرم ؟

أفقت من النوم ، فلم أفهم تأويل رؤياي . نمت مرّةً أخرىٰ ، فرأيت الرؤيا نفسها ، وكان الإمام الرضا (عليه السلام) يقولٰ هذه المرّة : تعالَ إلىٰ الحرم ، واقض حاجة هذا الشاب علىٰ الفور .

ارتديت ثيابي في الحال ، وجئت إلى الحرم . . فرأيتك في نفس المكان الذي كنت فيه خلال الرؤيا .

ثمّ تابع هذا الشابّ كلامه بقوله : كان مقدار الثروة التي قدّمها لي هذا الرّجل ـ باشارة من الإمام الرضا (عليه السلام) نفس المقدار الذي كنت ورثته من أبي . وعلاوة علىٰ ما نلته من المال ، والحياة الزوجيّة السعيدة ، وازدياد يقيني بإحاطة الإمام (عليه السلام) وعلمه بالعوالم . . فانّي بقيت زماناً أسمع جواب الإمام (عليه السلام) بأذن قلبي كلّما دخلت الحرم المطهّر للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) للسلام عليه . وأوصيك الآن ـ أيّها الشيخ ـ أن تزور الإمام (عليه السلام) بمثل هذا اليقين .

وفي الختام أزيّن هذا الكتاب بصورة المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الميرزا تقي التبريزيّ الزركري ، داعياً له ولنا بالمغفرة .



في السنة الثانية من تعرّفي وصداقتي للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان ، كنت اسير وإيّاه يوماً في أحد شوارع زنجان ، فقال لي ابتداءً : تعال لالتقاط صورة مشتركة لنا في هذا الاستديو ، فربّما تنفعك في يوم من الأيّام . وإذ أنّه ما كان يميل كثيراً إلىٰ التقاط الصّور . . لم يبق من صورةٍ إلاّ اثنتان ، إحداهما هذه الصورة . والأخرىٰ صورته التي كانت في جواز سفره وهو حاسر الرأس . علىٰ أيّ حالٍ . . التقطنا صورةً ، وأعطانا المصوّر منها ثلاث نسخ : واحدة بقيت عندي ، والأخريان كانتا لدىٰ المرحوم الحاج ملاّ آقا جان . ويبدو أنّه أرسل إحداهما إلىٰ المرحوم الميرزا تقي . أمّا الأخرىٰ فقد أخذتها من ولده الأكبر السيّد عتيق بعد وفاة المرحوم بأربعة عشر عاماً . ولكنّ الصورتين اللتين كانتا بحوزتي قد فُقِدَتا ــ مع الأسف . أو إن أحداً قد استلّهما من (البوم) الصّور الذي لديّ .

وقبل تأليف هذا الكتاب بعامين ، تذكّرت أنّ المرحوم كان قال لي : تعال نذهب لالتقاط صورة مشتركة ، عسىٰ أن تنفعك يوماً .

قلت : إذا كانت هذه الصّور ما تزال موجودةً ، فانها تنفعني لدىٰ طبع هذا الكتاب . بَيْد أنّه لا يوجد لديّ الآن ــ ويا للأسف ــ أيّ من هاتين الصورتين .

من أجل هذا كان لا بدّ أن أطبع هذا الكتاب خالياً من صورة للمرحوم الحاج ملاّ آقا جان . ثمّ إنّ زوجة المرحوم الميرزا تقي الزرگريّ قد دفعت إليّ في هذا الوقت كيساً من (النايلون) وجدت ، بين ما يحتوي من رسائل الحاج ملاّ آقا جان ، صورتي مع المرحوم . . فسرّني ما وجدت ، وعلمت أنّ ما قاله أستاذي قد تحقّق بعد سبعة عشر عاماً ، وهذا هو يوم تنفعني فيه صورته (رحمة الله عليه) .



المرحوم الحاج ملّا آقا جان في السبعين من عمره ، والمؤلّف في الثامنة عشرة سنة ١٣٣٣ الشمسيّة

في السفرة التي ذهبت فيها إلىٰ زنجان بعد أربعة عشر عاماً من وفاة الحاج المعظَّم . . زرت ــ في إحدىٰ المناسبات ــ أكبر علماء زنجان في منزله . قلت لهـذا العالم أثنـاء الحديث : قبـل أربعة عشـر عامـاً كنت كثيـر المجيـىء إلىٰ زنجان .

فقال : ولأيّ علّة كنت تأتي إلىٰ زنجان ؟

قلت : كنت صديقاً للمـرحوم الحـاج ملاّ آقـا جان ، وكنت أجيـىء من أجله .

قال : لقد كان يعمل أعمالاً مخالفةً في بعض الأحيان .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : سمعت أنّه كان يقول أحياناً وهو علىٰ المنبر : يا فلان ، لماذا أنت علىٰ جنـابةٍ ؟ أو : لقـد عققتَ أمّك ، فلمـاذا تحضر مجلسنـا ؟ كـان يفضـح الناس ، وهذا عملٌ حرامٌ .

بَيْدَ أنّي كلّما حاولت الدفاع عنه واثبات أنّ هذا الموضوع غير صحيح . . فانّه لم يقتنع .

عصر ذلك اليوم ذهبت إلىٰ قبره في مقبرة زنجان العامّة ، فوجدت قبـره الطاهر ليس له أيّ امتياز عن سائر القبور ، فعزمت علىٰ أن أبني له مقبرةً .

وفي الليل رأيت الحاج ملاّ آقا جان في المنام ، فسألته أوّلاً عن المكان الذي يسكنه في الجنّة .

فقال : أنا بوّاب للإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) .

قلت : السيّـد . . (أقصد عـالم زنجان الكبيـر) يقـول حـولـك أشياءً آذتني ، ولم أستطع الردّ عليه .

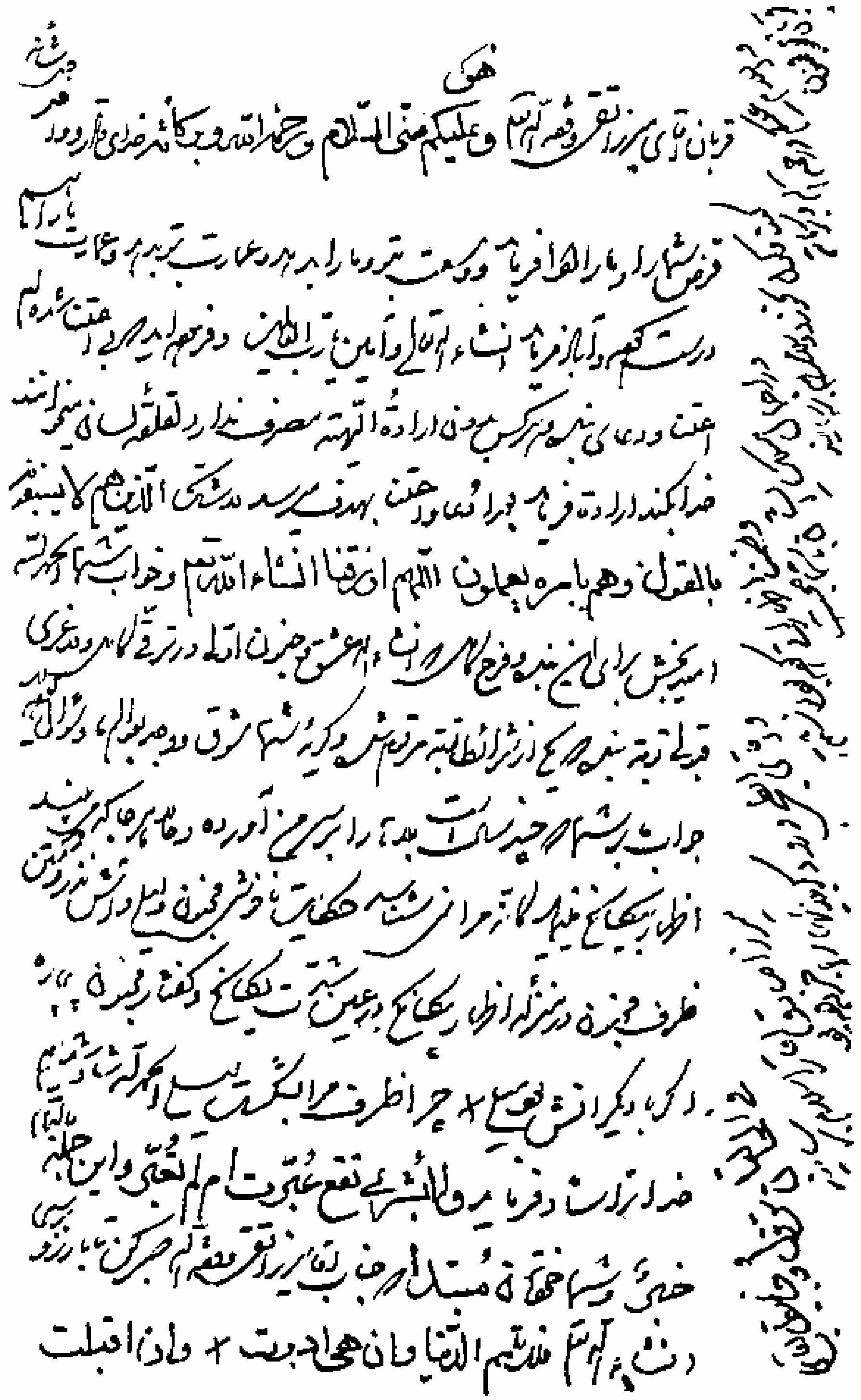
قـال : مهما كـان . . فبمحبّتكم تَعْفون عنّـا . (يقصد محبّـة أهل بيت

العصمة والطهارة عليهم السلام) .

قلت له : أريد أن أبني قبرك .

فقال : إذا لم يسبّب ذلك ضرراً بالقبور المجاورة . . فلا مانع .

وبعد يقظتي من النوم ، قصدت المقبرة مرّةً أخرىٰ . وكلّما فكّرت في طريقةٍ لبناء قبره وجدت أنّه لا بدّ من الإضرار بما جاوره من القبور . . فانصرفت عن هذه الفكرة .



وفي هذا الموضع نثبت صورة من خط المرحوم الحاج ملّا آقا جان في إحدى رسائله، تذكراً وتذكيراً.

ملحقات

الطبعة الثانية

إستجابة لطلب بعض الأصدقاء . . أُضيف هذا القسم إلى الطبعة الثانية من الكتاب .

إنّ العديد ممّن قرأوا كتاب (عروج الروح) في طبعته الأُولىٰ قد حلّقت أرواحهم وارتفعت . . ولكنّهم ارتبكوا : فلا هم أدركوا المقصد ، ولا عرفوا المحبوب . قلوبهم كانت تحترق ، وآهاتهم تنبع من الأعماق . . فطلبوا إليّ أن أترفّق بهم ، وأن أدلّهم علىٰ المقصد وعلىٰ المحبوب ، ولكنّ (اليد قصيرةٌ والعين بصيرةٌ) .

أنا مَنْ أكون ؟! وما أنا حتّىٰ أكون قادراً علىٰ تلبية طلبهم وأترفّع عليهم ؟! حتّىٰ كانت ليلة من ليالي أوائل سنة ١٣٦٠ ش . . التي أصرّ فيها إصراراً شديداً جمع من هؤلاء ، بقلوب أشدّ حرقة وأكثر تأثّراً ، وبعيون لا ينضب لها دمع . وكلّما قلت لهم : « إذا كنت أنا إنساناً صالحاً . . فأنا مثلكم من طلّاب الحقيقة » لم يُصغوا إلى قولي . . حتّىٰ تعبت حقّاً .

قلت : اللهمّ أعنّي لأدلّهم علىٰ ما يريدون ، من خلال القرآن والحديث أداءً لحقّ الصّداقة .

عُدت إلىٰ القرآن والحديث ــ كما يريد الله وأئمة الدين ــ فوجدت أنّ

المحبـوب الحقيقيّ هو الله وحـده ولا شيء سواه ، وأنّ الإخـلاص هـو سبيـل الوصول إليه . ومـا ثمّة من توفيق لـلإنسان ــ في هـذا السبيل ــ إلاّ بـالتمسّك بأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) . من أجل هذا عزمت أن أوصل لهؤلاء الأعزّاء ــ بقدر الإمكان ــ ما أعرفه . . في أسلوبٍ قصصيٍ ، وأن أسرد عليهم أطرافاً من سيرة الآخرين الروحيّة .

العمال الأربعة

رأيت في إحدىٰ (ورشات) العمل أربعة عمّالٍ ، جعلوني أفهم المعنىٰ الحقيقيّ للإخلاص .

هؤلاء العمّال الأربعة كانوا يقـومون بنـوعٍ واحدٍ من العمـل ، وفق خطّة واحدة ، بَيْدَ أنّ توجّه كلّ منهم للعمل كان يختلف عن توجّه الآخرين .

أحـدهم يعمل إذا كـان تحت نظر ربّ العمـل ، أو حين يستخـدم معـه أسلوب التهديد .

وقال الآخر : أنا أعمل في مقابل دَيْن لصاحب العمل عَليّ .

أمّا الثالث فكان يعمل بسبب الفقر والفاقة ، وإذا لم يشتغل كلّ يومٍ فإنّه لا يتمكّن من تأمين نفقات معيشته .

ولكن الرابع كانت تربطه بربّ العمل صداقةٌ قديمةٌ ، كان يشتغـل بدون احتسابٍ للأجر . الدافع الوحيد الذي يدفعه للعمل هو حبّه لربّ العمل .

ومن الطبيعيّ أن تكون معاملة ربّ العمل لهذا الرابع مختلفةً عن معاملته الثلاثة الآخرين . إنّه سيعامله باحترامٍ خاصّ ، وسيجعل ــ بفيض محبّة ــ كلّ شيء تحت تصرّفه ، وربّما يدعـوه إلىٰ غرفتـه ليقول لـه : نحن لا نبتغي منك عملاً كثيراً ، ولكنّه هو سيقول : أنا نفسي أحبّ أن أعمل مزيداً من العمل .

ربُّ العمل يحب هذا العامل. والعـامل يجـد نفسه شغـوفاً بـربّ العمل والحبّ بينهما متبادل.

هذه الحقيقة اضطرّتني أن أوافق علىٰ ما أراده منّي هؤلاء القرّاء الأعزّاء . وها أنذا أبيّن لهؤلاء الرِّفقة ـــ بما أستطيع ـــ ما استنبطته من الآيات والروايات ، فيما يتّصل بالغايـة من خلق الإنسان . . التي هي الـوصول إلىٰ الله (تعـالىٰ) بالإخلاص .

* * *

الخلاص من نار جهنم

قال : لديّ أسئلة . . إذا سمحت : (كانت دموعه تجري من عينيه) .

قلت : سَلْ ، ولكن سيطر علىٰ أعصابك .

قـال : هل يمكن أن يُنجّينـا الله من نـار جهنّم ، ويخلّصنـا من عـذاب الآخرة ؟

قلت : لـم يخلق الله الإنسـان ليصليـه نـار جهنّم . إنّ الإنسـان إذا أدّىٰ الواجبات واجتنب المحرّمات وكان سليم المعتقدات . . فانّ الله لا يعذّبـه يوم القيامة . والله (تعالىٰ) يقول في القرآن : ﴿ولن يُخْلِفَ الله وَعْدَه﴾ .

وإذ أنّك من أهل العلم ، تستطيع أن تبحث في هذه المسألـة من خلال القرآن والحديث . . فلماذا تبتئس ؟ سمع هـذا ، وذهب . (ثمّ جاء بعـد أيّام ثـلاثة ، وقـال : انهمكت أيّامـاً في قراءة الآيـات والـروايـات المـرتبـطة بهـذا الموضوع ، فما توصّلت ــ في هذه المسألة ، إلىٰ أكثر ممّا تفضّلتَ به) .

كان علىٰ حالٍ حسنةٍ ؛ لأنه صار يرىٰ أنّ بـامكانـه أداء الواجبـات وترك المحرّمات ، إلىٰ جوار ما لديه من عقائد إلهيّةٍ صحيحةٍ .

لقد كان هذا الصديق يظنّ أنّ هذا هو وحده الكمال الإنسانيّ . .

ودّعني ، وانصرف . كان الله في عونه

نعيم الجنة

أحد الطلّاب ممّن تَلقّوا دروساً جيّدةً في العقائد ، كان يودّ أن أحكي له عن نعيم الجنّة ، فأجبته إلىٰ ما يودّ . وعبر عشرة دروس حكيت له ــ من ثنايا القرآن والأحاديث المعتبرة ــ ما يتّصل بالجنّة ، والحور العِين ، وفاكهة الجنان ، وقصورها ، وشرابها ، وشجرها ، وحياتها الخالدة ، وسعادتها الباقية .

خلال الدروس كانت تقوىٰ هذا الطالب وأعماله الصالحة تزداد يوماً بعد يومٍ ، حتىٰ انّه ــ من شدّة شوقه إلىٰ الجنّة ــ كان لا يستطيع الرّقاد ، ويقضي ليله في العبادة ، ونهاراته في الصيام . وقته كلّه كان لذكر الله والدعاء . جاءني يوماً وقائلاً : هل أنا من أهل الجنّة ؟

قلت له : ولماذا لستَ كذلك ؟! لماذا تجعل للشكّ سبيلاً إلىٰ قلبك ؟ أترىٰ أنّ الله (تعالىٰ) يُخْلف وعده ؟!

أو ما تعلم أنّ الله قد وعد الذين يتّقون ولا يخالفون أمره أن يجعلهم من أصحاب الجنّة ؟!

أو ما تعلم أنّ الله (تبارك وتعالىٰ) قال : ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مثقال ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ ، ومَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَهُ**﴾ ؟! وكتاب أعمال الإنسان لا يغادر صغيرةً

ولا كبيرةً إلّا أحصاها . .

قال : هذا صحيح ، وأملي أن يحفظ الله عليّ هذه التقوى حتى آخر عمري .

دعوت له بالتوفيق . . وذهب . كان الله في معونته .

* * *

بالشكر تزيد النعم

ثمّة رجل مُسِنّ سلخ من العمر ثمانين سنة تقريباً . كان يأتيني أحياناً . . ولسانه رطب بذكر الله . أصغيت في أحد الأيّام إلىٰ ما كان يلهج به ، فسمعته يكرّر ذكر « الحَمْدُ لله » .

قلت له : هل جرّبتَ ـ يا عمّ ـ خلال حياتك أيّ العبادات أكبر نفعاً ؟

فقال : الذي أراه أنّ شكر الله يزيد النِّعَم . ومن يكن شاكـراً فلا بـدّ أن يطيع الله في كلّ ما أمره في مقابل هذه النعم التي تفضّل بها عليه ، ولا يعصي لله أمراً .

قلت : هذا صحيح ، ذلك أنّ الله (سبحانه) يقول في القرآن الكريم : ﴿لئن شَكَرْتُمْ لأزيدنّكُمْ ، وإنْ كفرتُمْ إنّ عذابي لَشديد﴾ . ولكن هل ترىٰ أنّ الإنسان الشاكر لا بدّ أن يكون ذا تقوى في الوقت نفسه ؟

قال : وكيف لا يكون الإنسان متّقياً ، وهو مدين لله في كلّ نعمةٍ أنعم بها عليه ؟! ومن لم يتّقِ لم يؤدِّ ديون الله عليه . ينبغي للإنسان مراعـاة التقوىٰ من أجل هذه النعم التي تفضّل الله بها عليه . . وهذا هو شكر نعم الله .

قلت له : الأمر كما تقول ، وأسأله (تعـالىٰ) أن يجعلك من الشاكـرين الواقعيين ، لكي تقوىٰ علىٰ أداء ما عليك لله من ديون . ثم ذهب هذا الـرجل مسروراً .

الاخلاص

كان رهطٌ من بين رفاق طريق الكمال ذوي بصر نافذ بالأمور ، فكانوا يشاهدون التجلّيات الكماليّة للمحبوب الحقيقيّ ، أي الله (جلّ جلاله) ، ولا يلتفتون إلىٰ سواه .

وانسجاماً مع الفطرة البشريّة المتطلّعة إلىٰ الجمال والكمال الحقيقيّ . . فانهم ما كانوا يجدون هذا الجمال وهذا الكمال الحقيقيّ الواقعيّ إلاّ في الذات الإلٰهيّة المقدّسة .

أحد رفاق الطريق . . كان قصير الإدراك ، ولكنه شديد النزوع في الحبّ ، فأحبَّ محبوباً مجازيّاً[1] . وحدث أن افترق عنه مرّةً فراقاً مؤقّتاً . . فأنتابه الأرق ليلةً إلىٰ الصباح وما ذاق طعم النوم ، حتّىٰ انه كان يُغفي خلال صلاة الفجر .

وقد قال هو عن نفسه : كنت ــ حين أغفيت ــ أتشهّد تشهّد الصلاة : « أشهد أنْ لا إلٰهَ إلاّ الله » . . فرأيت ــ وأنا في تلك الحالة ــ شخصاً قائماً عند رأسي ، يقول لي : أتعرف ما تقول ؟!

(١) الحبّ المجازي هو حبّ ما سوىٰ الله (تعالىٰ) .

قلت : وما أقول ؟!

فقال : ما دامت كلمة « الله » جامعة لكلّ الصفات الإلَهيّة المقدّسة . . فأنت حين تقول : « أشهد أنْ لا ألَهَ إلاّ الله » ، كأنّك تقول : أشهد أنْ لا حبيب إلاّ الله . والحال أنك ــ من أجل غير الله ــ ما قدرت أن تنام حتّىٰ طلع عليك الصّبح ! ولّما أردتَ أن تحكي الآن مع المحبوب الحقيقيّ بضع كلمات . . أخذك النعاس ، بل لعلّك قد نِمْتَ فعلاً !

وثبت من نومي . . فما رأيت أحداً . ولقد نفعتني هذه الرؤيا كثيراً ، إذ تحوّلت هذه المحبّة الشديدة التي أُكنّها لرفيقي ــ دفعةً واحدةً ــ إلىٰ الله (تبارك وتعالى) ، ولم أعد عاشقاً لغير الله (سبحانه) .

ثمّة رفيق آخر من هؤلاء الأصحاب . . كان يحبّ فتاةً حبّاً يصل إلىٰ حدّ العبادة . قلت له يوماً : هل فكّرت في المزيّة التي في حبيبتك . . حتّىٰ أحببتها إلىٰ هذا الحدّ ؟

فقال : هي كمال من رأسها حتىٰ القدم . هي قرصُ الشمس ، وقطعةُ قمر .

قلت : ألا يوجد ما هو خير منها . . أم أنّك لم تَرَ أحسن منها ؟

قال : أنا لا أقول إنه لا يوجد أحسن منها . . ولكنّي لم أرَ .

قلت : إذا عرّفتك علىٰ ما هو خير منها . . فهل تُقبل بحبّك عليه ؟

فقال : لا شك أن محبّتي إذا كانت وفق المقاييس البشريّة ، فينبغي أن تتعلّق بما هو الأفضل .

وهنا عَقَدتُ له عدّة دروس في معرفة الله (تعالىٰ) وفي كمالات النبيّ والأئمة الأطهار (عليهم السلام) وفي معارفهم . . فأدرك صاحبي أنّ كل الكمالات الواقعيّة هي من الله (سبحانه) ومن رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله)

وأهل بيته (عليهم السلام) . وبعد أن تركّز يقينه بوجود الله . انتقل حبّه إلىٰ الله ورسوله والأئمة الهداة (صلوات الله عليهم) . وإذ كان هو شديد النـزوع إلىٰ الحبّ فانّه غدا يؤدي أعماله باخلاص ، وصار يتقدّم في هذا السبيل أسرع من الآخرين .

أمّا أنا . . فمن هذا المنطلق أنادي :

يا رفاق السفـر إلىٰ مُلْك الحقيقة والكمـال . . لقد عثـرت علىٰ الطريق الموصل إلىٰ الحقائق .

لقد أدركت لماذا جاء الأنبياء والأولياء . . ولماذا خلقنا الله .

أهو ليسوقنا إلىٰ جهنّم والعذاب ؟ كلاّ . .

أهو للجنّة والثواب ؟ كلاّ . .

أهو للعمل والأجر والعطاء ؟ كلاّ . .

الحقيقة هي كما قال (تبارك وتعالىٰ) : لك خلقت كلّ شيء ، وخلقتك لنفسي ، لمنـاجاتي ، لـرفقتي ، لمحبّتي ، لمعرفتي ، لتضحّي في سبيلي . . لتكون عبداً لي .

يا رفاق السفـر . . تعالـوا جميعاً نتـرنّم بمعاني منـاجاة المحبّين لـلإمام السجّاد زين العابدين (عليه السلام) :

« إلٰهِي . . مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلاَوَةَ مَحَبَّتِكَ ، فَرَامَ مِنْكَ بَدَلاً ؟!
وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنِسَ بِقُرْبِكَ ، فَٱبْتَغىٰ عَنْكَ حِوَلاً ؟!
إلٰهِي . . فَٱجْعَلْنَا مِمَّنِ ٱصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ وَوِلاَيَتِكَ .
وأَخْلَصْتَهُ لِوُدِّكَ وَمَحَبَّتِكَ .
وَشَوَّقْتَهُ إلىٰ لِقَائِكَ .
وَرَضَّيْتَهُ بِقَضَائِكَ .

وَمَنَحْتَهُ بِالنَّظَرِ إلىٰ وَجْهِكَ .
وَحَبَوْتَهُ بِرِضَاكَ .
وأَعَذْتَهُ مِنْ هَجْرِكَ وَقِلاكَ .
وَبَوَّأْتَهُ مَقْعَدَ الصِّدْقِ فِي جِوارِكَ .
وَخَصَصْتَهُ بِمَعْرِفَتِكَ .
وأَهَّلْتَهُ لِعِبَادَتِكَ .
وَهَيَّمْتَ قَلْبَهُ لإرَادَتِكَ .
وَاجْتَبَيْتَهُ لِمُشَاهَدَتِكَ .
وأَخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ .
وَفَرَّغْتَ فُؤَادَهُ لِحُبِّكَ .
وَرَغَّبْتَهُ فِيمَا عِنْدَكَ .
وَأَلْهَمْتَهُ ذِكْرَكَ .
وأَوْزَعْتَهُ شُكْرَكَ .
وَشَغَلْتَهُ بِطَاعَتِكَ .
وَصَيَّرْتَهُ مِنْ صَالِحِي بَرِيَّتِكَ .
وَآخْتَرْتَهُ لِمُنَاجَاتِكَ .
وَقَطَعْتَ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْطَعُهُ عَنْكَ .
أللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأْبُهُمُ الإرْتِيَاحُ إلَيْكَ . . والحَنِينُ .
وَدَهْرُهُمُ الزَّفْرَةُ وَالأنِينُ .
جِبَاهُهُمْ سَاجِدَةٌ . . لِعَظَمَتِكَ .
وَعُيُونُهُمْ ساهِرَةٌ . . فِي خِدْمَتِكَ .
وَدُمُوعُهُمْ سَائِلَةٌ . . مِنْ خَشْيَتِكَ .
وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ . . بِمَحَبَّتِكَ .
وأَفْئِدَتُهُمْ مُنْخَلِعَةٌ . . مِنْ مَهَابَتِكَ .
يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لأَبْصَارِ مُحِبِّيهِ رَائِقَةٌ .

وَسُبُحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ .
يا مُنىٰ قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ . .
وَيَا غَايَةَ آمَالِ الْمُحِبِّينَ . .
أَسْأَلُكَ حُبَّكَ . . وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ . . وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إِلىٰ قُرْبِكَ .
وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ .
وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِيَّاكَ قَائِداً إِلىٰ رِضْوَانِكَ .
وَشَوْقِي إِلَيْكَ ذَائِداً عَنْ عِصْيَانِكَ .
وَآمْنُنْ ـ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ ـ عَلَيَّ .
وَانْظُرْ ـ بِعَيْنِ الْوُدِّ وَالْعَطْفِ ـ إِلَيَّ .
وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي وَجْهَكَ . .
وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ الإِسْعَادِ وَالْحُظْوَةِ عِنْدَكَ .
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

* * *

في إحدىٰ الجلسات كان رفاقي يقرؤن معي هذه المناجاة بلسانٍ عربيٍّ . . كانوا يذرفون الدموع ، وقد نشطوا للعبادة ، وانفتحت أبواب فهمهم بلذيذ مناجاتهم المحبوب الحقيقيّ . . سألني إذ ذاك بعض الرفاق : ما هو متاع السفر وزاده ؟

قلت : العمل الصالح باخلاصٍ .

قال : وما العمل الصالح ؟

قلت : « الصالح » يعني : اللائق . و« العمل الصالح » يعني : العمل اللائق بمقام « الإنسانيّة » ، حيث لا يُتوقّع أن يصدر سواه من الأعمال .

وبعبارة أوضح : انّ الله (تعالىٰ) خلق للإنسان بُعْدَيْن . . فهو من جانب

يشترك ــ في بعض الصفات والأفعال ــ مع الحيوان ، إذ للحيوان غرائز ودوافع كالجنس والطعام والشراب والنوم والبصر والسمع ، والاستئثار والأنانية ، والبخل والانتقاء وللإنسان أيضاً صفات وأعمال من هذا النمط ، وله دوافع وغرائز مماثلة .

وللإنسان ــ من جانبٍ آخر ــ تَمَيُّز في صفاتٍ لا يشاركه فيها الحيوان ، مثل القدرة علىٰ تحصيل العلم ، وغريزة التعرّف علىٰ الحقائق ، وصفة الجود والسخاء . . وسائر الأخلاق الإنسانية الرفيعة .

وبهذا يظهر أنّ الإنسان الصالح هو الإنسان الذي يبلغ في بعده الإنساني إلىٰ حد الكمال . والعمل الصالح هو العمل المرتبط بالبُعْد الإنسانيّ من بُعْدَي الإنسان .

ثمّ سأل هذا الصديق : وما الإخلاص ؟

قلت : الإخلاص مأخوذ من (الخالص) . والخالص هو : كلّ شيء نقيّ غير مَشُوب ولا مغشوش .

العمل الخالص هو العمل الذي لا يُراد به غير وجه الله (تعالىٰ) .

والإنسان الخالص هو الذي تحكمه الصفات الإنسانيّة ، وتضمحلّ فيه الصفات الحيوانيّة ، أو تضعف ، وتكون خاضعةً للجنبة الإنسانيّة في الإنسان .

ولمزيد من البيان . . يقسّم (الاخلاص) أو (الخلوص) إلىٰ قسمين :

القسم الأوّل : اخلاص الدين والعمل والطاعة لله . وقد أشارت إليه الآية الكريمة : **﴿لِيَعْبُدوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّيْن﴾** . . فانّ « مُخْلِصِين » هي صيغة اسم الفاعل ، ووردت في القرآن مرّات عديدة . وإذا بلغ المرء هذا المستوىٰ بأن تكون كلّ أعماله وحركاته خالصة لله (تعالىٰ) فانّه يبلغ المرحلة الثالثة من

مراحل التقوىٰ[1] ، ويوفّق لبلوغ الصراط المستقيم .

ولهذا الإخلاص في حياة الإنسان آثار لا تحصىٰ ، منها :

١ ـ يغدو الإنسان بالإخلاص متلبّساً بأهمّ شروط استجابة الدعاء . . ذلك أنّ الله (تبارك وتعالىٰ) يقول : ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ . وتلكم أرقىٰ آثار الإخلاص . . فحينما يؤذَن لإنسانٍ بالدعاء والمناجاة ، فانّه يوهَب عندئذٍ كلّ ما أراد؛ لأنّ الله (تعالىٰ) إذا أذن لعبده بدعائه ومسألته فانّه يسمع دعاءه ويجيب طَلِبته .

إنّ الإخلاص هو منبعُ كلّ توفيق في طريق الإنسان للوصول إلىٰ الله (جلّ جلاله) .

٢ ـ إنّ الإخلاص لله يفجّر في قلب الإنسان ينابيع الحكمة والمعارف والحقائق ، ويُجريها علىٰ لسانه . ولقد قال رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) : « من أخلصَ لله أربعين صباحاً . . جَرَتْ ينابيع الحكمة من قلبِهِ علىٰ لسانه » .

٣ ـ يرتقي الإنسان ـ بالإخلاص ـ إلىٰ المعنىٰ الواقعيّ للعبوديّة . وهذا المعنىٰ ممّا يتعهّد به المسلمون أمام الله (تعالىٰ) في كلّ صلاةٍ يصلّونها . . ولكن أكثرهم لا يوفّقون . فالمسلمون ـ شيعة وسُنّة ـ يقولون في اليوم عشر مرّات في الأقلّ : ﴿إيّاكَ نَعْبُد وإيّاك نستعين﴾ . أي أنهم يقولون لله (عزّ وجلّ) : نعبدك يا ربنا ، ولا نشرك بعبادتك شيئاً ، فلا تستطيع النفس ولا الشيطان ولا كل الطواغيت أن تطمع في ديننا . . فنحن نعبدك وحدك ، ونستعين بك وحدك . ولكنّ القرآن الكريم يعلن حقيقةً مهمّةً حين يقول : ﴿وما يؤمن أكثرُهُمْ بالله إلاّ وهم مشركون﴾ ! ذلك أنّ أكثر الناس ليس لديهم إيمان واقعيّ ، وانّما هم يشركون مع الله غيره ، في العبادة وفي الإستعانة ، وبذلك

---

(١) ورد في حديث للإمام الصادق (ع) أنّ المرحلة الأولىٰ للتقوىٰ هي فعل الواجبات وترك المحرّمات . وأن المرحلة الثانية هي اتيان المستحبّات وترك المكروهات .

يغدون واقعين في الحرمان من عظمة فيض العبوديّة لله .

٤ ـ إن المخلصين دينهم لله . . على الصّراط . والصراط هو وحده السّبيل الذي يوصلهم إلى المحبوب والمعبود وإلى المعارف الإلٰهيّة . وهذا الإخلاص ـ الذي هو الصراط المستقيم ـ نحن مكلّفون أن ندعو الله (تَعالىٰ) كلّ يوم . . ليهدينا إليه .

القسم الثاني : خلوص الإنسان نفسه لله .

إذا كان القسم الأول يتّصل بإخلاص الإنسان لله (تعالىٰ) عملاً . . فانّ هذا القسم الثاني يتّصل باخلاص الإنسان لله ذاتاً . وقد ذكر القرآن المجيد من يتّصف بالخلوص لله مُبرّأً من كلّ الشوائب بصيغة اسم المفعول « مُخْلصين » . أمّا فاعل هذا النوع من الإخلاص فهو معرفة هذا الإنسان بالله .

وبتعبير أوضح أنّ المخلصين هذا الإخلاص قد عرفوا الله (عزّ وجلّ) ، وهم سائرون علىٰ الصراط المستقيم مستمدّين من تعاليم أهل بيت العصمة (عليهم السلام) الذين هم واسطة الوحي . وهم يجدون أنفسهم دائماً في محضر الله ، متنزّهين عن محبّة غيره ، فليسوا إلّا له وحده . وهؤلاء يغدون ـ في الرتبة ـ فوق عامّة البَشر وفوق كافة الكائنات . إنهم الأزهار الإلٰهيّة التي تزيّن مائدة الخليقة . إنهم المتخلّقون بأخلاق الله ، والمثل الأعلىٰ الإلهيّ .

إنّهم . . وكلّ ما يملكون ، مُلْك لله . والله (جلّ جلاله) يتلطف بهم ويترأف ، ويهبهم من مواهبه كلّ ما يبتغون . وقد خصّهم الله (تعالىٰ) في القرآن بخصائص ، كلّ واحدة منها هي أعظم مَزيّة يفوز بها الإنسان . وهذه الخصائص هي :

أولاً : انّ الشيطان ـ منذ اليوم الأول ـ قد يئس من إغوائهم ، ولم يجد له إلى قلوبهم من سبيل ذلك أن الشيطان يوم طرده الله (سبحانه) . . أقسم أن يغوي بني أدم أجمعين ، فقال : ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين﴾ . ولكنّه حين نظر

إلىٰ المخلصين لله من بني ادم . . ادرك أنّه لا سلطان له عليهم ، لأن منافذ قلوبهم أشدّ إحكاماً من أن يدخل من خلالها غير الله (عزّ وجلّ) . ولهذا استثنىٰ الشيطان هؤلاء المخلَصين من إرادته في الإغواء وقال : ﴿إلاّ عِبادَك منهمُ المُخلَصِين﴾ .

ثانياً : إنّ عباد الله المخلَصين ــ علىٰ غير ما عليه كافّة الخلق ــ يهبهم الله من ألطافه بغير حساب . إنّ آيات كثيرة من القرآن الكريم تتحدّث عن العمل والجزاء ، وتذكر أنّ الجزاء يطابق العمل . وورد قوله (تعالىٰ) في آيتين من القرآن : ﴿كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ رَهينة﴾ . وقال (عزّ وجلّ) في آية أخرىٰ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَه﴾ . ونقرأ في نصٍّ آخر قول الله سبحانه : ﴿وأنْ ليس للإنسانِ إلاّ ما سَعَىٰ﴾ .

إنّ ما نستخلصه من الآيات وكثير من الروايات المتواترة أنّ ميزان الحساب يوم القيامة ميزانٌ دقيقٌ ، حتىٰ يقول الإنسانُ يومئذٍ : ﴿ما لهذا الكتابِ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها﴾ ؟!

ولكنّ طائفةً من الناس تُستثنىٰ من هذه القاعدة . . وأولئك هم أصحاب اليمين ، أو عباد الله المخلَصين .

هؤلاء لم يكونوا يعملون في الدنيا ابتغاء الأجر ، وإنما كانوا يعملون بدافع الحبّ والمعرفة وحسب . إنهم يعبدون الله . . ولا يحسبون من وراء عبادتهم من حساب . من أجل هذا استثناهم الله (تعالىٰ) ، ولم يحاسبهم ، وجعلهم يتقلّبون في نعمه بلا حساب ، قال (سبحانه) وقوله الحق : ﴿وما تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنتم تعملون . إلاّ عِبادَ الله المُخْلَصين﴾ . . فإنهم لا يُجْزَوْنَ بما كانوا يعملون ، لأنهم عباد الله المخلَصون ، الخالصون له .

ثالثاً : إنّ هؤلاء المخلصين لا يحضرون المحشر ؛ فإنّ الله (تعالىٰ) يقول عن الناس : ﴿فإنّهم لَمُحْضَرون إلاّ عِبادَ الله المُخْلَصين﴾ . وحالتهم

كـانت تطبيقـاً لقول الإمـام عليّ (عليه السـلام) : « حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا » . . فانّهم قد حاسبوا أنفسهم من خـلال مجاهـدة النفس قبل حلول القيامة ، ولم يعودوا بحاجةٍ إلىٰ الحساب في أرض المحشر .

رابعاً : إنّهم وحدهم الذين لا يصفون الله (سبحانه وتعالىٰ) بما لا ينبغي أن يوصف به ، وحتىٰ في قلوبهم وفي خيالهم لا يصفونه . ولكنّ الآخرين ــ من هذه الجهة ــ ليسـوا كذلـك ، فانّـه (تبارك وتعـالىٰ) يقول : ﴿**تعـالىٰ الله عمّا يصفون إلاّ عباد الله المخلصين** . . ﴾ .

وبيان هذا أنّ المخلوق لا يستطيع بعقله الناقص أن يدرك أوصاف الذات الأحديّة المقـدّسة . ولهـذا فانّ كـلّ فئةٍ أو طـائفةٍ ــ طيلة حيـاة البشريّـة علىٰ الأرض ــ لا تستطيع أن تصف الله بدون هدىً من أنبياء الله (عليهم السلام) ، لأنّ الإنسان ــ بدون هداية الأنبياء ــ إنّما يقع في أوهامٍ وأغـاليط جمّة . قـال الإمام الصادق (عليه السلام) : « كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ مَعانيـه فهو مخلوقٌ لكم مَردودٌ إليكم » .

ولكنّ عباد الله المخلصين قد أدّاهم صراط الولاية المستقيم إلىٰ معرفـة الله . فعرفوه بالوحي وبتعريف أئمة الدين (عليهم السلام) . . فالله (سبحانه) لا يعـرفه إلاّ هـو ، وهو (تعـالىٰ) يُوحِ معـارف وأحكامـاً إسـلاميـةً إلىٰ غيـر رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) ، ولا بدّ إذن أن تكـون معرفـة الله عن طريق النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) ، وعن طريق مقام الولاية الإلٰهيّة .

إلىٰ جوار هذا . . فانّ عباد الله المخلَصين متخلّقون بأخلاق الله تماماً ، والله يـدلّهم بالإلهـام ليصلوا إلىٰ مقـام معـرفـة الله . . وهم ــ مـع ذلـك ــ لا يصفونه .

خامساً : ولأنّ هؤلاء لا ينتظرون من وراء أعمالهم وعباداتهم أجراً . . فانّ الله يجعل لهم من لدنه رزقاً معلوماً ويُكرمهم ، كمـا قال في القـرآن الكريم :

﴿ . . إلاّ عبادَ الله المُخْلَصين . أولئكَ لهمْ رِزْقٌ معلومٌ . فواكهُ وهم مُكْرَمون . في جَنّاتِ النَّعيم﴾ . . وهم يرتقون في كلّ لحظةٍ إلىٰ كمالٍ جديدٍ .

وفي ختام الإجابة عن هذا السؤال ــ وهو السؤال عن معنىٰ الإخلاص ــ ينبغي القول إنّ الصراط المستقيم هو الإخلاص في العمل ، وأن يكون هدفنا من وراء عملنا خالصاً لله . . ليفوز بهذه المزايا والكرامات .

قال رفاق الطريق : هل حظيتَ بلُقْيا أحد من أولياء الله غير المرحوم الحاج ملاّ آقا جان ؟

فقلت لهم : نعم ، لقد رأيت عدّة منهم ، وشاهدت من كراماتهم .

سألني أحد رفقتي ــ وهو ذو عقل ورَوِيّة ــ أن أروي له من الكرامات والرؤىٰ والمكاشفات والمعجزات الخاصّة بالأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، ممّا قد رأيته أو رويته عن مصدرٍ موثوقٍ .

ولقد فعلتُ ذلك إلىٰ حدٍّ ما ، ولكنّي رأيتُ بعد ذلك أن أُدرج بعض ما ذكرته لهذا الصديق . . ممّا قد رأيت ورويت ، في الطبعات القادمة من كتاب (عروج الرّوح) . ولا أجد حرجاً في أن أضعها هنا بين أيدي عشّاق الحقائق المتطلّعين إلىٰ الجوانب المعنويّة في الإنسان .

* * *

ما رأيت ، وما سمعت .. من آية الله الكوهستاني

(تبعد قرية « كوهستان » ستة كيلو مترات عن مدينة مازندران . وهناك كان يعيش رجلٌ اسمه الشيخ محمّد الكوهستاني ، الذي كان عالماً مجتهداً وأستاذاً في علم الأخلاق والمعارف الإلٰهيّة . رحمة الله عليه) .

كان هذا الرجل الكبير مربّياً لجمع من العلماء وطلبة العلوم الدينيّة . ومن عاينوا الشيخ الكوهستانيّ كانوا ينجذبون إلىٰ معنويّاته وحقائقه وأخلاقه وكمالاته الإنسانيّة ، قبل أن ينجذبوا إلىٰ علمه وفقاهته .

أمّا أنا فقد شدّتني إليه صلةٌ دامت سنوات ، إذ كنت أمكث مُدَداً في قرية كوهستان أستمدّ من محضره مدداً علميّاً ومعنويّاً .

في أحد الأيّام كنت في غرفة الإستقبال بمنزل آية الله الكوهستانيّ أقرأ في كتاب نهج البلاغة ـــ خطبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف المتّقين التي خطبها بطلب من همّام . . فوجدت ـــ دونما مغالاة ـــ أنّ هذه الخطبة تنطبق تماماً علىٰ آية الله الكوهستانيّ في حركاته وأعماله وسلوكه .

باب منزل آية الله الكوهستانيّ كان مفتوحاً أمام الضيوف ، إذ كثيراً ما كان أهل مازندران ـــ وبخاصّة أبناء القرىٰ ـــ يحلّون ضيوفاً عليه ، فكان عددهم يزيد

أحياناً على الخمسين . وعند الظهيرة ، بعد ما يصلّون فريضة الظهر مؤتمّين به في المسجد ، يأتون منزله . . حيث يُقدَّم لكلّ فردٍ غضارةً من الـ (آشْ)[1] كما هي العادة ــ ورغيف من الخبز .

حدّثني المرحوم آية الله الكوهستانيّ يوماً عن قدرة الله (تعالىٰ) غير المتناهية ، فبسط الموضوع وبحثه بطريقةٍ تجعل الإنسان مأخوذاً بعظمة الإرادة الإلٰهيّة . وأذكر جيّداً أنّي سألته عند ختام ذلك البحث ، فقلت : لِمَ لا يمنّ الله (تعالىٰ) أحياناً بحاجاتنا المشروعة علىٰ الفور ؟

فقال في جوابه : من صفات الله (تبارك وتعالىٰ) أنّه خفيّ الألطاف . ومن ألطافه (سبحانه) الخفيّة أنك إذا نظرت إلىٰ مُجمَل حياتك ووجدت أنّك كنت تسعىٰ لمرضاة الله وراضياً عن الله فان الله يعطيك ما تريد قبل أن تسأله . ثم قرأ دعاء أيّام شهر رجب ، تأييداً لما قال : « يا مَنْ يُعْطي مَنْ سَأَلَه ، ويا مَن يُعطي مَنْ لم يَسْأله ومَنْ لم يَعْرِفْه » .

وقال : ربّما لا تُعطىٰ واحدةً أو اثنتين من حاجاتك ، ولكنك إذا دقّقت في الموضوع وجدت أنّك ــ بشكلٍ عامٍ ــ راضٍ عنه (سبحانه) . والإنسان نفسه يدرك أحياناً أنّ من مصلحته ألاّ يكون قد أعطي تلك الحاجة أوالحاجات، فلو كان الإنسان قد أوتي كلّ طلباته لوقع في ضررٍ غير مشروع .

حياة المرحوم آية الله الكوهستانيّ حياة عادية جدّاً . . فثيابه من الكِرّباس[2] والقطن والقماش المنسوج باليد . وحينما يلتقي به الإنسان ــ وخاصة في كوهستان ــ فانّه لا يحسبه علىٰ درايةٍ بأوضاع البلاد السياسيّة . بَيْدَ أنّه كان فطناً وقّاد الذهن ، كأنّما ينطق عن الغيب ، فكان يجعلنا علىٰ بصيرةٍ بمستقبل البلاد وبالسياسة (إنّ ذكر آفاق من كلماته في هذا الصدد ممّا لا

(١) الـ (آشْ) نوع من الحساء يصنع من أنواع من الحبوب والخضار ، باللّحم أو بدونه .
(٢) الكِرْباس : الثوب الخشن ، جمعه كرابيس . فارسيّ مُعَرَّب .

ينسجم وطبيعة هذا الكتاب) .

كان المرحوم آية الله الكوهستانيّ شديد العطف طيّب الأخلاق . وهو لحوالي مئتين من الطلاب يدرسون في كوهستان بمنزلة الأب الرحيم ، بما يعاملهم به من أخلاقٍ كريمةٍ وحنانٍ أبويٍّ . ولقد قال لي : في اليوم الذي عدت فيه من النجف إلىٰ مازندران قلت لزوجتي : هل أنت علىٰ استعدادٍ لتكوني أمّاً لهؤلاء الطلاب ، وأكون أنا أباً لهم ، لنقوم علىٰ تربيتهم ، فنبيّض وجوهنا عند الله ؟ فوافقت . . وعزمت علىٰ ذلك . وفي أيّام حكم (رضا شاه)(١) لم يكن في إيران رجلٌ واحد مُعَمّمٌ ، ولكنّ ما يقرب من مئتي طالب علم كانوا يدرسون لدىٰ آية الله الكوهستاني ـ في تلك الظروف ـ ويتلقّون التربية علىٰ يديه .

لدىٰ أوّل يوم ذهبت فيه ـ برفقة المرحوم الشهيد سيّد هاشمي نجاد ـ إلىٰ منزل آية الله الكوهستانيّ . . لفت انتباهنا كثيراً ما في المنزل من بساطةٍ ونظافةٍ . الغرفة التي يستقبل فيها عادةً ضيوفه ـ وقد كانت واسعة إلىٰ حدٍّ ما ـ مفروشة بالحُصُر . وفي زاوية الغرف منبرٌ متواضعٌ ذو درجة واحدة . وفي الغرفة أيضاً نسخةٌ كبيرةٌ من المصحف الشريف ، وكتاب رسالة فقهيّة ، وعددٌ من تُرَب الصلاة . . ثمّ لا شيء .

آية الله الكوهستانيّ نفسه كان يجلس علىٰ الحصير ، وأحياناً علىٰ لباد من صوفٍ غليظٍ ، ولكنّ روحيّةً عجيبةً كانت في الغرفة ، ينسلخ عندها الإنسان عن

---

(١) حَكَم رضا شاه البهلوي إيران بالحديد والنار . واختطّ خطّة علمانيّة متشدّدة لسلخ إيران عن الإسلام ، ولادخال نمط الحياة الغربيّة في الأفكار والعلاقات والمظاهر اليوميّة ـ كما فعل معاصره (أتاتورك) في تركية . فكان أن منع النساء المسلمات في إيران من ارتداء الحجاب الإسلاميّ وجعل سفور المرأة إجباريّاً . كما تشدّد في تجريد العلماء من الزيّ العلمائيّ ، وحاول أن يمنع استخدام الألفاظ العربيّة في اللغة الفارسيّة تخاطباً وكتابةً (تشكّل الألفاظ العربيّة أكثر من ٤٠٪ من ألفاظ اللغة الفارسيّة) . ولكنّ جهوده ـ رغم الإسناد الغربيّ وسياسة البطش ـ قد باءت كلّها بالخيبة والخذلان .

الإهتمام بالدنيا ويُقبل على الله . ويقول بعض أولياء الله : إنّ إمام الزمان (عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف) قد حلّ في هذه الغرفة مِراراً .

قال المرحوم حجّة الإسلام الشيخ علي الكاشاني (وسيأتي ذكره أيضاً) : كنت أصلّي في إحدىٰ الليالي صلاة المغرب في هذه الغرفة . . فرأيت الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) قد دخل الغرفة ، وجلس في زاويةٍ ، وظهره إلىٰ القبلة ، بحيث كنت أرىٰ طلعته المباركة وأنا في الصلاة . فكّرت في نفسي : إذا قطعت الصلاة للسلام على الإمام (عليه السلام) فربّما لم يرض الإمام عن عملي . . وإذ أنّه قد جاء قبل أن أشعر بوجوده من الأفضل إذن ألاّ أقطع صلاتي . فإذا كان الإمام (عليه السلام) يريد أن أتحدّث معه ، فينبغي أن يصبر حتّىٰ أتمّ الصلاة .

وفي الصلاة . . قلت في السجدة الأخيرة ، وأنا في حالةٍ توجّهٍ : « يا مَنْ لَهُ الدّنيا والآخرة ، ارحمْ مَنْ ليس له الدنيا والآخرة » ، فسمعت الإمام (عليه السلام) يكرّر هذه العبارة بإقبالٍ وبروحيّةٍ عاليّةٍ . ولكنّ ما كدت أسلّم تسليم الصلاة حتىٰ انصرف الإمام .

كان المرحوم آية الله الكوهستانيّ يوصيني كثيراً أنْ : إذا أردت أن تلتقي بالإمام صاحب الزمان (عليه السلام) . . فاتّق إيذاء الناس ــ وخاصة أولياء الله ومراجع التقليد ومن لا ناصر لهم إلاّ الله ــ بالغِيبة والإفتراء ، ولا تقعد في المجالس التي ترتكب فيها هذه المعاصي .

المرحوم آية الله الكوهستانيّ من الرجال الذين تتباهىٰ الملائكة بخدمتهم ، ولي علىٰ ذلك أدلة لا أستطيع أن أذكر منها غير هذه الواقعة .

جاءني يوماً أحدُ فضلاء مشهد ــ وكان صاحب دكّان في شارع (نادري) قرب ميدان الشهداء ــ فقال لي : لي بنت في الرابعة عشر من عمرها تقريباً . تتحدث لي ــ كلّما استيقظتْ من النوم ــ حديثاً غريباً ، وتعتقد أن أرواحها هي

التي تخبرها بما تقول . والغريب أنّ أكثر ما تقوله يطابق الواقع . وقال لي هذا الرجل : إذا لم تكن ثمّة مشقّة عليك ، فأرجو أن تصحبني إلىٰ المنزل لترىٰ ما تقول . ولترىٰ من ذا الذي يعلّمها . . فإنّي أخشىٰ عليها ـ لا سمح الله ـ أن تصاب بالجنون .

ذهبت إلىٰ منزله . . وحكت لي هذه الفتاة أشياءً عجيبةً عن الأجرام السماويّة وساكنيها ، وقالت : إنّ أرواحاً قد أخذتها البارحة إلىٰ تلك الأجرام ، وشاهدتها هناك .

وكانت تذكر أوصافاً لأبنية المزارات والعتبات المقدّسة[1] . ولأني كنت قد زرت العتبات المقدّسة ، وجدت أنّها كانت تصفها وصفاً واقعياً ، كأنّما رأتها رأي العين . . في حين يؤكد أبوها وإخوتها أنّها لم تغادر مدينة مشهد إلىٰ أيّ مكانٍ آخر .

في عدّة لقاءاتٍ . . ذكرت لي ـ بمحضر أبيها وإخوتها ـ أشياءً كثيرةً أفدتُ منها ، ولا مجال هنا لشرحها .

قالت لي في أحد اللقاءات : أتعرف الشيخ الكوهستانيّ ؟

قلت : أنا تلميذ له .

قالت : أُخِذتُ البارحة إلىٰ بيته . ثمّ شرعت تذكر صفات الجادّة ، وأزقة قرية كوهستان ، وصفة باب منزل آية الله الكوهستانيّ ، وقالت : حين دخلت البارحة إلىٰ بيته رأيت غرفةً كبيرةً علىٰ جهة اليمين ، وعدّة غرف صغيرة في طابقٍ فوق باب المنزل . ذهبنا إلىٰ هناك ، وقبل أن نصل إلىٰ غرفة نوم الشيخ الكوهستانيّ ، قالت الأرواح التي معي : هذا بيت أحد أولياء الله .

فقلت لهم : وما اسمه ؟

---

(١) هي أضرحة ومزارات الأئمة المعصومين (عليهم السلام) ومزارات أبنائهم وذراريهم .

قالوا : الشيخ محمّد الكوهستانيّ . ثمّ أضافوا : لو تيسّر لنا الدخول عليه ، وكان مستيقظاً لكنّا قد استفدنا منه . لكن ــ مع الأسف ــ حين بلغنا باب غرفة نومه وجدنا اثنين من الملائكة قائمين لحراسته ، فمنعانا من الدخول . وبعد الإلحاح أجازوا لي وحدي أن أنظر إليه من خارج الغرفة ، وهو نائمٌ .

ثمّ ذكرت هيئة آية الله الكوهستانيّ بما يطابق الواقع . وكلّ ما قالته عن كوهستان ومنزل آية الله الكوهستانيّ كان صحيحاً . وحدث أن شاهدتُ ــ فيما بعد ــ المنزل من الداخل ، فوجدته كما ذكرت لي من قبل .

وعندما قصدت المرحوم آية الله الكوهستانيّ ، وقصصت عليه قصّة هذه الفتاة . . تبسّم ، وقال : هذا غير بعيد ، فكلّنا في حراسة الملائكة بأمر الله .

في أحد الأيام جرى بيني وبين آية الله الكوهستاني بحث مقتضب حول تفسير الآية الشريفة : **﴿ثمّ أورثنا الكتاب الّذينَ آصطفينا مِنْ عِبادِنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسِه ومنهم مُقْتَصِدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ الله ، ذلك هو الفضل الكبير﴾**. وقد كنت أفهم معنى الآية هكذا : أورثنا الكتاب الذين اخترنا من عبادنا ، فبعض منهم ظالم لنفسه ، وبعضهم مقتصد معتدل ، ومنهم من يسبق الجميع بالخيرات بإذن الله ، وهذه مزيّة للسابقين كبيرة . وهذه المجموعات الثلاثة كلها تدخل الجنّة .

أراد المرحوم آية الله الكوهستانيّ أن يقول : يستفاد من ظاهر الآية أنّ هذه المجموعات هي من عباد الله **﴿ . . . مِنْ عِبادِنا﴾** . ولكنّي قلت له : جَرْياً مع عشرات الأحاديث والروايات الواردة في تفسير هذه الآية نفهم أنّ هذه المجموعات الثلاث هي من المُصْطَفَيْن **﴿ثمّ أوْرَثْنا الكتابَ الذينَ آصطفينا من عِبادِنا﴾** .

فقال : نحن نَقْبَل هذه الأحاديث ، والحقّ معك . ولكن إذا نظرنا إلى الآية الشريفة بمفردها فانّ معناها كما ذكرتُ لك .

بعد هذا البحث الذي استغرق دقائق والذي سردت مفصّله في كتاب « أنوار الزهراء » (عليها السلام) . شعرت أن الشيخ الكوهستانيّ قد استاء ، ثم قال لي : لقد اضطررتني إلىٰ كلام أخشىٰ أن تكون الزهراء (عليها السلام) قد تأذّت منه . قال عبارته هذه بجدٍّ ، وهو يشير إلىٰ إحدىٰ الجهات ، وكأنّما كانت الزهراء (عليها السلام) هناك جالسة تستمع . ثم إنّه اعتذر من الزهراء (عليها السلام) والتفت إلىٰ تلك الجهات قائلاً :

يا فاطمة . . أنا لا أريد حتّىٰ أن أقول إنّ غير المسلمين من أولادك لا يدخلون الجنّة ؛ فانّهم جميعاً من أهل الجنّة . . بجاهك عند الله ؛ فأنت طاهرة الجَيْب ، وأنا معتقد أنّ ذريّتك قاطبة محرّمة علىٰ نار جهنّم ، ولكنّي أردت أن آخذ الآية علىٰ ظاهر المعنىٰ . . .

إنّ الهدف من إيراد هذا المبحث هو أن نتعرّف ــ وحسب ــ علىٰ مدىٰ عناية المرحوم آية الله الكوهستانيّ بمقام المعصومين ومقام الصدّيقة الزهراء (عليهم صلوات الله) . وأملي أن نكون نحن جميعاً علىٰ مثل هذا التوجّه إلىٰ مقام الأئمة الأطهار (عليهم السلام) .

في أحد الأيام رأىٰ سيّدٌ من السادة في مشهد رؤياً ، قصّها علىٰ المرحوم آية الله الكوهستانيّ . . فعبّرها له (رضوان الله عليه) تعبيراً عجيباً . قال ذلك السيّد :

رأيت فيما يرىٰ النائم كأنّ قبّة الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) في مشهد كانت فوق الغرفة التي أسكن فيها ، ورأيت المنارتين قد انتصبتا إلىٰ جوار القبّة . وكانت المنارتان من الإرتفاع بحيث يراهما المرء وهو خارج مشهد . وحدث أن انكسرت إحدىٰ هاتين المنارتين . أمّا الأخرىٰ . . فكانت فاتنة الجمال ، وظلّت قائمة في مكانها .

قال المرحوم آية الله الكوهستانيّ وهو يعبّر هذه الرؤيا : سيتفضّل عليك الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) بأيادٍ وألطافٍ خاصّة . ثمّ سأل السيّد : هل أنت بانتظار طفل يولد لك ؟

فقال السيّد : نعم (ذلك أنه حديث عهد بالزواج ، وكانت امرأته حاملاً) .

قال الشيخ الكوهستانيّ : سيولَد لك ولد يكون من أهل العلم المعروفين .

مرّت ثلاث وعشرون سنة علىٰ سماعي تأويل الشيخ المعظّم لرؤيا السيّد ، وما أزال حتّى الآن أذكر كلامه بالتفصيل ، ورأيت كيف تحقّق جُلّ تعبير الرؤيا ــ إذا لم أقلّ كلّه ــ في الواقع . إذ وُلد لذلك السيّد ولد ذكر . وحين كبر غدا من خيرة طلبة العلم ، وارتدىٰ الزيّ الشريف لرجال العلم . ورأيت كيف كان مغموراً بألطاف أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) .

مرّتين أو ثلاث مرّات قَدِم المرحوم آية الله الكوهستانيّ ــ في آخر سِنيّ حياته ــ إلىٰ مشهد لزيارة الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) .

وفي إحدىٰ سِنيّه هذه . . دار بحث في مشهد حول الفلسفة اليونانيّة والتصوّف ، في مجلس حضره جمعٌ من العلماء ورجال العلم . وفي هذا المجلس أبدىٰ الشيخ الكوهستانيّ (رحمة الله عليه) نفوراً شديداً من منهج الفلسفة والتصوّف ، وقال لي : في صحيحة البزنطيّ ، عن عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) أنّه قال : ليس منّا .

ثمّ وضع يده علىٰ كتفي ، وقال لي : عسىٰ أن تكون من الذابّين عن نهج أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام) ، لتقوىٰ علىٰ مقارعة هذه المناهج المعادية للإسلام .

المرحوم آية الله الكوهستانيّ كان يقول : إنّي لأقرأ بعد كلّ صلاة سورة

الحمد وسورة التوحيد علىٰ روح جدّي الأوّل الذي دخل ــ منذ البداية ــ في التشيّع . . فأنا أُكْبِر قَدْره ؛ إذ قلّل أمامي المعاناة في هذا السبيل .

لقد كان المرحوم آية الله الكوهستانيّ معنيّاً عنايةً شديدةً بقضيّة الولاية ومحبّة أهل بيت العصمة ، وكان يقول : وهل الدِّين إلّا هذا ؟

أسأل الله (تعالىٰ) أن يحشره مع من كان يتولّاه ، عليه الرحمة . . ورضوان الله (تعالىٰ) عليه .

توفّي المرحوم آية الله الكوهستانيّ يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الأوّل عام ١٣٩٢ هـ . وكان قد أوصىٰ ولده الشيخ إسماعيل الكوهستانيّ أن يحمل جثمانه إلىٰ مشهد ليطوف به في الحرم المطهَّر للإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) ، كما كان أوصاه ألّا يخبر أحداً بوفاته ، فإذا تيسّر الدفن في مشهد فبها ونعمت . . وإلّا فانّه يعيده إلىٰ كوهستان .

حمل الشيخ إسماعيل ــ تنفيذاً للوصيّة ــ جنازة والده المرحوم . . إلىٰ مشهد . وكان أهل المدن الواقعة في الطريق من كوهستان إلىٰ مشهد يستقبلون الجنازة بهياجٍ وتأثّرٍ عجيبٍ . وأُخبرتُ أنا أيضاً بأنّ جنازة الشيخ الكوهستانيّ متّجهة إلىٰ مشهد . . فذهبت وعدداً من الطلبة إلىٰ مدينة (قوچان) لاستقبال جنازة الشيخ المعظَّم . وحين دخلتِ الجنازة إلىٰ مشهد كان أذان الفجر يرتفع ، فصلّينا صلاة الصبح ، ووضعنا الجنازة في أحد المساجد حتىٰ الساعة التاسعة صباحاً . . حيث جرىٰ التشييع ، ثمّ جاء المقرّبون من المرحوم وأبناؤه إلىٰ منزلنا ، ليستريحوا .

وحين كنت نائماً . . رأيت ــ علىٰ حين غرّة ــ آية الله الكوهستانيّ جالساً علىٰ ركبتيه جلسة الأدب . وكان المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) جالسين هناك . . وكانوا ينظرون إليه نظرتهم إلىٰ حبيب قد آب الآن من السفر . وكان هو يذكر لهم بكلّ أدب ما قام به من أعمالٍ وعباداتٍ وخدماتٍ ، والأئمة

الأطهار (عليهم السلام) يؤيّدون ما يقول ، ويرضون عمّا قام به من أعمالٍ .
وإذ كنت جالساً ــ في الرؤيا ــ إلىٰ جانب الشيخ الكوهستانيّ ، رجوته كِراراً أن يطلب لي حاجاتي . التفت إليّ الشيخ خلال ذلك مرّة واحدة فقط وقال لي : حسناً جدّاً . . سأطلبها لك . وفعلاً . . قُضِيَتْ لي حاجاتي بعدئذٍ في اليقظة .

دُفِن المرحوم آية الله الكوهستانيّ في (دار السيادة) من حرم الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) . . رحمة الله عليه .

* * *

ما رأيت ، وما سمعت .. من آية الله الحاج شيخ حبيب الله الگلپايگاني رحمه الله

إلىٰ الآن ما يزال أهل مشهد يذكرون رَجُلاً مُسِنّاً عالماً تقيّاً نقيّاً ، اسمه الشيخ حبيب الله الگلپايگانيّ . . كان ــ قبل عشرين سنة ــ يؤمّ صلاة الجماعة في مسجد (گوهر شاد) ، حيث يأتمّ به في الصلاة أغلب متديّني السوق . وفي مرّات عديدة رأيت علماء ومجتهدين يقتدون به في الصلاة ، وكان طلبةُ العلوم الدينيّة غالباً ما يصلّون أيضاً خلف هذا الرجل الكبير .

إنّ من يجلس إليه ساعةً تتبدّل حالته . . ويغدو إنساناً آخر . كان يحيىٰ حياة زهد عجيبة . وكان يلقي درساً في تفسير القرآن بين الطلوعين في مدرسة (خيرات خان) صباح كلّ يوم . ويحضر درسه عددٌ من كبار السنّ الزاهدين . كنت في السابعة عشر من العمر ، حين استأذنت لحضور درسه ، فما سمح لي تلاميذه . بَيْدَ أنّه هو نفسه أذِن لي بالحضور . . فتلقّيت خلال دروسه فوائد معنويةً كبيرةً .

قال في أحد الأيّام : رأيت البارحة كأني دخلت الحرم الشريف . . فشاهدت الجسد المقدّس للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) مُمَدَّداً باتجاه القبلة في وسط الحرم ، وكان الجسد الشريف مغطّىً بقطعة قماش بيضاء . وفي تلك الأثناء هبّت ريحٌ رفعت القماش عن جسد الإمام (عليه

السلام) ، فرأيت جسده المقدّس مُثَقَّباً ثقوباً كثيرةً جدّاً . فقلت للإمام (عليه السلام) : الذي أعرفه يا مولاي أنّك قد استُشهدتَ بالسمّ . . ولكنّي أرىٰ الآن علىٰ بدنك المقدّس آثار إطلاقات الرّصاص !

فقال (عليه السلام) : صحيح أنّي قُتِلت بالسمّ ، ولكنّ هذه الثقوب من أثر الذنب الكذائيّ الذي يرتكبه بعض الزوّار ، وعملهم هذا يخترق بدني كالرّصاص . (وذكر الإمام (عليه السلام) اسم ذلك الذنب) . وزاد الإمام (ع) ايضاحاً ، فقال : إذا كان هذا الذنب ــ وهو من الذنوب الصغيرة ــ يفعل هذا الفعل . . فكيف إذن بالذنوب الكبيرة ؟!

ثمّ قال الشيخ حبيب الله : إذا كان (يزيد) قد جعل الرأس المقدّس للإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) في الوسط ، وراح يرتكب المعاصي من حوله . . فنحن ــ سكنة مشهد ــ حالنا كذلك ، إذ جعلنا الجسد المقدّس للإمام الرضا (عليه السلام) في الوسط . . ونجترح المعاصي من حوله .

وصل في درس التفسير يوماً إلىٰ الآية (١٤٧) من سورة البقرة : ﴿**وزادَهُ بسطةً في العِلْم والجِسم**﴾ ، فقال : كان السابقون أقوىٰ منّا أجساماً ، ثم قال : في وقتٍ ما رأيت الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) واقفاً أمام حرم الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) وقد ألصقَ كتفيه المقدّسين بالضريح . . وهو يزور . رحمة الله عليه .

* * *

الشيخ محمد الكوفي

سافرتُ إلىٰ الكـوفة سنـة ١٣٣٢ش . ورأيتُ ثمّة رجـلاً يقال لـه الشيخ محمّـد الكوفيّ ، وكـان من الفائـزين مـراراً بلُقْيـا الإمـام الحجّـة ابن الحسن (أرواحنا فداه) .

ولقد ذكرت لي واقعةً وقعت له ، فقال : لـم تكن في ذلك الزمان سيّارات علىٰ طـريق العراق ـ الحجـاز . فسافـرت إلىٰ مكة علىٰ جمـلٍ . وفي طريق العودة حدث أن تـأخّرت عن القـافلة وضللت الطريق . . حتّىٰ وجـدت نفسي أُوغل في مكان مُـوحِل . . فغـطست أرجل الجمـل في الوحـل . لم يكن في وسعي أن أتـرجّل من الجمـل ، وكــاد الجمـل علىٰ هـذه الحـال أن يَنفق . . فصرخت من أعماقي دفعةً واحدةً :

يا أبا صالح المهديّ . . أدْرِكْني !

ورحت أكرّر هذه الإستغاثة مرّات . . حتّىٰ رأيت فارسـاً يقبل بـآتّجاهي حيث كنت في الموضع المُوحِل . . ولكنّ فرسه لم يغطس في الوحل ، فدنا من الجمل ، وهمس في أُذنه عبارات سمعت آخرها : « . . حتّىٰ الباب » . عندئذٍ تحرّك جَمَلي ، ورفع أرجله من الوحل ، وشرع يغذّ السير مسرعاً تلقاء الكوفة . التفتّ في وقتها إلىٰ هذا السيّد ، وسألتـه : من أنت ؟! فقال : أنـا المَهْديّ .

قلت : ومتىٰ ألقاك بعد ؟ فقـال : « متىٰ تريـد » . ابتعد بي الجمـل . . حتّىٰ وصل إلىٰ بوّابة الكوفة . . فَبَرك . تفطّنت في الحال ، فكرّرت في أذنه عبـارة « . . حتّىٰ الباب » ، فنهض فوراً ، حتّىٰ أوصلني إلىٰ باب منزلي . . ثمّ سقط على الأرض مرّةً ثانيةً ، وفي هذه المـرة وجدتـه قد مـات . (وقد ذكـرت هذه الواقعة أيضاً في كتاب : اللقاء بإمام الزمان (عليه السـلام) .

* * *

المرحوم آية الله سيد علي الرضوي

آية الله سيّد علي الرّضويّ المقيم في مشهد من أجلّاء السادة الرضويّة(١) ومن علمائهم . . وقد حَظِيت بصحبته بضع سنين .

كـان يحيا ، لسنـوات ـ علىٰ ذكر الإمـام بقيّة الله (عليـه آلاف التحيّـة والثناء) ولا يفكّر بأي شيء سواه (عليه السلام) . وكان ينتظر ظهور الإمام وليّ العصر (أرواحنا فداه) ، بحيث كان يتوقّع كلّ لحظة أن تمتلىء الـدنيا قسـطاً وعدلاً .

كـان ينشد شعـر الحبّ لمولاه . . ويـذرف الدمـوع (وكتاب « حـديقـة آل طه » واحد من مؤلّفاته) .

كنت أحبّ ولـد الإمام عليّ بن مـوسىٰ الرضـا (عليه السـلام) . . هذا العزيز ، أكثر من نفسي ، وكنت أقضي أغلب وقتي ـ خلال سنواته الأخيرة ـ إلىٰ جواره .

لقد كان ، بلا ريب ، مجتهداً في الفقه الإسلاميّ .

وكان شديد المخالفة للمتصوّفة . . وكتب شيئاً حول هذا الموضوع مازال

---

(١) السادة الرضويّة هم السادة الذين ينتهي نسبهم إلىٰ الإمام الرِّضا (عليه السـلام) .

غير مطبوع .

طالما فاز بلقاء الإمام بقيّة الله ، ولكنّه كان كتوماً . . بحيث ما كان يذكر حتّىٰ لي تفصيلاً عن الموضوع ، مع أنّي أحبّه من الأعماق .

خلال شهر رمضان عام ١٣٤٢ ش ، كنت معه في كربلاء المقدّسة ، وقد أفاضت عليّ صحبته هناك فيوضات جمّة .

كان في حرم الإمام سيّد الشهداء (عليه السلام) في حالة إقبال شديد . وما يخطر في باله حالتئذٍ غير الروح المقدّسة للإمام الحسين بن عليّ (عليه السلام) وسائر شهداء كربلاء .

كانت للمرحوم سيّد علي الرّضويّ عشرة سنين مع المرحوم الشيخ حسن علي الإصفهانيّ ، وقد استفاد من الشيخ كثيراً في معرفة العلوم الغريبة . . فكان يعالج لدغة الأفعىٰ ولسعة العقرب والأمراض المستعصية ، بالدعاء والأوراد والأذكار ، ولكنه يستخدم هذه العلوم عند الضرورة .

كنت أقول له أحياناً : لِمَ لا تستخدم هذه المسائل أكثر لإفادة الناس ؟ قال في جوابه : أنا لست طبيباً بيطريّاً ! إنّ عليّ أن أُعالج روحي أوّلاً ، ثم إذا استطعت أعالج أمراض الناس الروحيّة . ما كنت في حينها أفقه تماماً ما قاله المرحوم الرضويّ ، ولكني بعد ذلك فهمت مقالته حين أدركت حقيقة الإنسان ، وعرفت أنّ للإنسان بُعْدَين : حيوانيّ وإنسانيّ . وأنّ الصفات الإنسانية هي أهمّ ما في الإنسان . وبمقدار سموّ الروح الإنسانيّة والحياة الروحيّة علىٰ الجوانب الماديّة . . يكون مقدار سموّ معالجة الروح علىٰ معالجة الجسد . ومن أجل هذا كانت لرسول الله (صلّىٰ الله عليه وآله) فضيلة علىٰ سائر الأنبياء (عليهم السلام) بمزيد عنايته بمعالجة الروح ، وكانت معجزته : القرآن الذي هو هدىً ونور يعالج قبل كلّ شيء الروح الإنسانيّة . أمّا معجزات كبار الأنبياء من قبله (صلّىٰ الله عليه وآله) كإبراهيم وعيسىٰ (عليهما السلام) . .

فكانت في إحياء الموتىٰ وإبراء الأعمى والمُقْعَد .

ومع أنّ هؤلاء الأنبياء الكرام (عليهم السلام) كانوا يكدحون أولاً لتزكية أرواح الناس ، ولكنّ الفارق بينهم وبين رسول الله (صلّىٰ الله عليه وآلـه) أنّ معجزته القرآن ، ومعجزة النبيّ عيسىٰ (عليـه السلام) معـالجة الجسـد ، أي الجانب الحيوانيّ في القرآن .

كـان المرحـوم سيّد عليّ الـرضويّ يحتـرق عشقاً لإمـام الزمـان (عليـه السلام) . وقد قضيت معه أيّاماً في صحراء (شـاهان) الحـارّة ، الواقعـة في طرفٍ من مشهد . إذ كـان لا يكفّ كلّ يـوم عن التأوّه والأنين . . وكـان يمرّغ وجهـه بالتـراب ، ويقول : يـا حجة الله : إذا كنت أنـا لا أعـرف كيف يكـون الاستجداء ، فأنت تعرف كيف تكون السِّيادة . . فلا تَنْسَني !

وظلّ يبكي ويجود بالدموع . . وحين رفع رأسه من التراب كان جانب من وجهه ملطّخاً بالطين .

كان كثيراً ما يكرّر في مناجاته ما كان الإمام السجّاد (عليه السلام) يناجي الله (تعالىٰ) به : « مَنْ أنا حتّىٰ تغضبَ عَلَيَّ ؟! » . . أي : أنا من أكـون ؟! وما قيمتي حتّىٰ تغضب يا إلٰهي عليَّ . . وأنت بكلّ تلك العظمة والكبرياء ؟!

قـال أحدُ الأصـدقاء ـــ وهـو من أولياء الله : كنت عنـد رأس سيّـد علي الرضويّ حين كان في حالة الإحتضار ، فعـاينت بغتةً طيـوراً قد تجمّعت وراء نافذة الغرفة التي هو راقدٌ فيها بالمستشفىٰ . . ثمّ شرعت تصوّت أصوات مناحةٍ عجيبةٍ ، فدخلتُ إلىٰ غرفته ورأيته يُسْلم الروح ، وهو يلتفت ـــ بمحبّةٍ غامرة ـــ إلىٰ الأئمة الأطهار (عليهم السلام) . ثمّ فارق الدنيا . . ودفن إلىٰ جـوار قبر جدّه العظيم الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) . رحمة الله عليه .

* * *

المرحوم الشيخ علي فريدة الإسلام الكاشاني

كُلّ ما يُنْقل عن هذا الشاب ــ كما يقول هو نفسه ــ إنّما هو أثرٌ من آثار توسّله بالإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) .

منذ السنة التاسعة من عمره بدأ يدرس اللّغة العربيّة . . في نفس الوقت الذي التقىٰ فيه بإمام العصر (عجّل الله تعالىٰ له الفَـرَج) وعَرَفـه . وكان دائم التوسّل به ، بحيث أستطيـع أن أزعم أنّ ساعـةً واحدةً لم تمـرّ بدون أن يـذكر الإمام (عليه السلام) .

وببركات هذا التوسّل . . نبغ في دراسـة العلوم الظاهـريّة ؛ ففي السنـة الحادية عشرة من عمره نظم شعراً عجيباً يعارض فيه (ألفيّة ابن مالك) في علم النحو ، وقد طبع ما نظمه في كتابٍ ، وأوّله :

أين ابنُ مـالـكٍ . . لِيَنْـظُرَنَّ مـا نَـظَمْتُـهُ ، فَيَتْـرُكَنْ ما نَـظَمـا ؟!

كان يقول :

تـاريـخ ولادتي كـان أبي قـد سجّله ، يـومـاً وسـاعـةً ، علىٰ غـلاف المصحف . وفي السنة الخامسة عشر من ذكرىٰ يوم مولدي . . كنت واعياً إلىٰ أني قد أصبحت مكلّفاً بالتكاليف الشرعيّة . في تلك السـاعة كنت في مشهـد حيث قصدت الحرم المطهّر للإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السـلام) . .

وكنت أحسّ خلالها أنّي في الوقت الذي غدوت فيه موضع لطف من ألطاف الله ومشرّفاً بالعبوديّة له ، فقد حملت علىٰ كاهلي عبئاً ثقيلاً لا أقوىٰ بمفردي إطلاقاً علىٰ الوفاء به ؛ فانّ نبيّ الله يوسف (عليه السلام) نفسه كان يقول : ﴿**وما أبرّيءُ نفسي إنّ النّفْس لأمّارةٌ بالسّوء**﴾ . وهذا الإحساس دفعني إلىٰ التوسّل في حرم ثامن الحجج (عليه السلام) ، فعسىٰ أن يعينني علىٰ النهوض بهذا العبء الثقيل .

حين أدرك المرحوم الشيخ علي الكاشانيّ سنّ العشرين ، كان قد بلغ درجة الإجتهاد المطلق ، وأجازه بعض مراجع التقليد إجازة الإجتهاد .

قال عنه أحدُ الأعلام والمراجع ـ كما ورد أيضاً في شعر قيل لمدحه ـ إنّه بحرٌ زاخرٌ باللآليء ، تستطيع في محضره أن تتعلّم منه كلّ ما تشاء .

ألّف المرحوم كتاباً في أصول الفقه طبع بعد وفاته بعنوان (فريدة الأصول) ، استفاد منه العلماء والطلّاب .

كان المرحوم الشيخ علي الكاشانيّ كثير التوسّل بالمقام المقدّس للإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) . ولا أنسىٰ أنّي كلّما كنت أخرج من غرفتي بالمدرسة الحجتيّة في منتصف الليل كنت أراه واقفاً قبالة النافذة يبكي علىٰ الإمام وليّ العصر (عليه السلام) بأنينٍ وحنينٍ ، بكاء العاشق . . فيخاطبه ويناجيه (وقد دوّنت واقعةً له أو واقعتين في كتاب : اللقاء بإمام الزمان (عليه السلام) .

قلّة هم الأشخاص الذين أدركوا المرحوم الشيخ علي الكاشانيّ ، ولم يجدوا فيه هذه المزايا .

١ ـ كان يسجد بعد صلاة المغرب والعشاء كلّ ليلة سجدةً تستغرق ساعةً تقريباً . . فيدعو ويبكي بكاءً لا يستطيع أحد أن يصرفه عنه .

٢ ـ كان في كلّ أوقاته في حالة مراقبة لنفسه عجيبة ، وحتّىٰ حركاته العاديّة كانت موجّهةً ، ولا ينام في الليل قبل أن يحاسب نفسه .

٣ ــ عندما يرد ذكر الأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) ما أشدّ ما يطفح حبّه وعشقه لهم (عليهم السلام) بصورةٍ لم أرَ نظيراً لحرارتها بين أولياء الله الذين رأيتهم ، علىٰ كثرة مَنْ رأيت منهم .

لا يغيب عن بالي أني رأيته يذرف الدمع وبدنه يرتجف حين سئل يوماً : أيّهما أعلىٰ مقاماً عليّ الأكبر (عليه السلام) أم آدم (عليه السلام) ؟ فقال وهو علىٰ تلك الحال : قسماً بالله . . لو لم تكن في قلب آدم محبّة علي الأكبر (عليه السلام) لما وصل إلىٰ مقام النبوّة .

ما كان كلامه هذا نابعاً من محض الإحساس ، وانّما قاله انسجاماً مع المعتقد . ولهذا الموضوع أدّلة ذكرها الباحثون فيما ألّفوه من كتبٍ حول فضائل السادة ومعارف أهل بيت العصمة (عليهم السلام) ، ممّا يطول بنقلها ــ إذا أوردناها ــ هذا الكتاب .

ودّع المرحوم الشيخ عليّ الكاشانيّ هذه الدنيا وهو ابن أربع وعشرين سنة . وكان قال لي في مشهد قبل وفاته بشهرٍ واحدٍ : أصدقائي ليسوا هنا ، وأنت لا تسأل عنّي إلاّ قليلاً .

قلت له : غداً آتي لزيارتك في مدرسة (خيرات خان) .

فقال : لا مانع ، سأكون في انتظارك .

في اليوم التالي . . ذهبت لزيارته ، واستفدت منه فوائد جمّة . ومن جملة ما كان في هذه الزيارة أن أحد الأصدقاء ذكر أنّ الشيخ قال له : رأيت رؤياً . . وظنّي أنّي سأغادر الدنيا مبكّراً .

قلت : وماذا رأىٰ ؟

فقال لي هذا الصّديق : إنه قال : رأيت في عالم الرؤيا أنّي تشرّفت بلقاء الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) . وسلّمت عليه ، فأجابني الإمام (عليه

السلام) بقوله : « وعليكَ السّلامُ ، يا شيخ الشّهداء » ! قلت له : ولمَ أجبتني يا مولاي هذا الجواب ؟ فقال : ألا تريد أن تكون كذلك ؟ قلت : إنْ شاء الله .

فقال الإمام (عليه السلام) أيضاً : إنْ شاء الله .

أمّا أنا فقد قلت للشيخ حين سمعت هذا : بعد عمر طويل . . ترحل عن هذه الدنيا ، إنْ شاء الله . . وأنت كبير الشهداء وعالِمُهم .

ولكنه لم ينطق بحرفٍ . ثمّ نسينا الموضوع خلال تلك الجلسة ، وتحدّثنا في موضوعاتٍ أخرىٰ .

ذهب المرحوم يوماً من مشهد إلىٰ إحدىٰ القرىٰ الواقعة حول منطقة (رُودْ سَرْ) ، وكان قد دُعي إليها من قبل . وذكر مضيّفه أنه صلّىٰ المغرب والعشاء ثمّ انصرف ــ كما هو دأبه ــ إلىٰ الدعاء والمناجاة . . حين بلغنا أنّ سيلاً كان ينحدر إلىٰ قريتنا من قريةٍ أخرىٰ .

فقلت له : أدْعُ الله ألّا يجتاح هذا السّيل قريتنا ، أو لا يوقع بنا ضرراً .

فقال : كلّا . . لن يضرّكم السيل . ثمّ أهوىٰ فسجد سجدةً للدعاء والمناجاة . . ولكن صوته انقطع بعد لحظاتٍ ، وحين دنوت منه . . وجدته قد فارق الدنيا ، رحمه الله .

حُملت جنازته إلىٰ قم . . ودُفن في مقبرة المرحوم الشيخ عبد الكريم .

وقد أمر أحدُ مراجع التقليد أن تكتب علىٰ قبره عبارة : « المخاطَب مِنْ قِبَل صاحبِ الزّمانِ عليه السّلام : (وعليكَ السّلام يا شيخ الشيهداء) » .

* * *

سيد عبد الكريم

أعرف في طهران رجلاً خَفّافاً اسمه (سيّد عبد الكريم) . وقد كنت أراه قليلاً . . لا لأنّ رابطة لم تكن بيني وبينه ، وإنّما لصغر سنّي في ذلك الوقت . . فأدركت بعض أيّامه . وكان أكثر علماء أهل المعنىٰ يعتقدون أنّ الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) كان يأتيه أحياناً في دكانه المتواضع البسيط فيجلس إليه ، ويتحدّث معه .

ومن أجل هذا كان بعض هؤلاء العلماء يقعدون في دكّانه ساعات ، علىٰ أمل أن يدركوا الوقت الذي يحضر فيه الإمام وليّ العصر (عليه السلام) ، وربّما فاز بعضهم بلقاء الإمام (أرواحنا فداه) .

ما كان سيّد عبد الكريم من أهل الدنيا ؛ فلم يكن يملك حتّىٰ بيتاً للسُّكنىٰ .

ولقد روىٰ لي رجلٌ من تجّار طهران ــ وكان موثقاً لدىٰ كبار العلماء والمراجع ــ أنّ المرحوم سيّد عبد الكريم كان مستأجراً منزلاً من أحد أهالي طهران . ولم يكن صاحب المنزل يراعيه كثيراً . وحين مضت سنة علىٰ عقد الإيجار والاستئجار لم يوافق المؤجِّر علىٰ تمديد مدّة العقد . . وأمهله مدة عشرة أيام لإخلاء المنزل .

وجاء اليوم العاشر ، ولم يكن سيّد عبد الكريم قد وجد بيتاً آخر يستأجره ، فأخلىٰ المنزل بناءً علىٰ وعده بالإخلاء بعد عشرة أيام . . ووضع وسائله ولوازمه في جانبٍ من الزقاق ، وهو لا يدري ماذا يفعل .

في هذه الأثناء أقبل إليه الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) ، وقال له : لا تبتئس ؛ فإنّ أجدادنا قد تحمّلوا مصائب كثيرةً .

فقال سيّد عبد الكريم : صحيح ، ولكنّ أحداً منهم ما آبتُليَ بمذلّة الإستئجار !

تبسّم إمام الزمان (عليه السلام) وقال ما معناه : هذا صحيح . . ولقد رتّبنا وضعك ، وأنا ذاهب الآن . وستُحلّ مسألتك بعد دقائق .

أضاف التاجر الطهرانيّ راوي الواقعة : في الليلة السابقة علىٰ ذلك كنت قد رأيت الإمام وليّ العصر (عليه السلام) في الرؤيا ، وقال لي : اذهب غداً صباحاً واشترِ الدار الفلانية في الزقاق الفلانيّ لسيّد عبد الكريم ، وستجده في الساعة الفلانيّة في الزقاق الفلاني لتسلّمه المفتاح .

ثمّ صحوت من النوم . . وقصدت في الساعة الثامنة صباحاً الدار المقصودة ، فسمعت صاحب الدار يقول : لأنّي مَدِين . . توسّلت البارحة بالإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) لأفلح في بيع الدار وأسدّد دُيوني . اشتريت الدار . . وتسلّمت المفتاح . وحين رأيت سيّد عبد الكريم كان الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) قد فارقه في تلك اللحظة .

رحم الله ذلك الرجل ، ورحم المرحوم سيّد عبد الكريم .

المرحوم الحاج سيد رضا الأبطحي

في خاتمة المطاف أجد لزاماً عليّ أن أتحدّث عن زاويةٍ من حياة رجل . . ربّما كنت الوحيد الذي عرفه إلىٰ حدّ ما . ذلكم هو والدي المرحوم سيّد رضا الأبطحيّ .

لقد كان (رحمه الله) ولا ريب من المنتظرين لظهور الإمام صاحب الأمر (أرواحنا فداه) . . فكان لا يستقرّ علىٰ فراقه في ليلٍ ولا نهارٍ .

كان يقول : في أوّل شبيبتي . . قدم إلىٰ مشهد أحدُ تجّار إصفهان ، وقال : في منزلي غرفة كبيرة جعلتها حُسَيْنِيّة أقيم فيها مجلس العزاء ، في الأسبوع مرّة علىٰ الأقلّ .

في إحدىٰ الليالي رأيت في المنام ــ والكلام ما يزال للرجل الإصفهانيّ ــ كأني خرجت من منزلي قاصداً السوق . فالتقيت بعدد من العلماء مقبلين إلىٰ منزلنا ، وقالوا لي حين وصلوا إليّ : أين أنت ذاهب . . وفي منزلك مجلس عزاء ؟!

ولكنّي قلت لهم : ليس لدينا مجلس عزاء ، الآن كنت في الدار ، وما ثمّة من مجلس !

قالوا : ألَا تعلم أنّ الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) قد حضر المجلس ؟!

حين سمعت ما قالوا . . أردت الدخول إلىٰ الدار علىٰ عجل .

ولكنّهم قالوا : أدخل بكلّ أدبٍ . فدخلت متأدّباً . . وهناك رأيت بقيّة الله (أرواحنا فداه) قد تصدّر المجلس ، وحوله جمع من العلماء والسادة والكُبَراء .

جلست بين يديه علىٰ رُكبتيّ ، وقبّلت يده المباركة ، وقلت له أوّل ما قلت : يا مولاي . . ليس مظهرك غريباً عنّي ، فأين كنت رأيتك ؟

فقال الإمام (عليه السلام) : أنسيت أنّك رأيتني في المسجد الحرام هذا العام ، في منتصف ليلة أردت أن تجعل ثيابك فيها إلىٰ جانبي وتذهب لتتوضأ . . وكنت تريد أن تضع كتاب (مفاتيح الجنان) فوق ثيابك ، فقلت لك : ضعه تحت ثيابك ؟!

قلت : نعم . . جُعِلْتُ فِداك ، الآن تذكّرت .

(استطرد هذا الرجل وهو يقصّ رؤياه : في تلك السنة ذهبت إلىٰ الحجّ . وفي إحدىٰ الليالي لم تغمض لي عين ، فقلت : الأفضل أن أذهب إلىٰ المسجد الحرام لأستثمر هذه الفرصة . وحين وردت المسجد الحرام رأيت سيّداً مهيباً جالساً في إحدىٰ الزوايا ، فمال قلبي إليه ، وأقبلت إليه وسلّمت عليه . . فردّ السلام . وقد رأيت أنّه يتكلّم الفارسية بطلاقةٍ ، فقلت له : اجعل ثيابي إلىٰ جانبك أيّها السيّد ، حتىٰ أذهب لأتوضأ .

فقال : لا مانع ، ولكن ضع كتابَ المفاتيح تحت ثيابك .

فعلت ما أمر . . وذهبت ، فتوضأت ، ثم عدت وجلست إليه مدّةً . ولكنّي ما فطنت في حينها ــ ولم أحتمل ــ أنّه هو إمام الزمان « أرواحنا فداه ») .

ثمّ سألت الإمام (عليه السلام) في الرؤيا : متىٰ يا سيّدي فَرَجكم ؟

فقال لي : قريب ، وقل لشيعتنا يدعوا بدعاء (النُّدْبة) ، ويدعو لنا بالفرج .

ثمّ إنّ أبي (رحمه الله) قال : بعد سماعي هذه الواقعة . . أقمت أوّل مجلس لدعاء النُّدْبة في مشهد . وكان بين حُضّار المجلس شاب طاهر السريرة اسمه (سيّد عبّاس) ، كثير البكاء في المجلس علىٰ فراق إمام زمانه (عليه السلام) ، وكان يجود بسخيّ الدموع .

هذا الشابّ قال لنا صباح يوم جمعة (وهو وقت قراءة دعاء النّدبة) : البارحة رأيت رؤيا مُبَشِّرة : رأيت أنّ كلّ الذين يحضرون المجلس كانوا ثمانية أشخاص وأنا تاسعهم . . رأيتهم جالسين داخل خيمة . فدخل الخيمة ، علىٰ حين غَرّة ، رجل يقول : لقد ظهر الإمام بقيّة الله (عليه السلام) ، تعالَوا نلتحق بركابه . عندها خرجتم من الخيمة . وكانت ثمانية خيول وثمانية بدلات معدّة لكم ، فارتديتم البدلات وركبتم الخيول ، وأزمعتم علىٰ الحركة ، فقلت لكم بتوسّل : إذن . . لماذا لا تأخذونني معكم ؟! أرجوكم . . خذوني معكم !

فقلتم لي : أنت لا تصل . ثمّ استيقظت من النوم .

وذكر أبي أنّ ذلك الشابّ أصابه ، بعد أشهر ، موت الفجأة وفارق الدنيا . وكان هذا تأويل قولنا له في الرؤيا : إنك لا تصل ، أي انه لا يُدرك زمن الظهور .

هذه الحادثة رواها لي والدي بعد أربعين سنة ، وقال : ما يزال هؤلاء الأشخاص الثمانية علىٰ قيد الحياة ، وأنا مطمئنّ أننا نبقىٰ أحياء إلىٰ ظهور الإمام وليّ العصر (عليه السلام) .

وقد فاز (رضوان الله عليه) مرّات بلقاء الإمام بقيّة الله (عليه السلام) . وكان يسعىٰ جاهداً للوصول إلىٰ هذه السعادة العظمىٰ .

كنت معه في سفرةٍ إلىٰ بيت الله الحرام لأداء العمرة المفردة . وقد رأيته

في منتصف إحدىٰ الليالي يبكي في المسجد الحرام كما تبكي المرأة ، فسألته : ماذا جرىٰ ؟!

فقال : منذ أوّل الليل وأنا أطوف حول الكعبة علىٰ أمل زيارة الإمام بقيّة الله (صلوات الله عليه) ، ولكنّي لم أوفّق لزيارته حتّىٰ الآن . عندئذٍ رحت أصبّره وأسلّيه وقلت له : من المحتمل جدّاً أن تحظىٰ الليلة بما تريد .

تشرّف والدي بزيارة العتبات المقدّسة في العراق مرّات عديدة قبل أن أوفّق أنا إلىٰ هذه الزيارة .

وقد قال لي بعد عودته من إحدىٰ الزيارات : ذهبت يوماً إلىٰ مقبرة (وادي السلام) في النجف الأشرف . . وهناك وجدت بوّابةً كبيرةً نظرت من فُرْجةٍ فيها . . فشاهدت حديقةً فسيحةً غنّاءً تجري من تحت بناياتها السّواقي . ومدّة بقائي في النجف كنت أذهب كلّ يوم وأقف لدىٰ البوّابة عسىٰ أن تُفْتَح لأدخل وأرىٰ الحديقة علىٰ نحو أفضل . . ولكنّي لم أوفّق .

حكىٰ لي ذلك مرّات . وحين ذهبت بعدئذٍ لزيارة العتبات المقدّسة . . قصدت وادي السلام ، لأرىٰ تلك الحديقة . ولكنّي دُهشت إذ لم أجد لتلك الحديقة من أثرٍ ، بل وجدت الأمر علىٰ العكس : فالأرض في مقبرة وادي السلام ليست مؤهّلة لإنبات حتّىٰ شجرة واحدة ؛ فوادي السلام أرضه جافّة صالحة لأن تكون مقبرةً . . وحسب .

ولمّا رجعت إلىٰ إيران . . ذكرت للمرحوم والدي ما وجدت . وتحدّثنا قليلاً حول الموضوع . وبعد سنوات سافر المرحوم مرّةً أخرىٰ إلىٰ النجف ، فانكشف الأمر : لقد كانت عينه البرزخيّة قد انفتحت في تلك المرّة ، فرأىٰ ما لم يَرَه الآخرون .

كان يقول :

في ليلةٍ من اللّيالي ــ وأنا أتهجّد في وقت صلاة الليل ــ أحسست أنّي قد

تخفّفت وبدأ شعوري يَشِفّ . وفي قنوت مفردة الوِتْر من صلاة **الليل** بدأت ارتفع عن الأرض ، فانتابني الخوف ، وعدت مرّةً أخرىٰ الىٰ الأرض .

كان أحدُ جيران المرحوم رجل اسمه (مشهدي أحد) لا يحسن اللهجة الفارسيّة وينطقها إذا نطق بصعوبة . ولكنّ كان شديد النّقاء وملتزماً بالفرائض والمستحبّات ، وكثير التوسّل بأهل بيت العصمة والطّهارة (عليهم السلام) .

مودّته لأبي كانت مودّة وثيقة ، حتّىٰ انهما عقدا بينهما (عَقْد الأُخوّة) . وكنت أنا أناديه في حداثة سنّي بـ (عَمّو) . ويحدث أحياناً أن يقول لي أبي عنه : إنه ما كان مسلماً ، ثمّ دخل في الإسلام بمعجزةٍ من الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) .

وكان يرافقهما أحياناً رجلٌ يقال له (مشهدي حسن) ويأنس إليهما . وذكر والدي أنّ (مشهدي حسن) هو سبب هداية (مشهدي أحد) .

لم يكن عمري بالمستوىٰ الذي يشرح لي فيه والدي أو أحد هذين الرجلين تلكم الواقعة . ولكنّي كنت أتسمّع أطرافاً منها حين كانوا ينقلونها للآخرين .

حتّىٰ كان يوم سرد فيه والدي الحكاية لعدد من علماء أهل المعنىٰ كانوا في منزلنا ، بمحضرٍ من (مشهدي حسن) و (مشهدي أحد) . . فكان هذان الرجلان يؤيّدان ما يروي ، وربما كانا يصحّحان أحياناً بعض التفصيلات .

قال :

(مشهدي أحد) كان نصرانيّاً من أتباع روسية . وكان أحد ضبّاط الجيش الرّوسيّ الذي هاجم إيران في الحرب العالميّة الثانية ، ولكنّه ما ان دخل مشهد مع الداخلين الرّوس . . حتىٰ قعد به مرضٌ شديدٌ . . واستأجر غرفةً في فندق (مشهدي حسن) . وفضّل أن يظلّ وحيداً في الفندق علىٰ الذهاب إلىٰ

المستشفىٰ أو إخبار أحد من أتباع روسية في مشهد ؛ لأنّه يعلم أنّه إذا حُوّل إلىٰ الجيش الروسيّ ــ في حالة الحرب تلك ــ فسوف يعاني من الإهمال والتّلف . فراجع طبيباً خصوصيّاً ، ولكنّ حالته كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم . والـذي كان يعنىٰ بتمريضه في الفندق هو (مشهدي حسن) ، وكان يتفاهم معه باللغة التّركيّة .

الـطبيب المعالـج أخبر (مشهـدي حسن) يومـاً أنّ مريضـه غيـر قـابـل للعلاج . . وأنّ سيكفّ عن المجيىء إلىٰ الفندق لمعـالجته . تـألّم (مشهدي حسن) علىٰ حالة نزيل فندقه النصرانيّ ، وعزم علىٰ أن يعرّفه بالدين الإسلاميّ المقدّس ، لعلّه يغدو مسلماً في آخر أيّام حياته .

ولكنّه فكّر : أنا لا أعرف شيئاً من أدلة إثبات أحقيّة الإسلام ، ثم إنّي لا أستطيع أن آخذه ــ وهو في حالة استخفاء ــ إلىٰ أحد العلماء .

فما وجدت أمامي من سبيل إلاّ أن أذكر له ما أعرف من معجزات الإمام عليّ بن موسىٰ الرِّضا (عليه السلام) . . فربّما يلين قلبه ويميل إلىٰ مقام الولاية الإلٰهيّـة . ذهبت إليه وذكـرت له وقـائـع من معجـزات الإمـام الـرضـا (عليـه السـلام) ، وقلت له : إنّ الإمام حيٌّ وقادرٌ علىٰ شفـائك ، وان كـان قد غـادر الدنيا .

فقال صاحبي . . والدموع تجري من عينيه : ولكنّي لست مسلماً . . ولا طريق لي إلىٰ الحرم !

قلت هنا : لو توسّلت وأنت هنا فإنّ الإمام يجيبك . ولم أُضِفْ شيئاً . بيد أنّ حالة صاحبي اهتاجت وصار يسحّ الدموع . كان شديد التأثّر ربّما لظنّه أنّـه سيموت في الغربة .

وعلىٰ أيّ حـالٍ . . جاء الليـل ، وذهبت إلىٰ غـرفتي ، وأخلد هـو إلىٰ النوم . وبين كلّ بضعة دقائق كنت أتفقّده خشية أن يموت ولا أحد إلىٰ جواره .

وقبل أذان الفجر بساعةٍ أو ساعتين . . سمعت ــ وأنا مستغرقٌ في النومَ ــ طَرْقاً شديداً علىٰ باب غرفتي . صحوت . . وفتحت الباب ، فوجدت الطارق هو نفس الرّجل المريض الذي لم يكن يقوىٰ علىٰ أن يتحرّك من مكانه . . كان يصيح : تعال نذهب ، لنشكر هذا الطبيب ، لنشكر هذا الإمام ! لقد شفاني !

قلت : وكيف شفاك ؟!

قال : رأيت في المنام أنّي دخلت حرم الإمام الرِّضا (عليه السلام) ، فخرج من الضّريح سيّدٌ عظيمٌ وقال لي بعنفٍ : لماذا جئتَ إلىٰ هنا ؟!

قلت : جئت إلىٰ الطبيب ، أنا مريضٌ .

فقال لي مرّةً أخرىٰ : أقول لك لماذا جئت إلىٰ هنا ؟!

فقلت له بحدّةٍ : أقول جئت إلىٰ الطبيب . . فشافِني !

عندئذٍ قال لي : أشفيك . ولكنْ عليك أن تذهب إلىٰ ولدي حسين ، وتُسلم .

قلت : علىٰ العين !

ثمّ أخرج هذا السيّد شالَيْن أخضرين ، فوضع أحدهما علىٰ جانبي الأيمن ، والآخر علىٰ الجانب الأيسر . . ثمّ انطوىٰ المنام ، وأفقت . فوجدت أنّ مرضي قد بريء بالمرّة .

وأعجب من هذا أنّي سألته ــ والكلام هنا لــ (مشهدي حسن) ــ عن صفة الأروقة والحرم الطاهر ، فوصف الأروقة والحرم كما هو الواقع تماماً . وما ثمّة احتمال أن يكون قد رأىٰ الحرم من الداخل قبل هذا ؛ لأنّه أمرٌ متعذّرٌ عليه .

في الصباح أصرّ عليّ كثيراً أن ينفّذ ما قاله له الإمام (عليه السلام) : « اذهب إلىٰ ولدي حسين ، وأَسْلِم » . فكان علينا أن نذهب إلىٰ المرحوم آية الله العظمىٰ سيّد حسين القمّي الذي كان في مشهد آنذاك ، ليتشرّف

صاحبي بالدخول في الدين الإسلاميّ المقدّس علىٰ يَدَيْه .

أخذته إلىٰ محضر المرحوم آية الله العظمىٰ القمّي ، وحكىٰ له ما جرىٰ . . فبكىٰ آية الله القمّي وبكىٰ ، ثمّ أسلم صاحبي علىٰ يَدَيْه ، وجعل له اسم (مشهدي أحد) .

ويعلم كلّ المتدينين في مشهد أنّ هذا الرجل كان يدخل أوّل الداخلين إلىٰ الحرم الطاهر حين تفتح أبوابه قبل الفجر ، ويظلّ منهمكاً بالدعاء والصلاة والزيارة ، حتىٰ مطلع الشمس . واستمرّ علىٰ هذه الحال إلىٰ آخر حياته (رحمة الله عليه) .

وكلّما كان (مشهدي أحد) يأتي إليّ يقول لي : يا فلان . . إسْعَ لأنْ تلتقي كثيراً بالإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) ؛ فانك ستفوز عندئذٍ بأكبر الفيوضات والسعادات .

وقد ذكر لي أبي أنّ (مشهدي أحد) نفسه قد حَظِيَ بهذه السعادات ، ومن المؤكّد أنّه في عِداد أولياء الله .

وقال أبي عنه : إنّه كان يقول لي أحياناً : تأويل رؤياي صار واضحاً . . إلّا أنّي لا أدري ما معنىٰ الشالَّيْن الأخضرين اللّذين وضعهما الإمام علىٰ كتفيّ .

ولكنّه نفسه قال يوماً : خطب إليّ ابنتيّ أَخَوان من السادة الذين يعملون في خدمة حرم الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا (عليه السلام) ، وأظنّ هذا هو معنىٰ الشّالَّيْن الأخضرين .

كان المرحوم والدي من الأشخاص الذين ربّما تشرّفوا مرّات برؤية الإمام بقيّة الله (عليه السلام) ، كانت أُولاها وهو في سنّ السادسة عشرة ، وقد دوّنت ذلك فيما مرّ من هذا الكتاب ، وفي كتاب (اللقاء بإمام الزمان عليه السلام) .

وكان يرىٰ أنّه سيظلّ حيّاً في هذه الدنيا حتىٰ أيام ظهور إمام العصر

(عجّل الله فَرَجه) .

ومن أجل هذا كان يقول لي حين يطرأ عليه طاريء من مرضٍ : لا تغتمّ . . لا أموت الآن ، وسأتماثل للشفاء ؛ لأني سأحيىٰ حتّىٰ أشهد **أوان** الظهور .

وفي عام ١٣٥٦ ش في الرابع والعشرين من شهر شعبان كنت قد ذهبت إليه ، وكانت به وعكةٌ خفيفةٌ . . فهمس في أذني قائلاً : الجمعة ــ بعد الآتية ــ أفارق الدنيا !

فقلت له : ولكنّك كنت تقول إنّك ستحيىٰ إلىٰ زمان ظهور الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه) !

قال : نعم ، كان ذلك هو المقدّر ، ولكنْ قيل لي : تعبتَ من هذه الدنيا ، فآرحل عنها الآن ، وتستطيع ان ترجع إليها مرّةً أخرىٰ إذا أردت . . فإنّ زمان الظهور قد تأخّر قليلاً .

بعد هذا اشتدّ به المرض . . فكنت أعوده في كلّ يومٍ ، وهو بانتظار حلول يوم الجمعة . حتىٰ إذا جاء يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان ١٣٥٦ ش . . كان هو اليوم الموعود . ولمّا جئته ليلتها . وسالته عن حاله ، قال :

حالتي حسنة جدّاً . كنت أتمنّىٰ شيئين . . وقد تحقّقا . **الأول** : أن أذهب إلىٰ لقاء المحبوب هذه الجمعة كما وعد . **والثاني** : أنّي كنت أتمنّىٰ أن يكون أبنائي من حولي حين أغادر الدنيا . . وهم موجودون الآن .

ولقد اجتمع حقّاً كل أبنائه يوم الخميس السابع من شهر رمضان ــ أي قبل وفاته بيومٍ واحدٍ ــ في مشهد . . بعد أن كان بعضهم في قم . وفي اليوم الموعود ــ أي يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان عام ١٣٥٦ ش ذهب إلىٰ لقاء

الله . . رحمه الله .

* * *

سردتُ لرفاق طريق السعادة هذه الوقائع من حياة أولياء الله هؤلاء . . وفي خاتمة الأمر ، قالوا لي جميعاً : لقد استفدنا . ولكنّ سؤالين ما يزالان . . أحدهما مختصر والآخر مفصّل . . لو سمحت !

من الطبيعيّ أن يكون جواب طلبهم بالايجاب . طرحوا السؤال المختصر ، فقالوا :

خلال ذكر طرف من سيرة والدك عرفنا أنّه وُعِدَ أن يحيىٰ إلىٰ زمان الظهور . . وقالوا له أيضاً : تعبت من الدنيا ، فارحل عنها ثم عُدْ . فهل العودة إلىٰ الدنيا في زمان الظهور بإرادة الإنسان ؟

الجواب :

لا شكّ أنّ الإعتقاد بالرجعة من ضروريّات المذهب الشيعيّ ، بل من ضروريات الأديان كافّة . والرجعة بتعريف جامع هي : « رجعة الرّوح إلىٰ البدن في هذه الدنيا قبل نشور القيامة » .

وما من ريب أنّ هذا المعتقد موجودٌ ـ إجمالاً ـ في كلّ أديان العالم الحيّة ؛ فانّ عيسىٰ (عليه السلام) كان يحيي الموتىٰ في هذه الدنيا ، وكذلك سائر الأنبياء الذين ذُكروا مرّات في التوراة والإنجيل والقرآن . والرجعة التي هي من المسلّمات في الإعتقاد الإسلاميّ . . تعني رجعة كلّ الناس أو بعضهم في زمان ظهور دولة الحقّ العالميّة . والبحث في هذه المسألة يحتاج إلىٰ تفصيل تكفّلت به أكثر الكتب الإعتقاديّة .

ولكنْ . . هل من الممكن أن تكون رجعة الإنسان بإرادته ، فإذا أراد أن يرجع رجع . . وإلّا فلا ؟

ليس هذا ببعيد ؛ فانّ بعض الأولياء ، من شدّة قربهم من الله **(تعالىٰ)** يعطيهم الله (تعالىٰ) كلّ ما يريدون .

ولكنْ كيف يختار أولياء الله العودة مرةً أخرىٰ إلىٰ سجن الدنيا ، فينأون عندها عن محضر الأنبياء والشهداء والصدّيقين والأئمة الهداة (عليهم السلام) ؟ . . إلّا إذا أراد الله (تعالىٰ) ذلك لمصالح ؛ فانّهم ـ في هذه الحالة ـ يلبّون ما أراد الله (جلّ جلاله) ، ولا بدّ أنّهم حينئذٍ يرجعون .

أمّا السؤال الآخر . . فقد سأله أحد أولياء الله ممّن بلغ مقام « الوصال » ، ولكنّه أراد ـ من خلال إجابتي عن السؤال ـ تعريف الآخرين ، فقال : هل يمكن للإنسان أن يصل إلىٰ مقام يكون فيه دائماً في محضر الله والنبيّ والأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) ؟

والجواب :

لا ريب أن القرآن الكريم قد صرّح ـ والدلائل العقليّة كذلك تشهد ـ أنّ الله (سبحانه) قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً . . فلا مكان ولا زمان ولا شيء يندّ ويعزب عن الإحاطة الإلهيّة . كان الله كذلك ، وهو علىٰ ما هو عليه الآن ، وسيظلّ علىٰ ما هو عليه (جلّ شأنه) . إنه خالقُ الموجودات المحدودة الذي لا يحدّه حدّ . ولأنّ هذه الموجودات مخلوقة فانّها لم تكن شيئاً قبل أن تُخْلَق . ولأنّها مخلوقةٌ محدودة . . فانّها صائرةٌ إلىٰ الزوال .

ثمّ ان المخلوقات منها ما هو محدودٌ . ومنها ما هو أكثر محدوديّة . ومحدوديّة بعضها في كونه خلقاً من خلق الله ، أي انه ما كان . . ثمّ كان . وبعضها عباد لله في التكوين والتشريع . وبعضها محدود ١٠٠٪ ، بل انها تحت

إحاطة أكثر المخلوقات .

وبناءً على هذا . . فإننا إذا اعتقدنا أن من هذه المخلوقات ما له إحاطة بما سوىٰ الله (تعالىٰ) وله حضور في كلّ مكانٍ ، وإحاطة علميّة بكلّ شيءٍ . . إلّا الذات الأحديّة المقدّسة التي تجلّ عن الإحاطة بها . . فاننا عندئذٍ لا نكون قد نطقنا بكلمة الكفر ، ولم نَغْدُ مشركين .

وبعبارةٍ أوضح : إذا اعتقدنا أنّ الله قد أحاط بالمخلوقات علماً ، فهو (سبحانه) يسمعها ويراها ، ويعلم ما يخطر في باطن أدقّ الكائنات في أقصىٰ أجرام السماوات ، فلا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء . . إذا اعتقدنا ذلك ، فانّ من ضرورات الإعتقاد الحقيقيّ ، ومن مُسَلّمات الإسلام التي لاخفاء فيها أن نعتقد بأنّ الله (جلّ جلاله) قد وهب خيرة خلقه وأكرم عباده رسوله محمّداً (صلّىٰ الله عليه وآله) وأوصياءه الأكرمين (عليهم السلام) هذا الاطلاع علىٰ الكائنات ، فلا يخفىٰ عليهم منها شيء .

ولا يقولَنّ قائلٌ : إذن ماذا بقي لله (تعالىٰ) من العلم بالكائنات ؟! فانّ من الكفر أن نقول إنّ الذات الإلٰهيّة المقدّسة المطلقة التي لا تُحَدّ . . لا تحيط إلّا بمخلوقاتها المحدودة !

وفيما يتّصل بالنبيّ الأكرم وأوصيائه المعصومين . . فانّهم يحيطون علماً بهذه المخلوقات المحدودة . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فما معنىٰ هذه الآيات الشريفات إذن ؟

١ ـ ﴿وكلَّ شيءٍ أحْصَيْنَاهُ في إمامٍ مُبين﴾ .

وهذه الآية الكريمة في إطلاقها ﴿وكلّ شيء . . .﴾ تنصّ علىٰ أنّ علمهم غير محدود . ومن المؤكّد أن إحاطتهم بما سوىٰ الله ممّا لا ريب فيه .

٢ ـ ﴿وقُلِ آعملوا فسَيَرىٰ اللّهُ عَمَلَكُمْ ورسولُهُ والمؤمنون﴾ .

وإذا لم يكن الرسول (ص) والمؤمنون ــ الذين هم الأئمة (ع) في الآية ــ يحيطون بما سوىٰ الله . . فما هو إذن معنىٰ قول مليارد مسلم في كلّ صلاة : « السّلامُ عليكَ أيّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته » . فهل هذا الخطاب من مليارد مسلم للنبيّ في الصّلاة ــ مرّات في اليوم ــ لون من العبث الذي لا يستند إلىٰ واقعٍ موضوعيٍّ ؟! أم انّ النبيّ (صلّىٰ الله عليه وآله) مَظْهَـر لله المحيط علماً بكلّ شيءٍ ؟

أيجـوز أن نقول إنّ النبيّ وأهـل بيته المعصـومين لا يعلمون كـلّ حقائق القرآن ؟ إذا كانوا لا يعلمون حقائق القرآن . . ألا ترىٰ أنّه يغدو نزول القرآن لوناً من العبث ؟! تعـالىٰ الله عن ذلـك . وإذا كـان النبيّ (صلّىٰ الله عليـه وآلـه) محيطاً بمعاني القرآن وحقائقه وأسراره ، فانّ الله تعالىٰ يقول عن القرآن نفسه : **﴿ولا حبّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مُبين﴾** .

٣ ــ كيف يصحّ ألّا يكون النبيّ والأئمة الهداة (صلوات الله عليهم) علىٰ إحاطةٍ بما يعتلج في قلوبنا . . في الوقت الذي يلبّون فيه حاجاتنا ، حين نتوسلّ بهم فيما يهمّنا من دقيق الأمور وجليلها ، وفي القليل والكثير ؟!

٤ ــ هـل يمكن ألّا تكـون لهم (صلوات الله عليهم) هــذه الاحـاطــة العلميّة ، وتكون هذه الاحاطة للشيطان . وبما له من الإحاطة كان وما يزال دأبه المكر ببني آدم والتزيين لهم والتسويل ؟

ثمّة عشرات الأدلة ــ قرآنيّة وحديثيّـة ــ من هذا النمط ، يغـدو منكرهـا ــ والحالة هذه ــ في عداد الكافرين . وإذا كنّـا كذلـك فينبغي أن نعلم أنّ لنا أعيُناً لا نبصر بها .

إنّ إمام الزمان (عليه السلام) ليس هو الغائب عنّا . . إنّمـا نحن الذين في آذاننا وَقْرٌ . وليست العلّة في إنّه (عليه السلام) هو الذي لا يتكلّم معنا . نحن الذين لا نحسّ به ولا نشعر ، لا أنه هو النائي البعيد عنّا :

وقلتُ : سأبلغ يوماً بحبّكَ أُفُقَ « الوصال » .

فقال : أنْظُرَنْ جيّداً . . فلعلّك « واصلُ » من حيثُ لا تَشْعُرُ !

نحن جميعاً ــ وحتّىٰ مَنْ رأيت من بعض العلماء ــ في هموم الوصال واللقاء بالإمام بقيّة الله . ونحن ــ في البُعْد البدنيّ ــ نزور الإمام ونطلب منه حاجاتنا ، مطمئنين أنّه يسمع كلامنا ويلبّي حاجاتنا ، ولكننا ــ مع ذلك ــ نقول : إلىٰ الآن ما رأينا الإمام ! لقد حدث مراراً وتكراراً أن فاز بعض الناس بلقاء بقيّة الله (أرواحنا فداه) . . فما عرفوه ــ في حينها ــ وتأسّفوا لما فاتهم من التعرّف عليه ، قائلين : لماذا ما عرفناه حين رأيناه ، ولم نستمد منه ما نريد ؟!

ولمثل هؤلاء ينبغي أن يقال : إنكم حتّىٰ الآن ما عرفتموه . فلو كنتم تعرفونه حقّاً لما كان لديكم فرق سواء أحضر في البدن الظاهر أم لم يحضر . فهل الذي يمدّكم بما تريدون هو ظاهرُ البدن ؟!

وحين تتودّدون إلىٰ الإمام وتظهرون له علائم محبّتكم . . فهل . التودّد وإظهار المحبّة لمحضٰ ظاهر البدن ؟!

إذا كان هذا هو التصوّر . . أي انكم لا تستطيعون التوجّه إلىٰ الإمام والإقبال عليه بالمودّة إلاّ من خلال الجسد الظاهريّ . . فكيف تقدرون ــ والحالة هذه ــ علىٰ حبّ الله (تعالىٰ) والتوجه إليه في طلب ما يهمّكم وما تبتغون ؟!

نعم . . يا أخي .

إذا كانت لك عينٌ مُبصرة ، وأذنٌ واعية ، وكانت أحاسيسك سالمة مُعافاة . . فانك ترىٰ ــ في كلّ ما حولك ــ الله (سبحانه) والنبيّ وفاطمة الزهراء ، وآثني عشر إماماً معصوماً ــ وخاصّة إمام الزمان (عليه السلام) . ولا تعاني عندئذٍ من ألم الفراق ، وستبلغ مقام الوصال المطلق الذي لا تتخلّله

لحظة واحدة من النأيّ والفراق .

إنّ هَمَّ الإنسان الأكبر في هذه الدنيا ينبغي أن ينصبّ علىٰ إزالة الحُجُب التي أسدلها من حوله إمّا خَدَر الطبيعة التي تشبّع بها الإنسان ، أو المعصية ، أو العادة والألفة للأفكار والأشياء ، أو ظلمة الجهل بالحقائق ، وكما قيل : « أنتَ حِجابُك . . فانتفض يا حافظ »[1] .

ولست أنسىٰ ـ في هذا الصدد ـ ما حدث لي أيّام الشباب حين عملت بما أوصىٰ به السيّد عليّ بن طاووس (رضوان الله عليه) ولده في كتاب « كشف المحجّة لثمرة المهجة » ، إذ قال له : « إذا طلبت حاجةً من مولاك الإمام المهدي (صلوات الله عليه) فتوسّل إليه بالرّحم الذي بينك وبينه » .

فلقد ذهبت ـ استفادةً من هذه الوصيّة ـ إلىٰ حرم الإمام الرِّضا (عليه السلام) وقلت مخاطباً الإمام وليّ العصر (عليه السلام) : أنا من أرحامك يا مولاي ، فلماذا لا تصل رحمك ولا تتفقّدني ؟! وانخرطت في بكاءٍ طويلٍ . . ثم هويت إلى السجود . ويبدو أنّ سِنةً من النوم قد أخذتني حين رأيت الإمام الحجّة ابن الحسن (أرواحنا فداه) يقول لي بملاطفةٍ عجيبةٍ :

نحن في مراعاتك دائماً ومعك باستمرارٍ ، وقد أعطيناك كلّ ما أردت . . ولكنّك قاطع الرَّحِم ، فلا تذكرنا إلاّ قليلاً .

هذا . .

وفي الخاتمة أرجو أن يكون هذا الكتاب قادراً علىٰ الإعانة الفكريّة لبعض السالكين في طريق الله .

آمين !

---

(١) شطر من بيت لحافظ الشيرازي .

الفهرس

السيد حسن الأبطحي

معراج الروح

ترجمة
إبراهيم رفاعة

دار البلاغة